خالد النصرالله

الطَّواف حول النّخلة

‘براعة لافتة وقدرة أدبيّة’

عبّاس بيضون

رواية

دار الساقي

خالد النصرالله
الطَّواف حول النّخلة
’براعة لافتة وقدرة أدبيّة‘
عبّاس بيضون
رواية
دار الساقي

الطَّواف حول النّخلة

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- الخطّ الأبيض من الليل
- الدَّرَك الأعلى

تصميم المشاهد المتخيّلة ولوحة الغلاف:
مشاري محمد العبيد

خالد النصرالله

الطَّواف حول النّخلة

دار الساقي

هذا الكتاب مُجاز لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، الرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم تشتره لاستخدامك الشخصي، الرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية، 2025

الطبعة الإلكترونية، 2025

ISBN-978-614-03-0374-4

Published 2025 by Dar Al Saqi Dar Al Saqi Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

T: +44 (0) 20 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

@DarAlSaqi دار الساقي Dar Al Saqi Dar Al Saqi

إلى محمد جواد (أبو مازن)
مثال الخِلّ الوفيّ

إلى سارة
مختصر نساء العالم

هذه رواية مغزولة بالافتراضات والاعترافات والوقائع والتاريخ، وبعض من الأقاويل والصحف والأحلام؛ فإن أحداثها تحتمل الخيالات أكثر من الحقائق.

سمعته يقول في لقاء عام: "كتَبتُ ثلاثة أجزاء، ثم فشلتُ في المواصلة".

فتخلّصَ من رزم المخطوطات التي أثقلت أدراج مكتبه، وأبقى على مجلد واحد فقط.

وعندما عقدتُ أمري، وتحدثت إليه بشأن المسوّدة التي ما زالت بحوزته، قطعتْ إجابتهُ رغبتي في المتابعة: "حتى هذه، سأتخلص منها قريباً".

ابتسمتُ، وتقهقرَت الفكرة التي دوّخت رأسي منذ مدة، وربما لو لم أكن يومها في مزاج جيّد، لما أصررتُ على كشف الأمر: "أردتُ أن تسمح لي بخوض هذه التجربة، نيابةً عنك". فنَحَم قليلاً، وأراح ذقنه على راحة إحدى كفّيه، ثمّ صمتَ حتى شعّت عيناه: "فكرة...". لكنّه لم يعطني جواباً حاسماً، فقط طلب أن أمنحه وقتاً لمراجعة العرض.

***

اتّصل بي صباح اليوم التالي: "البارحة لم أنم جيداً" ثمّ استغرق في عطاس متوالٍ: "قلّبت الموضوع الذي طرحته عليّ، حتى انتبهت إلى أمر" وددتُ لحظتها أن أطمئنّ على صحّته، لكنّه واصلَ: "كتبَ عنّي فلان وفلان، وكانت كتاباتهم توثيقيّة، فإن كانت فكرتك مثل هذه، فدعنا نصرف النظر عنها" فقرّرتُ أن أقدِّم له نموذجاً يستطلعه بنفسه، عوضاً عن مناقشته هاتفياً، قال: "هذا أفضل" ثم أضاف: "ابذل جهدك، الرجل لا يسلّم تاريخه لآخر بسهولة".

***

بعد أسبوع تقريباً، جئته بخمس ورقات تحوي مشاهد لقصص من طفولته استقيتها من أحاديثه الخاصّة، جهدتُ في خلق حكايات جانبية تجعل تلك الأحداث كتلة واحدة متدرّجة البناء. طلب منّي قراءتها، ففعلت، وكان ينصت إليّ دون أن يبدي تعليقاً عرضياً، وعندما انتهيت أخذ يطالع الأوراق بنفسه، ثم قال: "جيدة، ولكن أشعر بأنّ ثمة أمراً ليس عادلاً". لم أفهم قصده، فأدرك ذلك: "عليك أن تضع نفسك في سياق الأحداث، وتقصّها بنفسك". تبادرتْ إلى ذهني عدّة أفكار، قلت: "هذا قد يكون مناسباً لو كانت مجرياتها متعلقة بوقتنا

الراهن، لكن كيف سأروي أموراً مضى عليها سبعون عاماً!؟". فتح ذراعيه، وبدت على شفتيه ابتسامة خفيّة: "الكتابة الروائيّة تحتمل ذلك". هززت رأسي، ثمّ طلبت منه أن يمنحني بعض الوقت لتعقب الأمر.

***

عدت إليه بعد وقت: "سأتلبّس بعض الشخصيات التي شهدت أحداثاً متعلقة بك، ربما صديقك، جارك أو ناقد تبغضه يتقفى أخبارك، أتنقل بينها عبر الأزمان، لكنها ستبدو كأنها شخصية واحدة". نظر إليّ برضى، فقال: "فكرتك هذه مدعاة احتفاء، أوافق عليها شريطة أن تلبّي مراداً واحداً".

فتطلّعت إليه بتحفز وترقب: "سمّني طَرَفة" ثم أعاد: "طَرَفة.. بفتح الطاء والراء".

ولسبب ما، واتتني ابتسامة ماكرة، قلتُ: "لا بأس، إن كان المقابل أن أسمّي نفسي إسماعيل".

دهشة الرد، وعدوى الفرح، أفضت إلى ضحك متبادل، قال: "لا اعتراض، ما دامت الكتابة كتابتك".

١

نوفمبر، عام ٢٠٠٩

كنتُ في مبنى جريدة أوان، عندما أشار إليّ الشاعر حمدان بتتبّع قصص الكاتبة بلقيس.

لم يكن بوسعي سوى رصد حركة ذراعيه المفرطة. أخذ يسهب في امتداح قدراتها الفنيّة وحرفتها العالية، خصوصاً لغتها الكثيفة ومجازاتها الفطينة. لم أعهده بهذه الحماسة، كان صادقاً جداً، بدت وصاياه مثل أسرار يفضي بها لي دون الآخرين، شعرتُ بذلك من نظراته الشاخصة ونبرته المتيقنة، وصوته الذي يخفضه حين يجتاز أحدهم مكان جلوسنا.

كنتُ متطلعاً واثقاً بلا شك، قد أستحق هذا الاهتمام، لكنني متخبط ومتسرّع في الآن نفسه، أدركت هذا لاحقاً. حمدان في عقده الرابع، أو ربما الخامس، أصادفه كل يوم في الصحيفة أمام غرفة الإخراج أو حين يقطع أحد الممرات، يرتدي دشداشة دون غترة وعقال، وأحياناً قميصاً وبنطلون جينز، وكانت تلك صورته الحاضرة في ذهني باستمرار. أخذ يكرر في حوارنا جملة لازمة: "وجوب التخلص من كل ما يحيّد القارئ عن الحدث الأساسي". ورغم نصائحه السخيّة، يعترف بوضوح وتواضع، بأنه ليس ذلك المحترف الذي بمقدوره نقد وتقييم القصة الجيدة من السيئة، لأنه شاعر، ويولي مجاله اهتماماً خاصاً. لكنه، لسبب ما، أخذ على عاتقه مسؤولية إرشادي، ودعاني يومها بإصرار شديد إلى حضور ملتقى الثلاثاء الأسبوعي: "هناك نخبة من المثقفين العرب، مزيج متنوّع، سترى كيف يمكن لهذا أن يغيّرك إلى الأفضل".

لم أقرّر أن أصبح كاتباً، سارت الأمور على هذا النحو دون تخطيط. كانت هناك بوادر ناشئة في الطفولة، محاولات عدة لكتابة الشعر العمودي، وفي مرحلة لاحقة، بدأتُ أنشر بعض المقالات على مواقع الإنترنت من قبيل المتعة، لكن التحوّل المغاير طرأ لمّا تلقيت اتصالاً من صديق بشأن تعيين

والده رئيساً لقسم الثقافة في صحيفة الوسط، وكانت المفاجأة عندما عرض وظيفة ضمن فريق التحرير نتيجة مطالعته لمنشوراتي في إحدى الصفحات الإلكترونية. هذا خبر مرعب سار، وقد استغرقتُ في الأمر قبل أن أقرّر خوض المغامرة.

تقع الجريدة في مكان قريب من ساحل البحر، تتراءى زُرقة الشاطئ عند مدخل المبنى، لكن الاجتماع الأول أقيم في مقهى بجوارها. رئيس القسم ومحرّران مخضرمان وأنا. كنتُ أحاذر التفوّه بأية حماقات، ولكن حين سُئلت عن مستوى الأقسام الثقافية في الصحف الأخرى، أجبت بثقة عالية: "سيئة".

***

في تلك الصحيفة الناشئة تعرفتُ إلى الشاعر حمدان، كان يعمل في قسم المحليات، وبدا ذلك من المتناقضات العجيبة. وفيما كنتُ أحاول كتابة القصص القصيرة أيام المناوبات الليلية، أطلعتُ زميلاً عليها بقصد تصحيحها نحوياً، لكنه لفت انتباهي إلى وجود شاعر مهم يعمل معنا في الجريدة. لم تدفعني أيّ رغبة للتعرّف إليه، كنتُ أمضي في ما أفعل، ورأيت أنني بلغت مرحلة من النضج تسمح لي بتقييم ما يُترك ممّا يُنشر. ولم يجرِ بيننا سوى شكل من التعارف السطحي بعد أن أبلغه الزميل عن اهتمامي بكتابة القصّة. في تلك السنة عينها، نشرتُ مجموعتي القصصية الأولى، التي توليت طباعتها وتوزيعها بجهودي الفردية. اخترتُ لها عنوان "الكواكب السفلى" الذي وجدته مغرياً كفاية ليتهافت عليه القراء من كل صوب.

بعد مضيّ عام وبضعة شهور، قررت ترك الصحيفة، ورفضتُ عرضاً مغرياً من جريدة أوان، رشّحْتُ له صحافياً شاباً آخر انضمّ إلينا خلال الفترة الماضية.

***

عرضْتُ مجموعتي القصصية ضمن أحد الأجنحة المشاركة في معرض الكويت للكتاب نظير نسبة مقتطعة من المبيعات، وبدافع الفضول على ما يبدو، اقتناها الشاعر حمدان. ربما بسبب ندرة الأسماء الجديدة النشطة وقتذاك. لم أعرف

أنه طالعها قبل أن أصِلَ مجموعة من الأصدقاء في صحيفة أوان كان بينهم شاعرنا، الذي بدأ يتحدث إليّ بحماسة منذ التقينا، ثم أخذ يسير في اتجاه أحد ممرات المبنى، ورحت أمشي محاذياً له بآلية عفوية حتى أفصح عن رأيه في الكتاب. أدهشني هذا الاهتمام، فاستجبت لحديثه وأبدى بعض الملاحظات بعد أن أثنى على الموهبة ومغامرة النشر الفردي، إلى أن انقضى اللقاء بدعوة جادة لحضور فعاليات ملتقى الثلاثاء.

تذكرتُ تلقائياً ما قاله صديقان، كانا قد انضمّا بطريقة ما إلى مجتمع الأدباء، حول لقاء أسبوعي يُجرى في محالّ يُغطى زجاج واجهتها بقماش أسود. كانت المشاهد التي نقلاها قاتمة، نقاشات نوعيّة عاتية تديرها نخبة مثقفة مخضرمة، يتناوبون النقد والتفكيك بالسياط والمشارط، قساة لا يجاملون أحداً على منصة اللقاء، تعرية على مرأى الشهود، يعشّقون أسلحتهم ويردونهم بلا رحمة، وإذا ما خرج أحدهم من القاعة وفي داخله رغبة هشة في البقاء أو المحاولة، فإنه من أولئك الذين أولاهم الله العزيمة والإصرار الفريد. كانا يصفان المكان بروح الحماسة والسخرية، شعرت بأنهما يريدان قول: "على الكاتب الذي يعتقد أنه جيّد كفاية، الخضوع لهذا الاختبار".

استنكرتُ تلك الصورة الغريبة الآتية من الجحيم، لم آخذ حديثهما على محمل الجدّ، لكنني بكل صراحة، توجّست من زيارة مكان كهذا. استحضرتُ تلك المشاهد والأقاويل بعد زيارة جريدة أوان، خصوصاً بعدما حدّد الشاعر مكان الملتقى: "مجمع غاليريا في منطقة الضجيج". قلت وجلاً: "لا مانع، شريطة مرافقتك أوّل مرة". وانتظرتُ موعدنا، وترقبت مكالمة حمدان التي تأخرت، فاتصلت به، واعتذرَ لظرف طارئ عن الحضور: "لا ضير من الذهاب وحدك، الدعوة لعامة الناس". لكنني لم أفعل، ولم أفصح له عن ذلك، وجاء أسبوع آخر وتواصلت معه من جديد، فتعجّبَ من تحيّري الرهيب. كنتُ أتأرجح بين رغبة الاستكشاف والصدمة، أخشى ردة فعل قد تقتلع نبتة نديّة بدأت تنمو بداخلي.

تواعدنا في ساحة ترابية بالقرب من المكان، عندما وصلت أصبحت في مواجهة عدد هائل من لافتات المحالّ الكهربائية. منطقة الضجيج مخصصة

للأنشطة التجارية فقط، وتكتظ بمعارض الأثاث المنزلي. طُرقها ضيّقة وغاصّة، لا يمكن لأيٍّ ممّن يرتادها تخيّلُ أن نشاطاً ثقافياً قد يُمارس فيها أو حولها. كانت جلستهم تبدأ في السابعة والنصف حسبما أذكر. وصلنا قبل الموعد، مجمع غاليريا يأخذ شكلاً طولياً، مكوّناً من طابقين، إذا ما تجاوزتَ بوابته فإن مقر الملتقى سيكون في الطابق الأول من جهة اليسار. تقف مجموعات صغيرة ومتفرقة خارج القاعة، تتبادل الأحاديث ويشعلون السجائر قبيل بدء الحلقة. كنتُ أسير بجوار حمدان مثل طفل تخالجه مخاوف من الغرباء، لم تكن الوجوه مألوفة أبداً؛ أنا جديد كلياً على هذه الجماعة، رحتُ أبادلهم التحيّات مثلما يفعل الشاعر، فكرتُ وقتها ألا أنخرط في أية نقاشات مُحتملة، كنتُ حالة مثيرة للشفقة. عند منفذ القاعة، نَفحت أنفي رائحة أعرفها، تراءت لي غرفة صغيرة تحوي مكتبة، مثل استراحة تؤدي إلى غرفة اللقاء، هذا عبق الورق. عندما خطوت إلى الداخل، وجدتني أقف خلف رجل نحيل شعره أبيض كثيف، يرتدي قميصاً وبنطلوناً رماديين. أعرفه. هكذا قلت لنفسي. في اللحظة التي التفتَ فيها نحونا بطريقة سينمائية، بدا كما حدست، إنه طَرَفة.

٢

في حالة لامرئيّة، أقف فوق تلة رملية أو هكذا أحسست، وعلى مرمى النظر، من مكاني، لا شيء يلفت الانتباه غير بيت مغاير لما حوله، مشيّد بطابوق أحمر من طابقين، نوافذه مستطيلة عمودية مدعمة بقضبان صلبة، يحوطه سور بارتفاع مترين، تشطره بوابة حديدية سوداء. السماء شتوية، غيومها تظلل الدرب الترابي الضيّق الذي يفصل حد النهر المواجه للبيت. الهدوء سمة أحياء هذه القرية، ورغم نشاط أفرادها الدائب منذ الفجر، فإن نهارهم صامت إلا من نداءات أو تحايا بعيدة، تتعالى بين الحين والآخر، يعجز المنصت عن فهمها. الأجواء رمادية تنذر بمطر محتمل، ونفحات ريح باردة، ترعش الأبدان بين حين وآخر.

تُفتح البوابة الحديدية على مهل، يلوح رأس طفل في الثالثة تقريباً يتطلع إلى الجوار، خَطا إلى الخارج وأخذ ينظر باهتمام إلى الضفة الثانية التي تبعُد نحو ثلاثين متراً. بدت بُنيته النحيلة أصغر من عمره المُفترض، التحقَتْ به فتاة سمراء تكبره بعشر سنوات أو أكثر. مياه النهر خضراء طافحة، تستمدّ لونها من انعكاس غابات النخيل التي تتخللها أشجار الرمان والليمون في الناحية الأخرى؛ الغيوم بدأت تردّ بخجل، حبيبات صغيرة رقّشت بساط الماء الصافي، وتحت هذا المشهد البديع، يعمل مجموعة رجال حفاة، يتّسمون بحركة انسيابية موسيقية، يتبادلون حمل أشياء ثقيلة، كما يتراءى من موقعنا، يحفرون ويحطون حجارة فوق أخرى؛ سقطت حزمة من شعاع الشمس التي انتهزت فسحة بين السُّحب، فتبيّن أن الطفل هو طَرَفة ذاته، الذي اقترب وراح يحيّيهم بإصرار آخذاً بلفت انتباههم. كان العمّال قد توقفوا عن حركتهم بغية الرد عليه، بدا أنهم يعرفونه جيداً، يستلطفونه، لكنهم سرعان ما عادوا إلى عملهم.

الفتاة السمراء ليست أخته، لا يلتقيان ولو بطيف ملامح، على الإطلاق، قوامها ممشوق وقسماتها متسقة، كانت تمسك كفه الصغيرة، أظن أنّ اسمها

طليبة، هكذا سمعتُ ذات مرة في حديث عابر. عينا الطفل تحطّان على صفحة النهر التي قد تبدو كسجادة خضراء مبسوطة، ينظر بإمعان وتأمل متواقتين مع اختفاء المطر، شعرتُ حينها بأنه يعتزم القيام بفعل باغت، في خمس ثوانٍ تقريباً، نقّل أنظاره بتواتر بين الرجال والماء، بدرت منه حركة مفاجئة، أفلت كفّه من يد الفتاة، جرى، هرعت للحاق به، حط خطواته الأولى حتى الثالثة على اليابسة، الرابعة في الأعماق.

***

هذا مجرى نهر متفرّع عن شط العرب.

ما إن طشَّ النهر بثقل الطفل طرفة، حتى هبّ الرجال من جهتهم قفزوا، سبحوا، وفي أقلّ من دقيقة انتشلوه قبل أن يعبّ صدره كمية كبيرة من الماء، فيما سَيْطر آخرون على طليبة التي أصدرت صرخة جزعة، ووثبت وراءه متناسية أنها لا تعرف العوم، فراحت تضرب السطح بعشوائية، لكنهم خلّصوها من مأزقها بأقصى سرعة. في المساء، وفي حالة لامرئية أخرى، من زاوية شباك، رأيتُ طرفة يجلس في حِجر والده أمام موقد من قطع الخشب الصغيرة، يعلوه إبريق شراب الدارسين الذي تعدّه أمه صابرين، وفي جهة أخرى من الغرفة، جلست الفتاة السمراء، متدثرة بلحاف، لا تكف عن تجفيف أنفها إثر إصابتها بالبرد.

أخذ الأب يمسد شعر طفله، يلاطفه ويلوم شقاوته بمحبة أمام ألسنة النيران، وعلى إضاءة سراجَين زيتيين، بدت عينا طرفة الخضراوان ترتجفان عندما نظر إلى والده الذي قال: "يتعيّن عليّ تعليمك السباحة" فيما ندّت عن صابرين إجابة معترضة: "في هذه السن؟"، ثم قامت لتمدّ إلى طليبة كوب الدارسين. رغم أن لطرفة أختاً كبرى، عُنيت الفتاة السمراء بالاهتمام به عوضاً عن شقيقته التي تجري تنشئتها لتكون مشروع ربة بيت. كانت بينهم ليلتها، تَشغل زاوية قريبة لكنها ساكنة، تماماً كمن لا وجود له، الأم تعتبرها معاونها الأول، ما إن تزجرها بسبب تراكم سحابة غبار في باحة المنزل، حتى تركن عرائسها الصوفية وتهرع لكنسها وتدبير بقية أعمالها المنزلية. لاحقاً صارت

ترافق طليبة إلى النهر كي تساعدها في غسل الأواني والملابس بعد أن ألحّت على والدتها قبول هذا الطلب الذي يتيح لها الخروج عن أسوار المنزل، ولو كان على بُعد بضع خطوات منه.

اسمها سميرة، فتاة قنوع غير متطلبة، وهي ما زالت طفلة كذلك، فقط تكبُر طرفة بثلاث سنوات، ليست في مرحلة تجعل الأم تثق بقدرتها على تولي كافة الشؤون والمسؤوليات وحدها، لذا كانت طليبة الموكلة بمتابعة طرفة الذي يوقعها دائماً في مطاب محرجة وخطرة كما حدث في ورطتهما الآنفة.

***

مطلع أربعينيات القرن الماضي، كان الطريق الترابي الضيّق يقود إلى أشجار سدر عملاقة تُخفي كلّ ما وراءها.

أسامة، والد طرفة، يعمل في وظيفة تدعى مأمور الاستهلاك، هكذا سمعتُها، أظنه عملاً مرتبطاً بمسائل تحصيل الضرائب والرسوم الحكومية، يرتدي زياً كاكي اللون أقرب إلى الرداء العسكري، يقود دراجته البخارية إلى عمله كل يوم، يسلك الدرب الترابي حتى يختفي وراء جذوع وأغصان السدر. يملك قَدراً جيداً من الكتب، ألمحهُ كثيراً يجلس أمام سور منزله، يضع كأساً من الشاي ويطالع أحدها باهتمام وتفحُّص، وفي مرّات أخرى يطلّ من السطح ممسكاً بجلدة كتاب؛ يُقال، سمّى ابنه طرفة تيمّناً بأعظم شعراء المعلقات، طَرَفة بن العبد. في أحد الأيام كانت سميرة وطليبة تغسلان أواني عشاء البارحة، تنزلان إلى النهر بوساطة درج صخري حين يكون الماء نزراً إثر ظاهرة المدّ والجَزر، ورغم أن صابرين نبّهَت طرفة ألا يحدر معهما، فإنه بعد أيام من التزامه بأوامر أمّه، أدرك قاع النهر خلسة، ولما تفطنت إليه طليبة جرى إلى الضفة الأخرى، مدفوعاً بفضول استكشاف ما وراء غابات النخيل، أفضت سميرة إلى أمها فعل أخيها، ولما علم والده قال: "طرفة رجل، ثأر من النهر". وهذا القول سمعتُه بأذنيّ لم ينقله لي أحد، كان هذا في الليل حين كنتُ أقوم بمناوبة مسائية خاصة، أتتبع نقيق الضفادع وأصوات خرير المياه، فيما تبيت عائلة طرفة على السطح. الهدوء سمة مستمرة، وقت النوم سكينة تامة، فيما إن

تبادل اثنان حديثاً هامساً، فأيّ طرف ثالث قريب بإمكانه سماعها، كنتُ أحاذي البوابة الحديدية وسمعتُ الطفل يوَضّح لأبيه: ”لكن الماء كان قليلاً“. ضَحِك والده، تبع ذلك صوت تربيتة شديدة على ظهره، ثم أكد أسامة: ”تتعلم السباحة فتعبره وهو فائض“ ثم أخذ الصمت حيّزاً بينهما قبل أن يضيف: ”لكنك قهرت النهر في كل الأحوال“.

ماء النهر يأتي من شطّ العرب، وشطّ العرب يأتيه من نهري دجلة والفرات.

في الليلة ذاتها، وعد الأب طفله بأن يأخذه يوماً ليبيت على متن بوم عمّه الذي سيزورهم قريباً. كانت جُملة شديدة الغموض، خصوصاً عندما شدد والده على أمر: ”لا تسألني عن معنى البوم، سيأتي وتراه بنفسك“ لكن الحيرة دفعته إلى سؤال طليبة، ما البوم؟ ردّت عليه بعفوية تامة: ”هذا طائر شؤم، وجهه مستدير شبيه بالبشر، عيناه واسعتان، ينام في النهار ويظهر في الليل“. خياله لم يعنه على مطابقة وصف طليبة بوعد أبيه، كيف للمرء الصعود على ظهر طائر ليرقد فوقه ليلة كاملة؟ ضاعف هذا غموض المسألة. ورغم أن صابرين، والدته، تكره أسئلته اللجوج، وترسله دائماً إلى أسامة ليجيبه عنها، لم يجد بُدّاً من اللجوء إليها لتفُك هذه العُقدة التي أرهقت ذهنه. ما البوم؟ وعلى غير عادتها، كانت تنقل القِدرَ من موضعها على الموقد إلى مكان آخر، فيما تجيبه: ”هذه سفينة شراعية كبيرة، لا يتسع لها نهر السيبة وإن كان طافحاً، أهلكم الكويتيون يستخدمونه لنقل البضائع عبر البحار“. لقد أقفلت أمه باب حيرة تحوم في صدر الطفل، وفتحت أخرى أكبر من الأولى.

***

دراجة أسامة البخارية اشتراها من معسكر الشعيبة، كانت تخص ضابطاً إنجليزياً. حين عاد من عمله في أحد الأيام، أخذ يفاخر بها أمام زوجته وطفليه، يخبرهم عن كفاءتها، ماركة بي إس، الأسرع في نوعها. وقبل أن يركنها في باحة المنزل، داخل السور، قال، موجهاً كلامه إلى صابرين: ”سيرافقني بعد ساعتين“. جملته المبطنة تلزمها بتجهيز طرفة خلال الفترة نفسها كي يخرجا

معاً. ثم نَظر إليه: "بوم عمّك وصل". أخَذَت والدته توصيه وهي ترتب هندامه أن يبتعد كلياً عن حافة البوم.

امتطى الأب دراجته وأفسح مكاناً بين فخذيه في المقدمة، حمل طفله من إبطيه: "افتح رجليك"، ليجلسه أمامه، ثم قادها خارجاً من الدرب الترابي الضيّق؛ يكتشف طرفة، لأول مرة، ما يختبئ وراء أشجار السدر في البعيد عن مرمى النظر من أمام باب منزلهم، رأى أسواراً أخرى شبيهة بسورهم، الطابوق الأحمر، الارتفاع، البوابة الحديدية. كان صوت محرك الدراجة، والهواء الذي يلفح وجهه، والاهتزازات الناجمة عن أرض غير مستوية، تمنعه من تبادل الحديث مع والده. ودّ لو يطرح العديد من الأسئلة عليه عند كل مشهد، لكن اندفاعهما، وتوالي المناظر الجديدة، حالا دون ذلك.

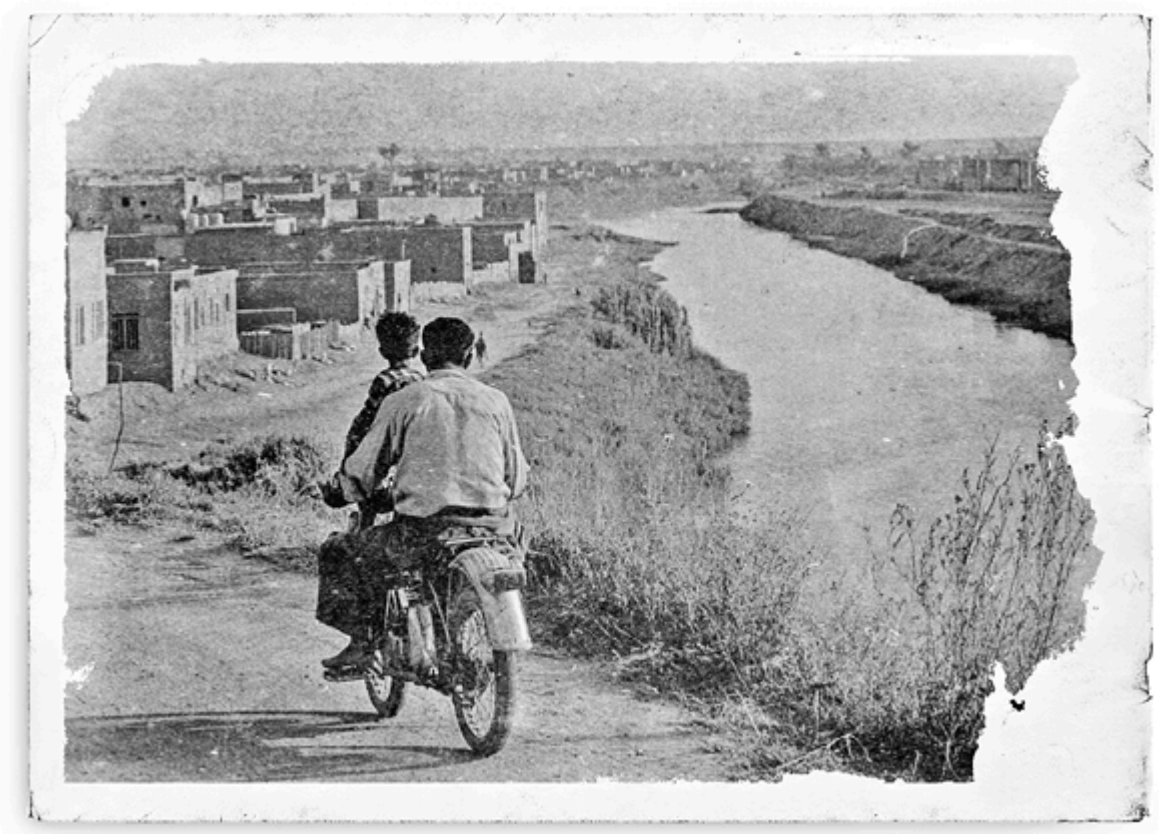

بلغا سوق السيبة، حركة الناس هنا أكثر نشاطاً وصخباً، دكاكين الخضار وورش النجارة والحدادة، أحدهم يصنع أقفاصاً للطيور، وآخر يفترش الأرض لحلاقة رأس صبي بدا متوتراً. اندهش طرفة من والده لكونه لا يتوقف عن رفع

كفه، يردّ تحايا الآخرين، ثم وقفا عند مبنى سرايا الحكومة المهيبة، تلك التي شُيّدت أيام الوالي العثماني مطلع القرن الماضي، يقف رجلان إلى جانبَي بوابتها العملاقة، ألقيا تحية مشتركة: "السلام عليكم أسامة أفندي" عقد الطفل حاجبيه في استنكار واضح إزاء اللقب الذي لحق اسم أبيه. المبنى المهيب نفسه يضم مديرية الناحية، ومخفر الشرطة، ومأمورية الاستهلاك.

القرية تتبع الناحية، والناحية تتبع القضاء، والقضاء تحت مظلة اللواء.

لم ينتبه الصغير إلى البوم الذي أشار إليه أسامة على مبعدة من ضفاف شط العرب، كان مأخوذاً بمشهد تزاحم الزوارق الشراعية الراسية عند مدخل نهر السيبة، لكنه استجاب لصوته: "انظر هناك، مصفاة عبادان". منشآتها المعدنية العملاقة التي تعكس لمعان شعاع الشمس، تُعشي الأبصار. التفت إلى صوب آخر باحثاً عن بوم عمّه. "هناك" يقول أبوه ماغطاً الكلمة، ثم يضيف: "ليس باستطاعته الاقتراب من الضفة، ينبغي لنا انتظار البَلَم كي يقلّنا إليه". فَهم طرفة أن هناك وسيلة وسيطة ستنقلهم إلى محطة سفينة عمّه، لكنه آثر الاحتفاظ بسؤاليه: السبب وراء عدم قدرة البوم على الرسو بالقرب من الضفة، ومعنى البَلَم.

أمسك أسامة بكف الطفل: "تعال لنجول في المبنى". تجاوزا بوابته العملاقة، فوجد نفسه داخل ساحة فارهة في مركزها حوض ماء يطوّق قاعدة رخامية يقف فوقها تمثال حصان منطلق، يركبه فارس متجهّم الوجه. هذه مناظر جديدة تماماً على طرفة، أروقة المكان معززة بأعمدة خشبية صلدة، أبواب ونوافذ كبيرة متوالية وكثيرة، يا لهيبة سرايا الحكومة هذه. تذكّر بيتهم الأحمر من طابقين، لا شيء مقابل هذه القاعات والأسقف العالية، قال بصوت مسموع وعينين مبهورتين: "غُرف لا أستطيع عدّها". راح يمعن في الأرجاء، يحاول قدر الإمكان أن يطل من فُسَح الأبواب المواربة، ممرات وأركان عديدة. رأى في إحدى الغرف صورتين معلقتين وراء أحد المكاتب يحوطهما إطار ذهبي لمّاع، لم يتعرّف إلى شكل الملك فيصل الثاني، ولا عبد الإله الوصيّ على العرش، والده من أخبره أنهما فلان وفلان، لكنه لم يدرك أهميتهما.

عند ضفاف الشط بعد انتهاء جولتهما، حين بدأت الشمس بالغروب، كان طرفة يتحدث إلى والده الذي لم يتمكن من سماعه بسبب أصوات أسراب النوارس التي عمّت الساحل وأخذت تزاحم بعضُها بعضاً، وعندما هدأت قليلاً أعاد طرفة قوله: "وكأنها تودّع النهار" يقصد نشاط الطيور في هذه الفترة من اليوم. في الوقت نفسه لاح أربعة رجال عراة في نصفهم العلويّ، يغطّون النصف الآخر بإزار، يقودون البَلَم الذي ظَهر من جهة ما، ربما بتوجيه من عمّه على متن البوم، تسنّى له في اللحظة معرفة إجابة واحدة من الاثنتين اللتين كانتا تدوران في خلده قبل جولة المبنى. وصلوا إلى الضفة، فصعد أسامة حاملاً طرفة وجلسا في مؤخرة المركب. البَلَم قارب مدبّب الطرفين، ينطلق بخفة وينسلّ بين الزوارق الراسية، يتحرك بفعل المجاذيف التي يحفّزها الرجال بالتواقت.

حين اقتربوا، رأى عمّه يلوّح لهم على متن السفينة، طلعته لا تختلف كثيراً عن رجاله، ضئيل البنية، نصفه عارٍ هو كذلك. توقف قاربهم ملاصقاً البوم، بالتزامن مع المشهد، تذكر والدته حين قالت: "أهلكم الكويتيون" غالباً، هذا ما يرد في رأس طرفة من خواطر، تطلّع إلى الأعلى، وجد البوم يفوق بيتهم حجماً، رذاذ الأمواج التي تلاطم جسم المركب تلاطف وجهه وذراعيه. صعد أولاً بوساطة وعاء من الليف المفتول، جلس بداخله وتشبّث بعروتيه المعلقتين بالحبل، وأخذوا يشدّونه إلى الأعلى حتى بلغ عمّه، الذي حمله إلى داخل السفينة، لحقه والده، لكنه لم ينتبه إلى الطريقة التي وصل بها إلى السطح، كان مشدوهاً بمشهد البوم من الداخل.

***

قالت أمه: "لا تقترب من الحافة".

بعد قليل، كل شيء بدأ يغرق في العتمة، الزوارق والطيور ومبنى السرايا، السماء بدت أقرب والنجوم أكثر وضوحاً من أي وقت آخر، وهذا البوم يتمايل فوق سطح البحر بخفة تدعو إلى الاسترخاء، المشي على متنه ليس كما على اليابسة، وحافته لا تشبه ضفاف النهر التي لم تمنعه من السقوط في بطن

الماء. للبوم سياج خشبي بارتفاع ذراع بالغة تحوط أطرافه، ليس كما تخيّلها بإيحاء في نصيحة أمه. كان يجلس بالقرب من والده أغلب الأحيان، فَهِمَ أنهما – والده وعمه – لم يلتقيا منذ حوالي سنة، أخذ الاثنان يتبادلان أحاديثَ عديدة لم تكن مشوّقة لطرفة الذي راح يراقب مجتمع السفينة هذا، لاحظ أنه لا نساء عليه، المكان يعجّ بالرجال وأعدادهم فاقت تخيّله وتوقعه، لم يتصوّر أن باستطاعته حمل هذا العدد من البشر، ثم انتبه إلى كائن يخطف بين أركان المكان، أثار هذا استغرابه، أمعن فيه قليلاً، ثم طرفت عيناه وقاطع حديثهما: "أهذه قطة؟" ضحك عمّه إثر صيغة سؤاله المشوبة بالدهشة.

"القطة تتولى أمر فئران المراكب، والفئران تقضي على العقارب التي تختبئ في أكياس التمور الناشفة".

هكذا شرح له عمّه راشد، ثم طلب منه الاقتراب ليشاركهما شرب القهوة، استجاب الآخر بدوره، جرّبها على مضض، مُرّة، لم يعاود كما يفعلان، لم يتوقفا عن تناولها حتى اضطجع كلاهما وراحا يستحضران ذكرياتهما، كما بدا للطفل، لم يتمكن من فهم تفاصيل الحديث ولكن هذا ما استوعبه مجملاً، أخذ يتأمّل الاثنين، لاحظ التشابه الكبير بينهما، طرفة ينادي كل الكبار تأدباً بلفظ "عمّي" لكنه هذه المرة وجد مدعاة مختلفة، قال لوالده: "هو أخوك؟"، أسئلته تثير دهشتهما وضحكهما في آن واحد، أوضح له أسامة أن له أخاً واحداً يدعى عبد المحسن يسكن قرية السبيليات، لكنه بمثابة أب آخر بسبب فارق السن الكبيرة بينهما، أمّا راشد فهو ابن عمه، لكنهما صديقان مقربان جداً.

فكّر طرفة في طليبة وأخته، ووالدته صابرين، هنّ نائمات في مثل هذا الوقت بلا شك، ولو كان معهنّ الآن لما استطاع السهر حتى هذه الساعة. البقاء مع الأب بعيداً عن البيت يمنحه نوعاً من الحرية، أو ربما الفوضى. ليل السفينة هادئ جداً، لا يسمع نقيق الضفادع وهديل اليمام التي ينام على أصواتها، ولا يتراءى له سعف النخيل في قلب العتمة. استيقظ فجراً على صلاة البحارة، وبعد أن شق شعاع الشمس ثقباً صغيراً في السماء، وضعوا طعام الإفطار الذي تناول فيه حلوى مسقطية جلبها عمّه من أسفاره الكثيرة، أثارت إعجابه ودهشته. قضى تجربة مغايرة لم ينسها، وعاد بعد الشروق بالطريقة

نفسها التي جاء بها، البَلَم والدراجة البخارية، مروراً بسرايا الحكومة وسوق السيبة وأسوار البيوت المتوائمة.

٣

نوفمبر، عام ٢٠٠٩

عندما التفت طرفة بدت طلعته لامعة برّاقة. كان ينظر إليّ بدهشة تامة، شعرتُ لوهلة بأن في عينيه الخضراوين ذكريات تجمعنا، تبادلنا الابتسامات، كنتُ متهيئاً ومتحفزاً للدخول معه في حوار. طرفة من أهم الروائيين العرب، وأنا أعرفه من خلال الكتب فقط، لا أدري لماذا بدأت تومض في رأسي صور غابرة لا تمت لزمن عشته، ربما تعود لأكثر من ستين عاماً، حياة في قرية بين النباتات والماء والطين، صوت داخلي يؤكد: "مشاهد متعلقة بعصر نشوب الحرب العالمية الثانية". أحسست بكدمة في الدماغ، وكأن جسماً صلباً ارتطم به. غزوة نفسية بدنية. استعدت زمام أموري، عدت إلى الواقع فدهمتني حالة افتتان، هذا أول لقاء بيننا بلا شك، لقد علق في مخيلتي هذا المشهد الماثل، لحظة استدارته نحونا، أنا والشاعر، بدت مثل التفاتة نجم سينما، شخصية تلفاز أو بطل رواية.

هذا طرفة، أسررت لذاتي، ومددت يدي لمصافحته قبل أن ينتهي حمدان: "إسماعيل". سبقتُ الشاعر الذي أتمّ: "صحافي وكاتب قصة" هلّل الآخر، ودون أية مقدمات قلتُ: "أتسمح لي أن أجلب لك مجموعتي القصصية الأولى؟" كانت لهفة واضحة، خرجتُ مسرعاً إلى سيارتي التي أضع فيها كمية من النسخ تحسّباً لأيّ حاجة، وعندما عدت كان في انتظاري: "لقد أعطيتها عدداً من الأدباء" هزَّ رأسه "لكنني لم أتحصل على رد" تنهّد وقال بلغة فصيحة "كلنا بدأنا هكذا". أخذت أتأمله يقلّب صفحات الكتاب دون أن أقاطعه، عندئذ أطبق الغلاف وسمعته يقرأ العنوان بصوت هامس "الكواكب السفلى" ثم ارتفع حاجباه، فهمت أنها حالة قَبول، وأشار للدخول إلى القاعة: "حيّاك". كان هذا، تقريباً، أول حديث تبادلناه. جلستُ يومها بجانب حمدان، كانت ندوة حول الحركة السينمائية في منطقة الخليج، لم أكن على إحاطة بالموضوع قدر

انشغالي بالأجواء، أراقب تصرفاتهم، مداخلاتهم، تعاطيهم مع الضيف، وكنت أرقب بين حين وآخر مشهد طرفة الجالس في ناحية اليسار من المقدمة، يتراءى جانبه الأيمن، كان ساكناً منصتاً أغلب الوقت لا يُبدي أي ردة فعل حيال ما يجري. من الوراء، عندما يحرك رأسه قليلاً باتجاهي، تظهر عيناه الغائرتان في محجريه، اللتان لا تقولان شيئاً، لا تعبّران عن حالة عاطفية، صامتتَين مكتنفتَين، تبصران جوف الأشياء، لكنهما ممتلئتان، مزهوّتان بالحكايات.

في المساء، حين أويت إلى مرقدي، تداعى إليّ الصديقان، ما قالاه في وصف غاليريا الثلاثاء، الاضطهاد الثقافي الذي يجري وراء الزجاج المُغطى بقماش أسود، واتتني ابتسامة: "غبيّان". أغمضت جفنيّ.

***

بعد أسبوع، في الموعد والمناسبة ذاتهما، وقف طرفة في الممر خارج محل الملتقى، عيناه هذه المرة تشيان بترحاب فَرِح، تأهّبَتْ كفّه بغية المصافحة، حماسته تتوافق وصديقين حميمين، هذه الحفاوة دفعتني لأُقبّلَ رأسه بودّ، كان ذلك في حضرة حمدان الذي التفتَ إليه طرفة قبل أن يُحرر كفي، وقال موجهاً حديثه إلى الشاعر: "من أين جئت بهذا الولد؟". دهَمَتني مسرّة قلبية، سؤاله اختزل إشادة عظيمة، ثم أردف ما يعني أنه أنهى المجموعة القصصية، وحرّك رأسه بطريقة أعرفها، وصغّر عينيه قبل أن يمزج هذه الإيماءات بقوله: "رائعة". كنتُ مندهشاً مذهولاً من سرعة استجابته، وشهادته التي منحني شرفها في مدة تعارف وجيزة. لقد توقف الزمن وقتها، كنتُ لا أرى سواه، محيّاه الباسم، تغضنات رقبته، شعره الكث الذي ينسدل فوق أذنيه، انحناءة شاربه الصغيرة التي تطوّق جانبَي شفته العليا. وكل الأشياء اختفت. أجبتُ بما أجبته حينها، لا أذكر، حتى إنني لم أنتبه إلى كفيّنا اللتين ما تزالان متصافحتين، كلّ ما فكرتُ فيه آنذاك، خلال الندوة، وبعدها، وفي المساء، وبين يقظتي ومنامي، حتى اليوم التالي، أن كل الثقة التي منحتها نفسي كنتُ أستحقها، ولم أكن أغالي في تقدير ما أكتب بكونه يستحق العناية والنشر.

"ينبغي لك زيارتي في المكتب".

وطلب مني تسجيل رقم هاتفه، وضرورة التواصل خلال الأسبوع لنرتب لقاءً قريباً. نالتني مشاعر الفوز بجائزة أدبية مرموقة، وألحّت عليّ رغبة العودة إلى قراءة قصصي طوال فترة جلسة الملتقى. بعد انقضاء اليوم فعلتها، أعدت قراءة المجموعة من جديد وكأنها لا تخصّني، وسؤال يطرق بتكرار لا ينفك عن المراوحة، يأخذني على محمل الشك، أهذه الكتابة جيدة إلى هذه الدرجة؟ سؤاله الذي وجهه إلى حمدان، ووصفه "رائعة" إثر خلاصة قراءته، لم يكن وقع هذا طبيعياً في أذني، ربما منذ تلك اللحظة تحديداً، بدأت تعتريني مسؤولية كبيرة حيال الكتابة، وشعرتُ بأن لهذا الفعل حصراً تأثيره وجدواه.

***

أعدتُ النظر قليلاً في مسألة الثقة وقدرة الكتابة السحرية.

ظهيرة الجمعة، كنتُ أقرأ كتاب التاريخ العلمي الموجز، بالقرب من نافذة تطلّ على الشارع العام، عَلِقَت معلومة في ذهني عن دور الفرنسيين الفعّال في مُنجز الاكتشافات المعاصرة، ودون أي سبب أو رابط مباشر، خطر لي أن ما جرى الثلاثاء الماضي ليس أكثر من حلم أو خدعة. هذه وساوس طبيعية، وربما ليست كذلك تماماً، وإنما تظهر عادة أعراض انسحابية إثر حالات الذهول والمفاجأة بعد مضيّ أيام قليلة. على ما يبدو كنتُ مندفعاً بعض الشيء، ولكي أتحكم في المسألة، قررت التريّث في التواصل مع طرفة. ربما كانت مجاملة، لكنها جاءت خارج إطار التوقعات.

خُصّصت الأمسية التالية لعدد من القراءات في مجموعة قصصية عنوانها مثلث الأشياء، كَتَبَها صحافي مصري اسمه شريف، شريف كذا. نسيت اسمه الثاني. ما زلت لا أرصد جميع أعضاء الملتقى، هناك أشخاص يحضرون ويغيبون في ما بعد، لكنه رجل نحيل البنية وقامته طويلة، لاحظته حين نهض من كرسيّه في المقدمة بعد أن تحدث إليه الرجل الذي يدير الجلسة بصوت خفيض، وجلس في المنصّة بجانبه. غلاف المجموعة لونه أبيض يُظهر رسماً لساقَي فتاة مستلقية، تثنيهما إلى الأعلى في غنج. ربما هناك خلخال عند مفصل إحدى القدمين، لست متأكداً لكنه لافت جريء، وعلى عكس ذلك بدا المؤلف خجولاً

هادئاً، حليق الوجه إلا من شاربه الثخين المشذب، يرتدي بدلة أنيقة، لم يتفوّه بأيّ كلمة منذ ظهوره للجمهور في الواجهة، خصوصاً بعد توالي القراءات النقدية التي ما إن ينهي أحدهم تلاوة ورقته حتى يأتي آخر. ثم أفسح مدير الحوار مجال التعقيب للكاتب، لكنه رفض ذلك بأدب شديد وقال باقتضاب: "أعلنتُ هذا القرار سلفاً" وفهمتُ من جملة أخرى قالها بصوت هامس: "لهذا السبب تمنّعت عن الجلوس في المنصّة".

بعد انفضاض الأمسية، اختلط الحضور، ورأيت طرفة يحمل نسخة من المجموعة نفسها متوجهاً ناحيتي، وقبل أن يصل انزلقت من يده، فهرعت ألتقطها عن الأرض، لكنه انحنى قبلي، ثمّ مدّها لي: "أنصحك بقراءتها، مجموعة مميزة" حينها، توقدت بداخلي مشاعر خجل عارمة، لقد خصّني بالنسخة، وجاء بنفسه يسلّمها لي، إضافة إلى فعله الأخير، ثم تساءلَ بتعجب شابه العتب: "لماذا لم تتصل طوال الأسبوع؟". ابتسمتُ، وقلتُ بما يشبه التعذر، محاولاً إخفاء السبب الحقيقي؛ كنتُ محرجاً جداً بعد هذه الحفاوة والاهتمام، ثم قال: "أنا رجل متفرغ للكتابة" وراح يبحث عن قلم من حوله، وتابع "لا شيء يشغلني" ثم طلب رقم هاتفي. بدت لي التدابير التي أخذتُها في غاية السخف. إن الأمر أكثر بساطة ممّا ظننت، رأيت في عينيه الجدية، وكأنّهما تقولان بأنّ هناك حواراً خاصاً ينتظرنا في المكتب، كان هذا الحديث يدور في حضرة أحدهم، أو ربما كانوا مجموعة أشخاص، ومن الواضح أنه لا يرغب في إضافة المزيد، لكنه اختتم قوله: "رقم هاتفك صار معي، إن لم تتصل خلال الأسبوع، فسأفعل أنا".

٤

يقول طرفة، في مَعرض حديثه عن مغامراته، إنه تسلل ذات يوم إلى مكبس التمور، المبنى المهجور القريب من منزلهم، والذي سمع من والده أن ملكيته تعود إلى ضابط إنجليزي، ربما ذاته الذي اشترى منه دراجته البخارية. كان يسير إلى جوار طليبة التي أرسلتها صابرين لشراء الملح من السوق، يقضيان مسافة الطريق في الحديث عمّا رآه فوق البوم، طرفة يفضي إليها بكل شيء، واستغرق وقتها في وصفه القرية العائمة، كما سمّاها، منذهلاً من حجمها وعدد قاطنيها وانضباطهم في العمل، والقطة التي تجول من حولهم، ثم توقف فجأة وغافلها عند مرورهما بالمكبس وانسلّ بين قضبان بوابته الحديدية المهترئة، فوجد مركباً راكداً في جهته الخلفية المطلة على النهر بعدما جال في المكان، وعثر فيه على صندوق محكم القفل، أو بالأحرى يُفتح بوساطة مقبض أو ذراع سرّية مخفيّة، وقد فوجئ حين اكتشف أن بداخله ثلاث بندقيات وخمسة مسدّسات متنوعة، وعلبة خشبية صغيرة تحوي كتاباً مغطى بقماش أحمر.

حدث هذا قبل أن يتعلم القراءة. بصراحة أنا لا أصدق هذه الحكاية أبداً، خيال طرفة نشط متدفق، لا أستبعد أنه اختلق قصته هذه، وصدّقها إلى درجة أنه راح يرويها كل مرة.

لكن كتاب العلبة الخشبية هذا، كان مدعاة لتعلمه القراءة في سِنّه المبكرة. بعدما قدَّمه إلى والده الذي قال بنبرة مدموغة بالدهشة: "الكتاب المقدس!" وفهم طرفة على نحو ما، أن ما وجده كتاب سماوي يخص الديانة المسيحية، بدت طبعته نادرة مزيّنة بطلاء الذهب، مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، فآثر أسامة الاحتفاظ به لكن الصبيّ رفض ذلك وأصرّ على أن يبقيه بحوزته. وفي ضحى يوم جمعة، اقترب طرفة من أبيه الذي كان منكبّاً على كتاب ضخم ذي جلدة بنّية اللون، أثار فضوله: "ما اسم الكتاب؟" لم يجبه أسامة، وفضّل أن يبقى صامتاً حتى يفهم الصغير أنه لا يودّ لأحد مقاطعته، لكنه كرّر: "ما اسم

الكتاب؟“ وحتى يتخلص من إلحاحه: ”هذا مخصّص للكبار، لن تدرك معناه“. تطلع إليه طرفة وقد تملكه الإحباط، وظلّت عيناه تؤكدان عتبهما على والده الذي تجاهله، أدرك الآخر هذا، ونبس بصوت خافت: ”لا حول ولا قوة إلا بالله“ أطبق الكتاب وقرّبه من ابنه: ”كتاب الأغاني“ ثم نظر إليه بغية التأكد من تفاعله، فأضاف: ”لأبي الفرج الأصفهاني“ لكن الآخر لم يردّ واستمر في صمته، فعاد أسامة ليحفزه: ”لماذا سألت؟“. ارتجفت شفتا طرفة وقال بصوت هامس: ”أريد أن أقرأ“.

***

”حتى تبلغ سَنتك السادسة، تلتحق بالمدرسة“.

لكن طرفة لن ينتظر حتى ذلك الوقت، إضافة إلى استيائه من الأحكام التي تُطلق عليه إثر أسئلته الكثيرة؛ عجول، غريب، لجوج، عنيد. ولما طلب والده أن يمهله وقتاً ليفكر في أمر تعليمه القراءة، غاب الصغير دقائق وعاد بمعيّة ورقة وقلم: ”اكتبني“ كبت والده امتعاضه إزاء صيغة سؤاله الغريبة، لكنه يعرف طريقته في التعبير وطلب الأشياء. خط اسم طرفة بالطريقة الصحيحة المتصلة، ثم أعادها بشكل منفصل، طاء، راء، فاء، تاء. وشرح له عدد حروف اسمه وأصواتها. نظر إليه بعينين متطلعتين، قال: ”ماذا عن طليبة؟“ كتب اسمها بنفس الطريقة، متصلة ومنفصلة، وقال إن اسمها يتكوّن من خمسة حروف. نظر الطفل إلى الورقة، ثم وضع إصبعه على أحد الحروف: ”أنا وهي لدينا نفس الشيء“. ”هذا حرف الطاء، كلاكما يبدأ اسمه بهذا الحرف“.

تناول الورقة من والده، واستغرق في زاوية الغرفة، يتأمّلها ثم راح يعالجها بالقلم، غفل عنه أسامة الذي عاود قراءة كتابه، وبعد فترة رفع الصغير ورقته عالياً بفرح، وراح يقرّبها إلى أبيه الذي حاول أن يفكك ما فيها، كان قد كتب اسمه بحجم صفحة كاملة، وبدت هناك ثقوب واضحة ومتعددة إثر صعوبة تحكمه بأصابعه، سأله أسامة عن فحوى المكتوب، فأجاب: ”هذا طرفة“.

***

تمكن طرفة من رسم كل الأسماء.

أسماء أفراد عائلته: طليبة، صابرين، أسامة، سميرة. انشغل بنسخها عدة مرات، كان يزعجه عدم قدرته السيطرة على حركة القلم، يقارن نفسه بأبيه الذي أعطاه كرّاسة يمارس فيها نشاطه الجديد، كان يكتب الكلمات بحجم ضخم، وهذا جعله يستهلك كراسات كثيرة، راح والده يحفزه ليحسّن خطه، يصغّره، المواصلة والتكرار سيؤديان إلى نتائج فعّالة. أضاف طرفة إلى مخزونه كلمات أخرى زوّده بها أسامة: نهر، سرايا، بوم، كتاب، مكبس، دراجة. كان الصغير يعمل على مقاربة المفردات وأصواتها، يدرك أن الكاف في كتاب هي ذاتها في مكبس، الباء في كلمة بوم واسم أمه صابرين، الراء في نهر وسرايا.

ما زال طرفة – حتى اللحظة كما أظن – يحتفظ بكل الكراسات التي تحوي المحاولات الأولى، وقد أطلعني عليها في وقت لاحق، عندما أنكرت عليه تعلمه الكتابة في هذه السن.

وفي أحد الأيام، حين عودة أسامة من عمله على الدراجة البخارية في الدرب الترابي الضيق، لاحظ شيئاً معلقاً على باب المبنى المهجور القريب، توقف والتفت ينظر إليه بإمعان، من مكانه على مبعدة من البوابة، لا يمكنه قراءة شيء من قطعة الكارتون المعلقة عليها، لعلها جهة حكومية علمت بعبث أحدهم في أملاك المبنى، استدار واقترب من البوابة. حين واجه القطعة، ما استطاع تمالك نفسه من الضحك، هذا خط فوضوي يحاول كتابة: مكبس طرفة.

أدرك الأب جدّية رغبة ابنه، فحرص على أن يحقق له مبتغاه، بعد أيام استعان بأحد معلمي مدرسة الناحية، يخصّص ساعة لصغيره، يجيئه إلى الديوانية كي يعالج شغف المعرفة ويجيب عن أسئلته الكثيرة، وقد تحقق ذلك بعد يومين من اللحظة نفسها؛ لفت أسامة انتباه المعلم ألا يفاجأ بردود أفعال طرفة، وألا يتعجب من إدراكه المغاير، أعطى تعليماته لابنه كذلك وتركهما. بعد انتهاء الدرس، آثر معرفة مجريات اليوم الأول، أجابه المعلم: ”مقارنة بسنّه، واضح أنكم تبذلون جهداً كبيراً معه“. عند بدء الدرس سأله عن اسمه، لم يجبه

الصبيّ شفهياً، أخذ ورقة وكتب فيها اسمه، وعندما ودّ أن يعرف اسم المعلم أجابه الآخر على طريقته، كتب عبد الودود، دقق قليلاً في الكلمة ثم قرأ الاسم بشكل سليم، لكنه أضاف تعليقاً مهماً: "اسمك يحوي حروف دال كثيرة". ملاحظته مدهشة حقاً، حاول المعلم أن يستغلها في معرفة قدرته على الحساب: "كم دالاً فيها؟"، أشهر طرفة كفّه ثم فرد ثلاث أصابع: "هكذا".

***

من بين الأسلحة التي وجدها في صندوق مكبس التمور، كان هناك مسدس لافت على مقبضه زركشة مطليّة بطبقة مذهَّبة، تلمع كلّما حرّكه بشكل مائل. لم يعرف أيّ أحد أن طرفة أخذه مع العلبة الخشبيّة سوى طليبة التي كانت ترافقه، خافت وحذّرته ووبّخته، لكنه لم يستمع لها وأخذ يبادلها الدور وينبهها إلى إخفاء الأمر عن والده، وأيّ شخص آخر، لأن العقاب سيشملهما. لزمَت الصمت حتى طَرَق أحدهم باب البيت في وقت غياب أسامة، كانت بيده اللوحة التي خطّها الصغير: مكبس طرفة. طليبة هي مَن تحدثت إليه وقالت له إن ربّ العائلة غير موجود، وهذا اسم لطفل صغير يلهو. لكن الطارق طلب منها أن تأتي به ليطرح عليه بعض الأسئلة، تعللت الأخرى بوجوده مع والده، بدا على الرجل أنه يفقد صبره، قال بعصبية: "هناك من عبث وسرق ممتلكات مهمة!".

ما إن رحل الطارق، حتى هرعت طليبة إلى طرفة: "أرجوك تخلص من المسدس، هذا الرجل قد يلحق بك الضرر".

***

في حالة لامرئية، أسير بالقرب من أسامة وكأني كائن ظلّ، لا ينتبه إلى وجودي.

استفرد بالمعلم عند سور المنزل بعد مضيّ شهر من قدوم الأخير؛ أراد الاطمئنان على خط سير تعليم ابنه وفق جدوله الزمني، ومدى رضاه عن طرفة: "إن كان الأمر متعلقاً بتحصيله العلمي فأنا راضٍ جداً"، ثم صمت لحظة

كمن يضمر استطراداً، حرص الأب على أن يصغي إليهَ جيداً: "أما عن الجدول الزمني، فهو يسبقه بكثير" قال جملته الأخيرة بقصد الاعتراض: "العجلة أخت البطء". وأتبعها بزفرة متململة. في درس الرياضيات، كان يعلمه الأرقام، استوقفه الرقم عشرة، أشار إلى الصفر: "هذه نقطة!" وضّح له أن النقطة في الحساب هي صفر، إذا وضعناه يمين الرقم واحد يصبح عشرة، أخذ طرفة القلم وكتب واحد ثم وضع الصفر يسارها: "والآن؟". "الصفر يسار الرقم لا شيء". صحّح الصغير: "تصبح نقطة". ثم أفضى المعلم لأسامة: "حقيقة لست متأكداً من إجابتي إن كانت سليمة". أكد له الآخر: "سليمة" لكن المعلم يرى غير ذلك: "لا أظن، إن طرفة يشككني في صحة كلامي".

قال الأب كمن يسرّ لنفسه: "السؤال حق، لكن طرفة يتجاوز حدوده".

وربما حُكم أسامة على ابنه ليس عدلاً، عبد الودود ذاته، انزعج عندما عَلِم أن الأب وبّخ طفله إزاء أسئلته الكثيرة، التزم الصغير صمته، ما عاد يناكف درسهم، ربما شكل من أشكال الاحتجاج، أو انصياع حقيقي لأوامر والده، لكنه عندما واجه سؤال الأستاذ: "أنت ساكت؟" القصد، أنت لا تسأل، أجابه على نحو غاضب: "ماذا أقول؟" وبمعنى آخر: "ها أنا أذعن لما ترغبون!" أدرك المعلم أن أسئلته تجعل الدرس ذا معنى أكبر، وأنه الآخر كان يبادله التعلم، قال بصوت رقيق: "إلا هذه يا طرفة، لن يستقيم درسنا دون أسئلتك". ارتفعت عيناه الخضراوان اللتان تشيان بحبور كامن.

***

استيقظ أسامة ذات يوم في غير موعده.

كان جسده مفروداً على الفراش حين التقط أنفه رائحة الفجر؛ أراد فتح عينيه، لكنّه أحسّ بسائل ثخين يُثقل عليه رفع جفنيه، ظن أن النوم يغالبه، وبفعل مقاومة تراءت له سماء نائية تفسح مكاناً لضوء النهار، حينها خيّل له أن دمعتين ساخنتين سالتا على صدغيه، وعندما حاول النهوض، باغته ألم طوّق جبهته، استند إلى سور السطح. أدرك أن خطباً ما يحدث، لكنه بعد دقيقة استقام، وأصبح بمقدوره الخطو بتوازن، فأخذ يغسل وجهه بماء بارد، وحرص

أن يشطف مقلتيه جيداً، ربما عارض عابر، لكنه بوغت بصداع حاد تزامن مع شروق الشمس، تصحبه زغللة تربك رؤيته، على إثرها تصبح الأشياء في نظره مائلة أو مائعة. إنه مريض. قالت صابرين لطفليها: "أبوكما يشكو من عينيه".

عند مراجعته قسم العيون في مركز مدينة البصرة، أعاد الطبيب فحص عينيه بالمنظار أكثر من مرة بغية التأكد من تشخيص مرضه، قال: "من واجبي ألا أخفي عليك حقيقة ما تعانيه". سرت رجفة في جسد أسامة، حبس أنفاسه استعداداً لتلقي الخبر: "عيناك مصابتان بالماء الأزرق". لم يفهم الآخر: "أزرق!" الصداع الحاد ناتج عن ضغط الماء داخل العين، إضافة إلى عارض الزغللة الذي يؤكد ذلك، أراد أسامة أن يشكك في ثقة الطبيب: "الزغللة والصداع ليسا دائمين". لكن الآخر تيقن أكثر: "هو كذلك الماء الأزرق، يذهب ويجيء حتى يطبق على المصاب".

"ماذا عن العلاج؟" وفي هذا السؤال فجيعة أسامة: "حتى اللحظة... لا علاج للماء الأزرق" المعنى المبيّت من الجواب: ستظلّ الحال كما هي أو تنحو إلى الأسوأ. راود صاحبنا هاجس العمى، لم ينفِ الطبيب، هذه النتيجة المتوقعة لكن ليس قبل سنتين أو ربما ثلاث، ما يمكن عمله في الوقت الراهن، تأخير الحاصل النهائي قدر الإمكان.

انشغل أسامة في لحظة خلال حديث الآخر، كرجل يودع الدنيا التي يعرفها، خطرت سنواته الماضية، عائلته، أصدقاؤه، عمله، وكلّ ما خطّطه للمستقبل، الاستعداد والتأهيل لحياة أخرى مقبلة مختلفة عن كل ما أدركه من قبل. "تدريجاً ستضيق زاوية النظر، في وقت ما سترى الأشياء وكأنك تتطلع من فوهة أنبوب، هذه الأعراض تنذر بقرب العمى الكامل". أطلق أسامة ضحكة مفارقة حيال الوصف الأخير، انغلاق فوهة الأنبوب تعني إسدال الستارة. وضح الطبيب أن الأمر غير حتمي، يجب أن يتمسّك بالأمل، هناك أبحاث طبّية وتجارب سريرية في هذا الخصوص.

يومها، عاد إلى منزله محبطاً يائساً، طلب من زوجته أن يبقى وحيداً في غرفته، وبعد ساعات من العزلة خرج مثل شبح. وقف أمام الباب الحديدي

يدخن سيجارة وينظر في نقطة مبهمة ما بين الطريق والنهر، ثم راح يمشي في الخلاء مبتعداً عن القرية، محني الكتفين حتى اختفى من أفق النظر.

انسحب هذا على سلوكه، أصبح سريع الانفعال والغضب، ما جعل أسرته تتجنب التحدث إليه، يتعاملون معه بحذر وحرص، عدا طليبة، التي أنقذها أسامة من الفقر، وآواها من العراء وأظلّها تحت جناح أسرته بعد أن عجز والداها عن تولي شؤونها. بقيت بالقرب منه تلبّي كل حاجاته وتعرض عليه خدماتها وإن زجرها وصرفها من محله. عمّ حزن في البيت، بدت على صابرين مسحة أسى ظاهرة، وخوف في محيّا سميرة، أمّا طرفة فقد حارَ في أمر والده، يرى أن عينيه سليمتان، لا ضمادة عليهما، وما زال يرى الأشياء من حوله، لكنه رغم هذا شَعَر بأن عليه تحمّل مسؤولية مساعدته.

***

بعد مدة، استقرّت حال أسامة، لكنه لزم صمتاً طويلاً وأصبح نادراً ما يتحدث.

في ظهيرة أحد الأيام، جلس مسنداً ظهره إلى سور المنزل، نادى طرفة وأجلسه بجواره، فأحاط كفّ الصبيّ القريبة منه بقبضته، وسأله عن حال تعليمه: "هل تمكنتَ من القراءة؟" نظر إليه وهزّ رأسه بإيجاب، التفت إليه الآخر: "إلى أيّ مدى؟" تردّد قليلاً، أراد أن يمنح والده الإجابة التي يحتاج إليها، قال: "إلى مدى جيّد". أطلق كفّ ابنه، ثم فردها وراح يكتب عليها بإصبعه: "هذا أي حرف؟". فوجئ طرفة إثر حركته المباغتة، على الفور استعاد إحساس وقع إصبع والده، قال: "هذا خاء" ثم كتب حرفاً ثانياً: "هذا ألف" وأضاف آخر: "هذا لام". جيد، هزّ رأسه دلالة اطمئنان، ثم أخذ يمهّد لسؤاله القادم كي ينتبه الصغير، أوضح أنه سيكتب كلمة، ثم حرّك إصبعه ببطء شديد وراح طرفة يحثّ شفتيه يتهجّى حروفها، فأجاب بنبرة متشككة: "سميرة؟". صحيح، ردّ والده بفرح.

كان أول طيف سعادة يظهر على ملامحه منذ خبر الماء الأزرق. أخذ يكرر الأمر مع ألفاظ مختلفة، لم يخطئ ابنه في أيّ منها، حتى قال: "اسمع، اذهب إلى مكتبتي، وأحضر كتاباً اسمه ألف ليلة وليلة". غاب نحو خمس دقائق، أو

أكثر بقليل، ثم عاد ومعه مجلدان: "يوجد مثلهما كذلك، سأحضرهما الآن". أكنّ والده بهجة كبيرة في قلبه: "تعال، اجلس". العنوان على الغلاف مرسوم بخطّ ديواني، وهذا ما أعجب أسامة على وجه التحديد، قدرة طفله على فك الحروف، وتَمكّنه من تأويل أشكالها المتعددة دليل فطنة وذكاء.

فتح أسامة المجلد الأول، صفحة عشوائية في المنتصف، ثم أخذ يقلّب الورقات، قال: "خذ، اقرأ هنا". أشار إلى عنوان بين قوسين مطلع فقرة جديدة. وفي ليلة ٦٩. وشرع الآخر: "بَلَغني أيها الملك السعيد..." ومضى على مهل، ينجح في عبور الجُمل بسلاسة، ويتعثر في مفردة، إما لصعوبتها أو لسوء الطباعة، وأحياناً يرتبك إثر تلاصق الكلمات، وهكذا حتى أوقفه والده عند عبارة: "ثم إن الملك صار يتفقد أولاده كل يوم ويكرمهم..." هذا كتاب الأقاصيص العجيبة، واستهل يشرح مسألة مهمة: "حتى تدرك قراءة الأشياء عليك أن تعي معناها أولاً، هذا يجعلها سهلة وممتعة". وكي يوجز للطفل ولا يقحمه في موضوعات جانبية قال له إن الكتاب يحكي عن ملك يدعى شهريار، كلما تزوج بامرأة قتلها في اليوم التالي، لأنه لم يعد يثق بالنساء، حتى اقترن بشهرزاد التي قرّرت أن تقصّ عليه القصص كل ليلة إلى أن يدهمه النعاس، وهكذا فالمجلدات الأربعة كلها حكايات زوجة الملك التي تتفادى فيها الموت. وعند انقضاء سرده المتلاحق، تنبّه إلى أمر مهم: "لكنه لا يناسب عمرك الآن، ربما..." وراح ينظر إلى الأعلى قبل أن يأخذ أنفاسه: "إذا بلغت المرحلة الثانوية، يمكنك قراءته".

أعجب طرفة أيّما إعجاب بفكرة الكتاب، ورغم ملاحظة والده قرّر الاستيلاء عليه والبدء بمطالعته من الصفحة الأولى، ولن ينتظر عشرة أعوام تقريباً حتى يفعل ذلك، فيما كان أسامة يتطلع إلى تعليمه القراءة في أسرع ما يمكن، ولو خالف أوامره، حتى إذا ما فقد بصره تماماً، يكون له ولد يحلّ محلّ عينيه.

***

دهم طرفة شعور بالعراء بعد مرض والده.

ومنذ أخبرته طليبة بأمر الطارق الذي يبحث عن مفقودات المكبس وهو يتلفت بحذر حين يسير وحده في القرية، يتوجس هجوم أحدهم أو زيارته لبيتهم من جديد ومواجهة والده بفعلته. كل رجل غريب ينظر إليه ولو عن طريق المصادفة، ولو بغير قصد، ولو بنيّة الملاطفة، يتهيأ لهروب جديد، جسده يتحفّز، ترتفع درجة حرارته، ساقاه تستعدّان لجري دون توقف، عقله يفكر في اللجوء إلى مكان يضيّع فيه مُطارده. شَعر على نحو ما بأن المخاوف التي يصدرها إليه والده إثر شقاواته ليست إلا قوة يحتمي بها، درع تُبعد عنه الأفعال الحمقاء. ها قد بدأ أسامة ينسحب تدريجاً، يتركه يتحمّل تبعات ما يصنع، مصيره القادم وهو طفل لم يتحصل على إعداد كافٍ لمواجهة الحياة، لكنه سيفعل رغماً عنه، وسيبدأ بالتحوّل إلى رجل العائلة الثاني، الأخ الذي يلجأ إليه إخوته، لكن ليس قبل أن يتخلص من شخص آتٍ من بعيد على الدرب المحاذي لمنزلهم، رجل يشق أشجار السدر، يسارع خطواته، ربما سيهرب الآن لمرة أخيرة.

***

جَهد أسامة في المحافظة على نظره قدر الإمكان، تخلى عن دراجته البخارية، ظنَّ أن الاهتزازات السريعة المتلاحقة التي تسببها وعورة الدروب الترابية تحرّك الماء الأزرق وتزيد الوضع سوءاً، وتوَقفَ عن عادة السهر الأسبوعية مع الأصدقاء، رأى أن النوم مبكراً قد يرخي الأعصاب، وعهد بوقته لقراءة كتاب الأغاني، سبعة عشر مجلداً ينظر إليها كلما أقفل جلدة أحدها بغية إراحة عينيه، يتساءل عن المدة الزمنية الممكنة لإنهائها، إضافة إلى ذلك، تنتظره مجلدات كتاب الحيوان والبيان والتبيين، بهجة المجالس والكامل في اللغة والأدب، فيما تنصحه صابرين أو تعاتبه: "أنت تتعب عينيك". ما قبل الإصابة كانت القراءة مرهونة بالوقت اليسير المتاح، الآن أصبحت بما بقي من زمن الإبصار، وراح يعطي طرفة دروساً مضاعفة في القراءة والكتابة، إضافة إلى شيء من الحساب وأبجديات الإنجليزية.

في الخامسة، قُبِل طرفة في المدرسة الابتدائية بعد تزكية الأستاذ عبد الودود ودعم من والده المعروف في المدينة، لكنه لم يُسَجّل رسمياً؛ فقط يحضر الحصص الدراسية كمستمع لأنه أصغر سناً من أقرانه. لم أتمكن من رصده جيداً في الفصل، لأن الكرسي الذي خُصّص له مركون بشكل جانبي أسفل النافذة القريبة من الباب، كان محط أنظار الطلاب في الأيام الأولى، لم يعرف أحدهم لِمَ يجلس هذا الطفل النحيل الغريب في مكان مختلف، وحده، أجرد، دون كتاب أو قلم، مثل مراقب أو ضيف شرف، بينما يتطلع هو إلى جدران المكان المبنية من الطابوق الجيري، البُنيّة اللون المائلة إلى الصفرة، تحوّط شبابيكها إطاراتٌ خشبية دكناء، كذلك السبورة السوداء التي كَتب أعلاها معلم الفصل "بسم الله الرحمن الرحيم". ربما وحده طرفة من استطاع تهجئتها في سريرته.

طاولات التلاميذ مصنوعة من الخشب الثقيل، تأخذ شكلاً مستطيلاً أجوفَ، حجم الواحدة يتسع لاستخدام شخصين أو ثلاثة، ملحقة بلوح للجلوس من دون مسند ظهر. لم يكن لطرفة التمتع بأيّ مزية في الفصل، سوى الحضور والإصغاء، ورغم هذا بدا مبهوراً سعيداً لكنه مترهّب كذلك، يحدّق إلى سقف المكان العالي، يشعر بأنه أصغر مما يحدث، وهذا التحدي الذي يمنحه المتعة.

في الفسحة كان الأولاد يتناولون فطورهم في الساحة الترابية وسط المدرسة بين المرافق وحجرات الصفوف، على طاولات شبيهة بتلك التي يستخدمونها في الفصل، لكنها طويلة وغير مجوفة وملحقة بلوح جلوس من الجهتين، تحت ظلال أشجار السدر التي تحوّط المكان وإشراف المعلمين الذين يتحلقون حولهم. لم يشارك طرفة أحدهم الحديث أو اللعب، يكتفي بمراقبة كل ما يدور من حوله، لكنه بعد أيام قليلة، اخترق حاجز خيفته بعدما أدرك أن زملاءه لا يعرفون أكثر مما يعرف، ولاحظ أن العديد من الأسئلة التي يطرحها معلم الفصل لا أحد يجيب عنها، وذات مرة طلب من التلاميذ أن يتقدّم أحدهم إلى السبورة، ويرسْم حرف الباء بأشكاله الثلاثة، أول الكلمة ومنتصفها فآخرها، رفع طرفة يده في خجل، بعدما تأكد أنه لم يكن لدى أيّ منهم الجرأة للقيام بذلك، وعجب المعلم بادئ الأمر، وتضاعف ذلك عندما أنجز جوابه

بشكل مثالي. ومنذ ذاك الوقت راح يبادر بالمشاركة مثل أي طالب في المدرسة، الأمر الذي جعل المعلم يتنبّه إلى هذا الطفل وقدرته على القراءة!

***

ألغيت فكرة الطالب المستمع، وأكمل طرفة تعليمه في المرحلة الابتدائية رسمياً.

لكنه لم يتوقف عن قراءة ألف ليلة وليلة، القصص التي جعلته يكفّ عن حماقاته وشيطناته، وصار يجلس في رضى وصمت عند ضفاف النهر حين تقوم طليبة وسميرة بتنظيف أواني طعام البارحة، لا ينزل معهما ولا يغويه مجهول الناحية الأخرى وراء تزاحم أشجار الرمان والليمون. كان يقرأ الكتاب حين يغادر والده المنزل، إضافة إلى ذلك، فقد أعاد ترتيب المكتبة وفرّق أجزاء المجلدات على الرفوف، بقصد تشتيت الانتباه إلى نقصان أحدها. وفي الليل كان ضوء القمر يبقيه يقظاً، يواصل قراءة المجلد الذي يدسّه خلسة تحت لحافه حتى يطمئن إلى نوم الجميع، ورغم كل تدابيره وحيطته يدرك أسامة هذا حين يصل إلى السطح متأخراً كعادته بعد أن ينصت إلى أخبار الحرب في المذياع، التي بدأت تتقهقر وتنحصر عقب حادثة القنبلة النووية أو الذرية. يقال إن مئات أو آلاف الكيلومترات انسحقت من اليابان في غضون بضع دقائق، كأنها القيامة. لم يكن بمقدور المرء أن يتخيّل شيئاً كهذا، غاية في الرعب والفزع، ألمانيا وإيطاليا انهزمتا، كان أسامة يراقب مصير بريطانيا باهتمام طوال سنوات الحرب؛ مآلهم سينعكس على حال العراق بالضرورة، تغيّرت قوى العالم من جديد بعد خراب امتد إلى أصقاع الأرض، سيحين لفوهة النور في عينيه أن تنطفئ قبل أن تشهدا حرباً جديدة.

يتغافل عن طرفة حين يحاول الأخير التظاهر بالنوم، يسمع صوت تقليب الصفحات بعد عشر دقائق من السكون الذي يعقب يوماً مملوءاً من ضجيج الأفكار، يستسلم على فراشه، فيما يتابع الآخر مدفوعاً بشغفه نحو استجلاء عوالم أخرى، بعيداً عن بؤس الواقع، رغم جهله بعديد المفردات والأحداث التي تفوق سنّه وقدرته على استيعابها، ولا يجد فرصة مواتية لطرح مزيد

الأسئلة. تتماهى أجواء أحاديث شهرزاد وأصوات نقيق الضفادع وهدير مياه على مبعدة من مسمعه، يتراءى شخص في عمق الليل يجلس فوق نخلة مائلة يراقبه من خلال منظار حربيّ دون حركة أو هزّة، ثابت صامد ومتيقظ، يتحيّن لحظة ما حتى ينقضّ بشكل ما، يطير إليه أو يحط بجانبه من قفزة واحدة خارقة، لا يعيده إلى الواقع سوى والده الذي يوقظه قبل شروق الشمس كي يستعد للذهاب إلى المدرسة.

***

ألف ليلة وليلة.

لم تكن القراءة يسيرة منسابة كما يُخيّل لأحد، لكنها كانت ممتعة ومشوّقة، رافقته شهرزاد طوال مراحل الدراسة الابتدائية تقريباً، التي اجتازها بتفوّق لافت، في كل سنة ينجز مجلداً من القصص التي تصدّ شهريار عن قتل زوجته، يكرّر قراءة بعضها، أو يلخصها في كراسة جانبية بطريقة بدائية، يكتب رقم الليلة. نقطتان رأسيتان. ثم يدوّن بما لا يزيد على سطرين، القصة التي تحكي عن كذا وكذا، كي يتسنى له استحضارها بسهولة من ذاكرته. تدهشه الخيالات المطلقة التي لا تحدّها حدود الواقع. السحرة والمردة والملوك والحيوانات والنباتات العملاقة، الأجسام التي تطير والكائنات التي تتحوّل، والأزمان الخاطفة المختزلة والمتخمة بالأحداث، وسراب الواحات في قلب الصحاري، والنساء الجميلات اللاتي لا يتعدّين في مخيلته ابنة الجيران. المعلمون يثنون عليه كلما وجدوه في الفسحة جالساً على عتبة السلّم يتمّم إحدى القصص التي لم يستطع إقفالها الليلة الماضية، يختصر في تناول طعام إفطاره بغية استغلال دقائق الفرصة القصيرة.

أحد الأولاد أصابته العدوى بعدما أثار فضوله مشهد طرفة المعتاد، مثابرته في مواصلة القراءة، إصراره على حمل هذا المجلد الثقيل ذهاباً وجيئة كل يوم برفقة باقي الكتب المدرسية. صار الطالب يقاسمه الكتاب في كل فسحة، يقتعدان جانب أحد الممرات ويقرآن معاً، أحياناً يقتطع دقيقة ليفسّر له – كما يبدو – بعض الأحداث أو معنى إحدى الكلمات، يفعل ذلك مع طلبية عند عودته

إلى البيت، في الأوقات السانحة ما بين عملها ودراسته، يقرأ لها قليلاً ويعلّمها في آن واحد، الأحرف والأصوات، ويحفزها على محاولة اكتشاف اللغة والكلمات. خلال تلك السنوات، منذ تزكية الأستاذ عبد الودود حتى اقترب الصغير من استكمال المرحلة الابتدائية، كانت فوهة أنبوب أسامة قد بدأت بالانغلاق، وأخذ حيّز الضوء يضيق، وراحت تُسدل مشاهد الحياة المتوالية من عينيه، وقد بدأ يستبدلهما فعلياً بابنه طرفة.

***

عندما أتم المرحلة الابتدائية، كانت صابرين قد أنجبت صبيين آخرين، سمّوهما صالح ورباح. أصبح لطرفة وسميرة أخوان يكبر أحدهما الآخر بسنة وبضعة شهور، ويبدو أنها قد حبلت بالطفل الثالث. تتراءى لي خطواتها الثقيلة حين تخرج قبيل المغرب لتسير في الجوار بقصد تبديد خنقة الأعباء المنزلية، بصحبة طليبة التي تحمل الرضيع، آخر المواليد.

من الواضح أن عمى أسامة يفعل فعله، ورغم حداثة إعاقته فقد ألف العيش معها بسرعة قياسية. منذ أن لاحظ ضبابية زوايا الرؤى في عينيه، إذ يضطر لأن يحرّك رأسه كل مرة يرغب بمعاينة شيء في اتجاه جانبي، أخذ يستعين بعصا يضرب بها الأرض وأكتاف الأبواب والنوافذ، ويخلق صورة في رأسه لكل صوت ومحل، ويعدُّ خطواته نحو الأماكن التي تخصّ محيطه ويحفظها، وراح ينظر إلى الغُرَف والمرافق والممرات والطرق كما لم يرها من قبل، يتشرب المشاهد لتعيش في رأسه إلى الأبد؛ ونحا في تعامله مع الآخرين إلى سلوك سلطوي متفرّد في قراراته، لا يقبل النقاش أو الاعتراض، سوى طرفة، كان يلين معه بعض الشيء وينصت إليه أحياناً.

في زاوية سطح المنزل القريبة من الجيران، الجهة المطلة على أحراج النخيل المعاكسة لموقع النهر، شيّد طرفة حُجرة بمساعدة اثنين من العمّارة الذين يصادفهم يومياً في طريق عودته من المدرسة، بحجّة تنامي أفراد العائلة، وصخب بكاء وعويل الأطفال الذي يمنعه من التركيز في المذاكرة، كان يقرأ لوالده مطلع الجزء الثالث من الكامل في اللغة والأدب، حين توقف

عند نهاية فقرة ليقنعه بضرورة تخصيص غرفة له في مكان منفرد يوفر الهدوء اللازم والخصوصية. قال طرفة في جلستهما المعتادة مقابل السور: "حتى الديوانية ما عادت مناسبة لقضاء وقت قصير يتيح لنا قراءة بضع صفحات من كتاب". رفع أسامة رأسه وهزّه بقبول، ثم نهض وخطا بتوازن نحو النهر حتى وصل إلى ضفته، غمس عصاه في الماء، ثم قرفص وتوضّأ لصلاة المغرب.

***

ست سنوات يقضيها الطالب في المرحلة الابتدائية، أنجز خلالها طرفة قراءة ألف ليلة وليلة. كان يزحف فوق صفحاتها يمعن في مفرداتها الوعثة، لا يعتريه سأم التكرار، يمضي على مهل وعجب حتى تخلّقت في خياله صورٌ متحركة يراها تطير في عرض سمائه كلما استحضر مطلع قصّة، يحكي لأصدقائه عما يراه في مجلداته، حتى بدأ أولاد وبنات القرية يتحلقون حوله في باحة قريبة من بيتهم، ينصتون إليه وهو يقصّ عليهم الحكايات، متنقلاً من واحدة إلى أخرى، مستعيناً بملخصاته القصيرة التي عمل على إعدادها طوال فترته الماضية. كنتُ بين أولئك الصبية حينها، تعتريني دهشة متطلعة متفاعلة، لم أغب يوماً عن حكاية، وقد شكّلت تلك الفترة الملامح الأولى لصداقتنا.

الطفل غدا مراهقاً، اقترب من الحادية عشرة، وصار بحاجة لأن يستعرض بعض مهاراته الجذابة التي تلفت انتباه أقرانه، لا سيما الفتيات. أصبح طرفة مصدر متعة وترفيه لأبناء الحيّ. حماسته حين يؤدّي دور الحكّاء جعلته بعد وقت يؤدّي أدواراً تمثيلية بسيطة تتماشى وأحداث القصّة، شاركْتُه في بعضها، يلتفت نحوي غالباً إذا ما احتاج إلى مساعدة: "إسماعيل ممكن تأخذ دور التاجر؟". كل لمسة يضيفها تضفي بهجة على الحضور، وَلد قصير وضئيل لكنه يتمتع بكاريزما طاغية برّاقة، بدا مستمتعاً بتلك الأضواء التي أحاطت به، حتى عندما أدرك قرب نضوب الحكايات، مع توق الصبية إلى سماع الجديد، لجأ إلى إعادة صياغة بعضها حتى تبدو مغايرة عن سابقتها، كوسيلة تبقيه محافظاً على ظهوره في الحيّ، إلى أن وجد نفسه يؤلف حكايات تخصّه شبيهة بتلك التي تحكيها شهرزاد، لكنها لا تخلو من ابتكارات مستمدة من قريته وعائلته.

لم تسمح سن طرفة، الذي التحق بالمدرسة أصغر ممّا يجب، بالانتقال إلى المرحلة المتوسطة، رفض المدير قبوله بحجة تخوفه من انخراط طفل مع أولاد يكبرونه، لن يتحمّل مسؤولية تعرّضه لأذى نفسي أو جسدي بفعل فارق النموّ الطبيعي، فيما القوانين تلزم باستمرارية تعليم طالب ما لم يتحقق سبب طبّي وجيه يمنعه من ذلك، وباعتبار طرفة طفلاً – حسب التصنيف البيولوجي والتربوي – انتهى أمر جدال أسامة الذي غُفرت له شتائمه وصراخه في وجه المسؤولين بذريعة أنه رجل ضرير يسعى لحل أزمة شائكة ليس لها سابقة ولا نظن لها واقعة لاحقة، فقد سُمح له بشكل استثنائي أن يلتحق سَنة دراسية كاملة بمدرسة متوسّطة للبنات، وحده صبيّ بين أربعمئة طالبة. عام دراسي رغيد مليء بالصداقات، كل الأعين تنظر إليه في المدرسة وهو يبادلهنّ جميعاً بالمثل، جريء في تفاعله وردود أفعاله. قرر أن يستغلّ أيامه الأولى في كشف هذا المجتمع الأنثوي المثير، ينزوي في الفسحة إلى مكان يسمح له بكشف الساحة التي تلهو فيها الفتيات، يراقب تصرفاتهن، لعبهن، حركات وتغصّنات أجسادهن، كان ظاهر ما يبدو عليه، خجل ونُبل فتى لا يريد أن يكون فظاً في التطفل على خصوصيات البنات، لكن أشياء أخرى تعتمل في دواخله. اختير له أن يجلس في مقدمة الفصل ومن خلفه باقي الزميلات، لم يحبذ وضعه هذا، تخيّل أنه سيجلس في الخلف حيث الأماكن التي تمنحه فرصة التأمل والملاحظة، لكن راقه بعدئذٍ نعْت إحدى المعلمات لصدارته بكونه رجل الفصل، وقد تمادى هذا الشعور قليلاً وأصبح يحسّ مع مرور الوقت أنه رجل المدرسة كلها. استغل موقعه ذاك وجهد في التفوّق الدراسي كعادته، الأمر الذي أظهر ملامح فطنته سريعاً بين المعلمات، وراح يستغل هذا الحضور الجديد اللامع ليستعرض قدرته المعرفية في المبادرة بمساعدة الطالبات وحل الفروض الدراسية أو شرح بعض المسائل العلمية الصعبة. كان على مسؤولي وزارة المعارف أن يخشوا من هذا المراهق الأرعن الذي يتنكّر برداء الطفولة.

***

طبعاً، أنا أحسد طرفة على قبوله في مدرسة البنات، ولست وحدي من يشعر بذلك، لكن بالنسبة إليه، كما يبدو، رغم كل شقاوته واستغلاله لظرفه الجديد، ما زال يفضّل ابنة الجيران.

كانت أسطح المنازل متصلة بعضها ببعض، يفصل بينها سور قصير يستر مرمى نظر المرء عن الجوار، يؤمّن لهم الخصوصية وقت النوم، لكن باستطاعة أي فرد القفز إلى منطقة الآخر بمساعدة عتبة لا يتجاوز ارتفاعها نصف متر. غرفة طرفة تحوي نافذة تطلّ على جهة المنزل الخلفية، وباب ليس فيه قفل، لم يكن يخرج منها بعد عودته من المدرسة حتى قرب انتهاء النهار، يقضي جلّ وقته في القراءة وحلّ الفروض الدراسية، وقتها بدأ بالانسحاب التدريجي من دور الحكّاء، جعل ظهوره يقتصر على ثلاثة أيام في الأسبوع، شعر بأنه بحاجة إلى وقت مطالعة أكبر، امتلك حينها كتاب كليلة ودمنة، وكوخ العم توم، ورواية لنجيب محفوظ، ومجموعة دواوين شعرية.

فيما كانت ابنة الجيران تصعد إلى السطح وقت الظهيرة لنشر الغسيل أحياناً، وأخرى لرش الأرضية قبيل المساء بغرض تبريد المكان حتى وقت

النوم. كان طرفة يظهر كلما أوجس حضورها، يسمعها أحياناً تدندن أغنية، يلقي تحيته عليها، تردّها بعينيها وابتسامتها، أضافت مع الوقت سبباً آخر للذهاب إلى السطح، كانا يقضيان الوقت في تبادل الأحاديث التي تتخللها محاولات غزلية من طرفة، مران شعريّ في بداياته يفرغه في عاطفتها، لم يمض وقت طويل قبل أن تتجرأ الفتاة وتقفز إلى سطحهم كي ينزويا في الحجرة بعيداً عن أنظار محتملة، كان المراهق ما زال يحتفظ ببراءة طفولة وتردّد ينمّ عن إحساس بالخوف من التورّط بأيّ مشكلة، لكن ابنة الجيران أكثر جرأة منه، عانقته ذات مرة، وقد ارتاح لفعلها فراح يطيل تطويق ذراعيه حول خصرها، ومن ثم قبّل كتفها ويدها وربما خدها.

يقضي معها بعض الوقت في قراءة ما أعجبه من الكتب، ويستعرض بعض محاولاته الشعرية، فيشاورها في كلمة أو بيت شعر. فترة ما بعد الغداء، قيلولة الظهيرة، السكون يعمّ الأرجاء، لا أحد يفكر في عمل أو بذل جهد ما، إلّا أسامة الذي ما عاد يتفاعل مع الوقت سوى من خلال مواعيد الصلاة. اقتحم الغرفة ذات يوم دافعاً بابها بعصاه، الأمر الذي باغتهما ما جعل الفتاة تطلق شهقة خائفة متفاجئة. "من معك؟" لم يجب طرفة فقد أخذ يفكر في خِفّة وصول والده إلى الأعلى دون أن يصدر أي صوت، خطوة، همسة، تنهيدة. وما إن تقدم أسامة ملوحاً بعصاه، حتى دفع طرفة الفتاة كي تنسلّ من ورائه دون أن يشعر، فيما يرد سؤاله بصوت عال: "لا أحد... لا أحد" فضرب أسامة السرير بقوة وألحقها بأخرى على طاولة جانبية يستخدمها للمذاكرة: "إنها ابنة الجيران، أرجوك أخفِض صوتك". جَزِع الأب من ردّ ابنه، هوت عصاه على ساقه بقوة: "تفعل فعلك..." ثم ضربة أخرى أكثر قوة: "لم تراع حرمة جار..." وغرز العصا في ضلع تحت إبطه الأيسر: "فضحتنا يا ابن الكلب" وما لبث أن وجد طرفة فسحة في زاوية السرير، يهرب إليها من لسعات والده: "لم يحدث أي شيء صدقني". لكن الآخر استمر يسوط الهواء: "وما أدراني..." ثم راح طرفة يقسم له أنهما فقط تبادلا الحديث ولم يحدث أيّ محظور.

صادر أسامة كل كتب طرفة وزوّد باب غرفته بقفل، يوصده في الصباح ولا يُفتح إلا بعد صلاة المغرب: "عليك بدراستك وإلّا...".

٥

ديسمبر، عام ٢٠٠٩

صبيحة السبت، يوم عطلة.

انتبهتُ إلى وجود أوراق مخالفات مرورية صفراء على زجاج السيارات الأمامية المركونة عند الرصيف المحاذي لمحل زهور الجرّة، حيث تكون عمارة عبد اللطيف المنيّس في الجهة الخلفية منه. مكتب طرفة كما وصفه لي هنا، في نطاق منطقة الصالحية.

اضطررت للّجوء إلى مبنى المواقف الذي يحوي في طابقه الأرضي أسواق "بيت أولادنا". المسافة ليست بعيدة ولا بأس من المشي صباحاً تحت شمس أكتوبر. قال لي: "اسلك الممر الفاصل بين مكتب السفريات ومحل الزهور، في نهايته تجد شركة شحن". هناك ممر آخر جهة اليسار يفضي إلى الشارع المحاذي للمقبرة، في منتصفه مدخل البناية الذي تتصدره درجات سلالم قصيرة تقود في نهايتها إلى المصعد.

باب المصعد من الطراز القديم الذي يُفتح يدوياً مثل درفة خشبية لكنه من الحديد الصلد الثقيل، ومقصورته ضيقة بالكاد تتسع لشخصين. ضغطتُ زرّ الطابق الخامس، وأصخت إلى ضوضاء الماكينة العتيقة وهي ترفع المصعد إلى الأعلى ببطء حتى أعلنتْ وصولها، دفعتُ الباب ونظرتُ تلقائياً جهة اليمين، حسب الوصف، هناك باب خشبي أدكن، هذا مكتبه. جُملة من المشاعر تأخذني إلى زمن أعرفه جيداً لكنني ربما لم أعشه. طرقتُ الباب ثلاث أو أربع طرقات متلاحقة متسقة، حرصتُ على ألا تكون فظة. "تفضّل"، الصوت الآتي من الداخل يخصّ طرفة. أمسكتُ بالذراع في ابتسامة متأهبة، فرجة الباب فور تحررها تكشف عن مكان جلوسه وراء المكتب في الزاوية المقابلة. ضوء الشمس الآتي من الزجاج الممتد عرض الغرفة، يملأ المكان، كان طرفة

يرتدي نظارة طبية على غير عادته، يقوم بترتيب أو مراجعة بعض الأوراق، رفع رأسه فور دخولي، ونزع نظارته ثم همَّ بالوقوف: "حيّاك".

خطوت سريعاً، صافحته وقبّلت رأسه على الفور، بدا سعيداً بالزيارة، قال: "أخيراً" ثم أشار إلى كرسيّ يحاذي المكتب. قبل أن أجلس تكشفت لي إطلالة الموقع، مقبرة صغيرة بالإمكان رصد آخرها، تحوطها المباني الحديثة، في إحدى جهاتها يقع فندق جي دبليو ماريوت، بعض شواهد القبور محطمة إثر تعاقب السنوات، بعضها الآخر قد تلاشى تماماً أو دثرته الرمال. في تلك الأثناء كان قد وضع الأوراق التي يطالعها في مكان بجانبه، ثم رفع سماعة هاتفه الأرضي وتحدث إلى أحدهم، كنتُ أطوف بنظرة متأملة حول اللوحات التشكيلية العديدة التي تملأ الجدران، زمن اقتنائها كما يبدو لي متفاوت، لفتت انتباهي صورة الشيخ عبد الله السالم في جهة مقابلة للمكتب، أحواض نباتات كثيرة تملأ زوايا وفراغات الغرفة. قلتُ عندما أقفل مكالمته: "منظر لافت". وأشرت بيدي جهة النافذة، فأجاب بنبرة متناغمة مع طريقتي تحمل في فمه شبح ابتسامة: "صحيح، صحبة الموتى جميلة" أدركت سخريته المضمّنة، فابتسمت: "ألا يدعو هذا البراح إلى التأمل؟".

كنتُ أقصد على نحو مُدرَك أن للمباني التي تجاور المقبرة حالتها المفارقة، لكنه تجاهل الفكرة: "في السابق كان مكتبنا هناك" وأشار إلى الخلف. "الناحية المواجهة لمدخل سوق الصالحية، كانت إطلالته على البحر". تلمّست في ردّه شيئاً من الأسف. صيغة الجمع تدلُّ على طرفة وشركائه. وفهمتُ في ما بعد أن ملتقى الثلاثاء كان يقام هناك أيضاً – المكتب المطلّ على البحر – هكذا يُرفق البحر لزاماً لكل من يقصد الحديث عنه، وقد انتقلوا إلى مقرّهم هذا مرغمين بعدما اشترى أحدهم العمارة تلك وهدمها بِنيّة بناء برج فارع.

شعرتُ في لحظة بأنه يتفرّس ملامحي، قلتُ محاولاً تبديد بعض الصمت: "تأخُّر الزيارة يعود إلى مخافة التطفل". سكتُّ قليلاً بغية العثور على صيغة تعبيرية أفضل: "التجارب السابقة المتعلقة بالتقرّب من أدباء آخرين جَنَت نوعاً من الحذر المبالغ فيه". رَمَش ببطء ونَحَتْ ملامحه إلى شيء من الجدّ، شعرتُه ينصتُ باهتمام وتأمّل، ثم وضع كفّه على الطاولة وطرق عليها بخفة: "هذا

المكتب مخصّص لنشاط شركة الشحن، أنا مسؤول عن توقيع الأوراق والتفاهمات الرسمية، يومياً أصل في السابعة صباحاً وأغادره بعد الواحدة والنصف، الزمن الفعلي الذي أقضيه في العمل لا يتجاوز الساعة تقريباً، بقيّة الوقت أمارس فيه الكتابة والقراءة كما ترى". أشار إلى أكداس الكتب على طاولة مجاورة منه، أخذ شهقة قصيرة وتنحنح: "لا أبالغ لو قلت إن زيارتك هذه تُعد الأولى لكاتب شابّ يقصد تبادل الأحاديث العامة والمتعلقة بالكتابة، منذ انتقالنا إلى هنا..."، نظر باتجاه آخر: "تشرب شاياً أم قهوة؟".

التفتُّ إلى العاملة التي دخلت للتوّ تنظر إلينا بنصف ابتسامة. "قهوة وسط" طَلَبَ منها أن تُعدّ فنجاني قهوة، لكن قبل ذلك تأتينا بكأسي ماء. عند كلّ فسحة ممكنة أعاود النظر إلى تفاصيل المكان، أتطلع إلى السقف، أمعن في الجهة المقابلة، هناك مكتب آخر بجانبه آلة طباعة، يوجد ممرّ قصير يفضي إلى غرفة أخرى، انصرفَتْ إليه العاملة فأدركتُ أنه ينتهي بمطبخ صغير. أحدّق إلى عناوين الكتب القريبة من طرفة، ثم تنبّهت لسبب ما إلى أن هذا المكان لا يمتاز برائحة تخصّه، كل الأشياء يشبه بعضها بعضاً، في أحد الجوانب تستند مكتبة من الألومنيوم الأبيض، مثل لون الأرضية والحوائط وبورسلان الحمام وإطارات الشبابيك، ويبدو أن الرائحة كذلك محايدة كألوان ملابسه عادة.

"قرأتُ مجموعتك القصصية مرة أخرى، أنت تملك نفساً خاصاً، وتحتمل بعض القصص أن تكون بذرة مشروع روائي". أصغيت إليه بروح خَجلة، الإنسان بطبعه يحتاج إلى المديح، إن جاء من مَثَله الأعلى، في جلسة خاصّة، يحضرني الرد المناسب: "أشعر بأن هذا الكلام كبير جداً، لا أستحقه". رفع حاجبيه وحرّك رأسه قليلاً: "أبداً، أنا لا أجامل في هذه المسائل"، ثم أضاف بما يشبه النصيحة: "إذا ثابرت واستثمرت هذه الإمكانيات، فستصبح في ما بعد كاتباً كبيراً". كان يرفع كفّ يده المفرودة وأصابعها المتلاصقة بشكل أفقي، حين قال: "كاتباً كبيراً".

***

الحديث رفقة طرفة يشبه الكشف عن صندوق أسود يحوي أسراراً عديدة.

ولأنه حوار غيرُ متكافئ، بفعل فارق الخبرة والتجربة، يحدث أن أطرح التساؤل الذي يحيّرني ثم نبدأ بتبادل النقاش، تتشعّب إجاباته، يستحضر معلومات وحوادث شخصية، نتفرّع إلى مواضيع أخرى، تتخلل هذا معرفة آرائه حيال إبداع بعض الكتاب المعاصرين، هذا الجانب من الحديث يثير حماستي، أودّ وفق رغبة دفينة أن أختبر قدرتي على تقييم ما أقرؤه من كتابات، الرواية الفلانية تحظى باهتمام عظيم بين القراء، بينما لا أجد فيها كل ما يدعو إلى تلك الجماهيرية أو المقروئية الكبيرة، ما رأيك؟ لا يُخفي طرفة رأياً فنيّاً في نصّ ما دام الحوار في نطاق خاصّ، هذا ما شعرت به على الأقل في لقائنا الأول، لأنه اعترف لي ضمن جُملة الأحاديث بأنه لا يعلق على كتابة لم تعجبه على الملأ، لكنه يفعل ذلك بحماسة كبيرة إن كان العكس.

”تحب أقرأ لك شيئاً مما أكتب؟“ قالها فجأة في برهة صمت كأنه جهّز لهذه الفقرة مسبقاً، مفاجأة سعيدة بلا شك، قلت في بهجة: ”يا ليت، بكل سرور“. عاد بكرسيّه إلى الوراء، وفتح خزانة أسفل المكتب، أخرج منها رزمة أوراق مصفوفة سميكة، حملها بكلتا يديه، تبدو ثقيلة وربما كي يحافظ على تماسكها المزموم بوساطة مشبك كبير يتوسّط رأسها. وضعها على الطاولة ونفض عنها بكفّه بعض العوالق، ثم سعل مرتين: ”هذه محاولة لكتابة أشبه بالسيرة الخاصة“ حكَّ رأسه، ثم مسّد شعره: ”بدأتُ بهذا المشروع منذ سنوات، ثم تخليت عنه، الآن أعود إليه بعدما تعهّدت لنفسي بالتوقف عن الكتابة مدة سنة“. عنَّ لي سؤال حول سبب قراره الغريب، لكنني لم أشأ أن أقاطع رغبته في القراءة، نظر إلى الورق خمس ثوانٍ، ثم بدأ: ”عصر يوم شتوي. سماء مزحومة بغيوم رماديّة. الهواء يتشبّع رطوبة. لا أثر للإحساس بالبرد. طريق ترابي ضيّق يحاذي نهراً، قارب عرضه خمسة عشر متراً، يتطامى – حد الطفح – بمياه خضراء تكاد تلامس حافة الطريق. الجوار يفتقر لعلامات فارقة لولا وجود بيت من طابقين، شُيّد من طابوق أحمر“.

***

قبل أن أغادر يومها، استوقفه أمر، قال: "نقيم على هامش ملتقى الثلاثاء ورشة للقصة يقودها الدكتور عبد الغني عصفور". ألقى اسمه بصفته شخصية معروفة، ظللتُ منتبهاً لما سيقوله بعد ذلك، لكنه أعاد: "الدكتور عبد الغني القاصّ المصري" فابتسمت: "لا أعرفه". أمال رأسه: "لا بأس، المهم أنه يقوم بعمل ورشة فاعلة وجيدة رفقة القاصّة بلقيس" وددت أن أعلق: "هذه أعرفها" لكنه لم يتوقف هذه المرة: "أقترحُ عليك الانضمام إليهم، في نهاية الموسم يُقدّم الدكتور نتاج عمله مع أعضائه في الملتقى، يُخصص يوماً لإلقاء قصص ذات صلة بموضوع مشترك، سيكون من الجيد أن يكون ظهورك الأول من خلاله".

٦

من المعروف أن طرفة لا يتحدث مثل الصغار، ولا حتى مثل الكبار. اعتاد لسانه استخدام مفردات غير مألوفة، يعجب الناس من قدرة ولد في مثل عمره على التعبير بتلك الطلاقة والفصاحة، غالباً ما يسأله الرجال عن مسقط رأسه، أو انتمائه، أو مكان تعليمه، لا يمكن لصبي يعيش في هذا الحيّ يتلقى المُعطيات التي يتناولها أقرانه ذاتها ويخرج بهذه الألفاظ المغايرة. لم يكن طرفة يشعر بأنه في حاجة ليبدو مثل الآخرين حتى زارهم خاله ذات يوم ولاحظ طريقته في الحوار، فطلب منه تكرار إحدى جُمله بلهجة بدا عليها الغضب، وانتظره حتى ينتهي ليقول: "لمَ لا تكون عاديّاً؟". لم يفهم الولد مقصد خاله الذي أردف بصوت أكثر حدّة: "لمَ لا تتحدّث مثل الناس!؟".

يعيش طرفة غربة خاصة منذ حادثة والده حين دهم غرفته وصادر كتبه، شَعَرَ بأنه لم يرتكب خطأً يستحق عليه هذا العقاب، لا سيما أمام الفتاة التي تبادل وإياها الإعجاب، اعتراه الأسى والخزي، وفقدان شيء من خصوصيته. الأمر الآخر الذي أثار الذعر في نفسه اكتشافه أن والده صادر مسدسه المذهَّب ضمن الكتب وبقية الأغراض دون أن يعرف. كانت طليبة، التي وقفت أمام طرفة تشد يديها على خصرها، تنظر إليه محاوِلة أن تواري ابتسامتها، لكنها أفلتت ضحكة مفارقة: "كبرت يا شقيّ" ثم أخذت صندوقاً يحتفظُ فيه بأشيائه الخاصة وأحضرته إلى غرفة أسامة الذي أمرها بذلك، كان المسدس مخبأ في القاع. يستعيد طرفة هذا الموقف مراراً، ويحاول أن يفرغ أثره في أبيات من الشعر، لكنه ما استطاع إلا أن يكتب في صدر صفحة فارغة عبارة "انتهاك البراءة" تعليقاً على حُكم والده الظالم، هذا ما راوده آنذاك، لكنه ما زال يجالسه عصر كل يوم يقرأ له ما استطاع من الكُتب، يوم وآخر يحاول تجاوز أزمته الداخلية، خصوصاً مع بدء العطلة الصيفية بعدما اجتاز السنة الدراسية الاستثنائية في صفوف البنات. يزعم طرفة في حديث خاص بيننا أنه امتلك مفتاح الجرأة في التعامل مع الفتيات من جرّاء ذلك العام، أصبح من المعروف

آنذاك أن لطرفة صداقات عديدة مع زميلات امتدت إلى خارج إطار الدراسة، لذا لم يمانع أسامة أن يلبّي طلبه بشراء دراجة هوائية بغية استغلالها في اكتشاف الجوار والاستمتاع بالتجوال خارج القرية. كان والده يريد إبعاده وإشغاله عن لقاءات محتملة في الحيّ مع البنات، بينما هو يخطط في نفسه للذهاب إلى البصرة، مركز اللواء، حيث تأتي الأخبار والبضائع والمجلات والكتب، لم يكن ينوي الاعتراف لوالده بذلك، فرغم جهله بالمدة المتوقعة للوصول إلى قصده بوساطة دراجة هوائية الذي قد يستغرق أكثر من ثلاث ساعات، فإنه يعي أن مكانها بعيد جداً، وهذا بطبيعة الحال، سيؤدي بطلبه إلى الرفض.

***

بعد أسبوع من الاعتياد على قيادة الدراجة في الطرقات الوعرة، في الدروب المرتفعة والمنحدرة، على العشب الجاف الطويل الذي يثقل حركة العجلة، والمسارات المتعرجة المبللة الزلقة، اعتزم القيام بأول رحلة نحو البصرة.

علاقته بطليبة ما زالت وطيدة متينة، رغم انشغال الأخيرة بالاعتناء ومتابعة إخوته الصغار، لا تتوانى عن الاستجابة له متى ما طلب منها أيّ مساعدة. لاحظَ طرفة أن والده لا يسأل عنه كثيراً فترة الصباح، لكنه يفعل ذلك بإلحاح عند وجبة الغداء، لذا قرر أن يستيقظ مع أذان الفجر، يتظاهر بالذهاب إلى المسجد القريب، لكنه ينطلق مسرعاً قبل شروق الشمس باتجاه البصرة، أمّا طليبة فاقتصر دورها على اختلاق الأعذار إذا ما تأخر ظهراً، أو تُقرّ بأنها شاهدته على دراجته بالقرب من المنزل إن شك والده أنه يغيب بعيداً لساعات طويلة.

في الرحلة الأولى، وصل إلى قرية السبيليات وكان قد أمضى أكثر من ساعة ونصف، فكّر في أنّ بلوغ البصرة سيستنفد منه زمناً أكبر، تخوّف وعاد أدراجه إلى السيبة. يومها أدرك أن الوقت ما زال باكراً، كرّرها بعد يومين لكنه تجرأ وتجاوز نقطة وصوله الأخيرة، وبعد وقت مضاعف تقريباً أدرك مقصده، لكنه لم يقضِ في زيارته تلك أكثر من نصف الساعة، تَنزَّهَ سريعاً وقرّر أن يعاودها

بعد حين خشية أن تجرجره الدقائق فيتأخر، لكن لسوء حظه وقلقه أفلتت سلسلة الدراجة المعدنية التي تدور حول المسننات، وعلى إحدى المرتفعات، أخذ يدوس ذراع التدوير دون استجابة من العجلات حتى سقط وتدحرج وارتمت الدراجة من فوقه. تجاهل جروحه وهبّ يتفحصها ويحاول إصلاحها، وربما بسبب ارتباكه لم يتمكن من إعادة السلسلة إلى وضعها الصحيح لولا مساعدة أحد الذين شهدوا وقوعه في الجوار. شعر في لحظة بأن بلوغه منزلهم قبل أن يتنبّه والده إلى غيابه بات مستحيلاً، فأخذ طريقه يومها في حذر تام ومخافة أن تخذله دراجته من جديد.

اعتياده الطرقات بعد مدة، وتمرّسه على مسافة الرحلة جعلاه يجتازها في زمن أقل. أحس بأنّه حقق أحد أهدافه الكبيرة عندما وجد نفسه في البصرة. الوصول له لذته الخاصّة.

***

في أحد الأيام، سأله أسامة على الغداء عن سبب تأخر عودته إلى البيت: "أرسلتُ طليبة ثلاث مرات كي تأتي بك". ارتباك طرفة نجمت عنه إجابة مرتجلة عجولة: "اليوم، بلغت السبيليات على الدراجة" القصد تخفيف وطأة الخطأ، كان يتوقع منه توبيخاً أو ردة فعل غاضبة، قال: "السبيليات..." ثم سكت قليلاً كأنه يعالج المعلومة، أو يستعد لإجابة مناسبة: "زُر عمك عبد المحسن بما أنك أدركت الطريق". فوجئ الفتى من إجابة والده. أحياناً ولسبب غير معلوم لا يكون الخطأ خطأً، حسب مزاج الأب، أو ربّما كان لمبالغات طرفة وتوقعاته دور في ذلك. كان هذا الرد عبارة عن فرصة مواتية يَلزم استغلالها: "لا أعرف عنوانه بالضبط، لو تزوّدني به أطمئن عليه كلما أصبحتُ قريباً منه".

***

سيقول قائل من ذا الخارق الذي يقود دراجة أكثر من ثلاث ساعات متواصلة، ويعود بمثلها في نصف نهار؟ سأعذره شخصيّاً ما دام لا ينتمي إلى زمن طرفة، ولا إلى دروبه المُعمّرة ببساتين النخيل وصوت البلابل، ورائحة الورد وبيوت

الطين ومنازل من طوب المعامل المشيّدة بعناية بارعة، والأسوار المطلة على الأنهار وفروعها التي تتسلل إلى الحواري، والشوارع المزهوّة بالحياة، سأعذره ما لم يكن طرفة ذاته المدفوع بالاكتشاف والمعرفة، المفتون بالتعلم والتأمّل والتجربة.

فِكرة زيارة عمّه عبد المحسن لم تكن لطيفة على قلبه، لكنه تحمّس لها من أجل ما يأتي بعدها. عهده في عمّه يعود إلى زيارته لهم مرة أو اثنتين منذ زمن، إحداهما كانت حين تيقن أسامة من ابتلائه بالماء الأزرق، وقتها أبلغت صابرين أفراد العائلة بما حلّ بهم، سرعان ما جاء عبد المحسن يطمئن على أخيه الأصغر، يتذكر طرفة تلك الأيام. عمه رجل كبير في السن بمثابة جد، نحيل القامة وطويل يشبه عود البحارة الذين شهدهم على سطح البوم، شعره فضّي لامع، لكنه نشيط يستيقظ في الفجر قبل صياح الديَكة ويمارس رياضة المشي نحو طوافَيْن حول القرية، مرة في الصباح وأخرى في المساء، يرتدي بشتاً أسود فوق ثوبه لا يفارقه أبداً، بات عندهم بضعة أيام ثم مضى.

صادَفَتْ تلك الأيام حضور المعلم عبد الودود من أجل الدروس المنزلية، وتعرّف إلى عمّه بصفته وكيل أعمال أحد السادة التجار، يدير شؤونه المالية ويبرم صفقاته مع الآخرين، ومعروف عنه الإنصاف والحق. لاحظ طرفة أنه رجل شديد التديّن، وفي فجر أول يوم من زيارتهم شهد استيقاظه المبكر، ولحقه مدفوعاً بفضوله المعتاد، وعلم أنها عادته اليومية من أجل الصلاة، وحينما سمح له عمّه بمرافقته في طواف الصباح، ألحّ عليه أن يعلمه الصلاة، وقد فعل ذلك وحثّ أخاه أسامة على أن يتابعه حتى يبلغ السابعة من عمره.

ورغم كل ذلك، لم يكن طرفة معجباً به، قال عنه في معرض مديح معلمه لعمّه: "لكنه يابس". لم يفهم معلمه مقصد الطفل آنذاك، تعبيره البدائي أربك إفادة معنى كلمة يابس في عرض الجملة، لكنه عاد مفسّراً في جملة أخرى: "أبي أفضل منه بكثير". ولم يفصح عن الموقف الذي جعله يكوّن فكرته نفسها. حينما مرّا بمكبس التمور فجر ذلك اليوم، أراد طرفة أن يُطلع عبد المحسن على ما وجده في الداخل، لكن الأخير رفض: "علينا مراعاة حرمة أملاك الغير" وعندما وضّح الصغير أن المكبس يعود إلى ضابط إنجليزي

متوفّى، كان ردّ الآخر: "في هذه الحالة، لا ندخله أبداً". شعر بأنه يتفوّه بمسلّمات غير قابلة للجدال، وأنه يضع قواعد لنفسه تحكم سلوكه، نقيض والده أسامة، إذ أُحبط من ردوده بسبب رغبته المتوقدة في أن يحكي له عن مغامراته هناك، مع إغفاله قصة المسدس الذهبي. ورغم أن هذا الحوار جرى عندما بدأ طبع أسامة يميل إلى الحِدّة، ما يزال طرفة يراه أكثر مرونةً من عمه الذي صاغ عنه انطباعاً تاماً في أيام قليلة.

***

كان هذا قبل سبع سنوات تقريباً أو أكثر. الآن طرفة أكثر تفهماً لتنوّع الآخرين واختلافهم، رغم عدم تقبّله الالتزام بفعل شيء ابتغاء الوصول إلى آخر. منذ أن خسر مكتبته في حادثة "انتهاك البراءة"، أصبح ينحو إلى العزلة والابتعاد، منساقاً بعفوية نحو قراءة الطرقات والحيوانات والأشجار والمباني، خياله لا ينفك عن رسم صور متوالية لما قد يجده وراء تزاحم أشجار نخيل. في سعيه المتكرّر من السيبة حتى البصرة، مسح كلَّ المشاهد التي انطبعت في ذهنه بفعل روايات الآخرين، رأى المدينة والشوارع المعبّدة وسيارات من أحدث الموديلات، والجسور، والبواخر، والأسواق، والمطاعم، ودور السينما. لا بدّ لطرفة من زيارة أو أكثر لمدينة البصرة خلال السنوات الماضية مع والده قبل أن يعترضه العمى، لكنها كانت متفاوتة يفصل بينها شهور وتكون لأغراض محدّدة، وفي ذات الوقت لم يكن بذات الوعي والاهتمام في اكتشاف الحياة ما دام يحيا غيرها وربما أجمل منها في الكتب. أظن أن مصادرة كتبه جعلته يدرك ضرورة تأمّل ما حوله، وخلقت قناعات وقرارات جديدة في نفسه، لعلّ أهمها كان الانفصال عن تبعيته لوالده.

عندما زار عمّه عبد المحسن لم يقل إنه مدفوع بأمر من أسامة، ولم يلمّح إلى الحوار الذي دار بينهما ظُهر ذاك اليوم، فقط نقل تعذر مرافقة والده لأنه يقطع الطريق باستخدام الدراجة الهوائية. كان عمّه فرحاً بزيارته وتعامل مع طرفة كولد ناضج، قدّره وضيّفه وألزمه بالبقاء حتى يتناول وجبة الغداء، وجال معه حول المنزل وأطلعه على قصر عائلة التاجر الفاره ذي المشربيات

والنوافذ المقوّسة وحديقته الكبيرة الممتدة، وبعض معالم السبيليات حتى بلغا أحد الأحياء وراح عمّه يعاين منزلاً في الجوار: "كان المفترض أن يكون هذا بيتكم". تنبّه طرفة حينها لما سيردفه عمّه: "أنتم أساساً من سكان السبيليات، لكن والدك آثر السكن في السيبة ابتغاء الاقتراب من موقع عمله".

***

دأب على زيارته مرة كل أسبوع أو اثنين، وراح ينقل إلى والده بعضاً ممّا يجري في بيت عمّه حتى يُثبت له حجج الغياب، وفي إحدى المرّات سأله عبد المحسن عن طليبة: "أما زالت تعيش بينكم؟" سؤاله أثار شيئاً في نفس طرفة الذي ترقب ردة فعله حين أجابه بصوت مرتاب: "نعم" وعيناه ترصدان إيماءاته، فيما هزّ عمّه رأسه، وضرب بخفّة على ظهر الفتى: "يبدو أن أسامة يُغفل رشدَك".

بعد مدة أَلِف البصرة وقضى في مكتباتها ساعات يتصفح الكتب والمجلات، ولكنه ما استطاع أن يشتري سوى بعض الصحف اليومية. كذلك، رغم ارتياده كل مرافق المدينة تقريباً، لم يتمكن من دخول دور السينما بسبب عوزه إلى المال، وأيقن آنذاك أن رغبة مشاهدة الأفلام أكثر ما أثار اهتمامه على الإطلاق، عوضاً عن اقتناء الكتب والدوريات.

أحد الجيران المجاورين لبيت أسامة يدعى عبد الجبار، يتخذ بقالة من غرفة في بيته لها نافذة مطلة على ممر حيوي في القرية، كان يغلقها فترة راحته ظهراً وكذلك عندما يبتغي التزوّد بالبضائع من سوق العشار. فاهتدى طرفة إلى عرض خدماته عليه بمقابل مادّي بسيط، فإما يذهب للتبضع أو يتسلم مهام البيع حين ينصرف الآخر. لم يبذل جهداً كبيراً ليقنع عبد الجبار بالخسارة التي يتكبدها فترة غيابه الطويلة، ومبارحة العديد من الزبائن إلى بقالة أخرى حين يجدون نافذته مقفلة. عبد الجبار يعرف أن طرفة ولد مناسب لهذه المهمة، الفتى المفوّه الحكّاء يجيد الحساب ولن يبذل جهداً في تعليمه طريقة تدوين المبالغ المتراكمة على الزبائن، أولئك الذين يعملون في المدينة

ويعودون نهاية الأسبوع ليسدّدوا ثمن ما اشترته عائلاتهم، أو لمن يبتاع بالآجل حتى نهاية الشهر.

يكتسب طرفة ثقة الآخرين من مكانة والده، كذلك عوضاً عن كونه شخصية هادئة مسالمة كما هو معروف عند الجميع. جرت هذه المفاوضات بعيداً عن علم أسامة، واختار عبد الجبار أن يبقي الفتى في البقالة ريثما يقوم هو بالتبضّع؛ لأن سوق العشار في البصرة وهذا المشوار بحاجة إلى سيارة وإلا فسيستغرق وقتاً طويلاً ذهاباً وجيئة.

بعد أسبوعين من العمل المتواصل، استحسن كلاهما الأمر، وبدت الاستفادة متبادلة إذ يقبض طرفة كل يوم جُمعة مكافأة جيدة عن جهده نسبةً إلى مبيعاته فترة غياب الجار. وقبل بدء الأسبوع الثالث أخبرت صابرين طرفة أنها ستزور خاله في بغداد، وعليه مرافقتها لأنهم سيقيمون عنده مدة أسبوع.

***

أظنها رحلة طرفة الأولى إلى بغداد، وبرفقة أمه التي تحمل أخاه الأصغر رباح. كان القطار وسيلتهم الوحيدة لبلوغ بيت الخال، إضافة إلى كونه الأكثر أماناً وسرعة، خصوصاً على طرقات السفر الطويلة التي لم تكن مهيّأة دائماً للسيارات.

وقف يتأمل المقطورات المتوالية الملوّنة بالرمادي والأخضر أثناء انتظارهم خلف طابور من المسافرين بغية بلوغ إحدى بواباتها، وراح يراقب بعض الناس الذين أخذوا أماكنهم في القطار وبدؤوا يطلّون من نوافذه يودعون أقرباءهم وأصدقاءهم قبل مغادرة البصرة. جلس طرفة بجوار النافذة كذلك، أخرج رأسه مثل الآخرين فشعر بنفحة باردة منذرة بانتهاء فصل الصيف، وأدرك حينها أنهم شرعوا بالسير في حركة متثاقلة، وصوت أزيز السكة الحديدية آخذ في الحدّة، لكنه بدأ يضعف مع التسارع التدريجي للقطار حتى اختفى كليّاً.

المناظر المتوالية والعديدة لمدن الناصرية والسماوة والحلة، وأخرى يقطعها خط سير القطار المؤدي إلى بغداد، كانت تأسر طرفة، يودّ لو يترجّل عند كل توقف متعلق بتحميل وإنزال الركاب، ويكتشف ما وراء المشاهد التي أثارت خياله الخصب، الجسور الخرسانية والبساتين والأنهر وقبب المساجد الكبيرة ومناراتها التي تتراءى من بعيد، عمارات متفاوتة العلوّ، وأبنية عتيقة تزيّنها زخارف خلابة. كانت الرحلة طويلة جداً استغرقت نحو عشر ساعات وربما أكثر، لم يكن زمناً لحظيّاً يشقه مضيّ القطار نحو الهدف، بل كتاب في التاريخ يحكي عن حضارة متينة أزلية، ويشهد مستقبلاً باهراً آخذاً في التنامي. هذا ما اعترى طرفة وهو يتنقل بين صفحات المدن العديدة، دون قدرة على خوض التفاصيل، لكنه عهد إلى نفسه بأن يكتشف كل هذا في وقت قريب.

***

خاله ضابط في الجيش برتبة رفيعة كما فهم من والدته التي أخبرته كذلك أن زوجته شاعرة معروفة جداً، وكان من الواضح أن حالتهم المادية ميسورة، بدءاً من حجم بيتهم الذي بدت مساحته أكبر من ضعفي بيت أسامة، ويحوي بستاناً مليئاً بأشجار النخيل، حتى ملابسهم وأثاثهم وطعامهم، إضافة إلى أنهم يملكون سيارتين.

الشاعرة تملك مكتبة فارهة، وكان من الواضح أنها أول ما أثار انتباه طرفة. حائط بعرض ستة أمتار تقريباً معبّأ بوحدات رفوف من الأسفل حتى علوّ ثلاثة أمتار، مليئة بالكتب، ليس هناك شاغر لإضافة المزيد. طرفة المحاط بأبناء خاله يحاول الاقتراب من الكتب التي تتراوح ألوان أغلفتها الجلدية بين الأحمر والأخضر والأسود، يبحث عن فرصة للاطلاع على العناوين المكتوبة باللون الذهبي، لا يستطيع قراءتها من مكانه. بعد يومين استشعرت زوجة خاله مدى تعلقه بذلك الركن من البيت، رغم أنه لم يلمس أي كتاب بعد، لذا سمحَت له بأخذ وقراءة ما يرغب، ومنذ ذاك ودَّ لو يقضي باقي الأيام كاملة بين الكتب، لم يرغب في التزحزح من مكانه لولا البرنامج الذي أعدّه الخال برفقة باقي الأولاد، فقد رأى العراق كما لم يره من قبل، أسواقاً وساحات وحدائق ومبانيَ كثيرة. أعجبه تمثال عبد المحسن السعدون الذي يتوسط شارعاً يوصلهم إلى ساحة الخلاني. لم يكن على إحاطة كاملة بالشخصيات العراقية البارزة آنذاك، لكن منحوتاتها الفنية لفتت انتباهه، كما نصب ساحة الملك فيصل الذي مرّوا من حوله مراراً، وتناولوا غداءهم ذات مرة في أحد مطاعم شارع أبو نواس المحاذي لنهر دجلة، وأخذهم خاله ليشاهدوا مبنى البرلمان من وراء السياج الذي يحوّط حديقته الواسعة، وكنيسة الأرمن المبهجة، والمساجد العتيقة في شارع الرشيد الذي لاحظ فيه أعمدة خرسانية متوالية لمجموعة من المباني الشهيرة، ترسخت صورتها في ذاكرته، خصوصاً التاج الذي يعتلي رأس كل عمود يحمل مجموعة من الشرفات المتتابعة. وربما يعود اهتمام طرفة بهذا الشارع لأنه يضمّ سينما الزوراء.

رأى في ذلك اليوم، رجلاً يقف بمحاذاة السينما ويحمل لافتة فيلم "شم النسيم" ويدعو المارة لمشاهدة العرض. أسبل الفتى بها وقرأ أسماء بعض الفنانين المكتوبة أسفل صورهم، والتي لم تكن واضحة كفاية: شكوكو، سميرة أحمد، قسمت شيرين، رشدي أباظة. لكن خاله اختار لهم دخول فيلم الأزمنة الحديثة لتشارلي تشابلن.

***

بينما يجلس تشارلي تشابلن قسراً، من أجل تجربة كرسي خاص بآلة قادمة من المستقبل، تُلقمه الطعام أوتوماتيكياً دون أن يحرّك ذراعيه، كانت القاعة تضج بالضحك كلّما أرغمته على فتح فمه أو سكبت الحساء في وجهه.

لم يفتح طرفة فمه قطّ، منذ انفرجت الستارة حتى أسدلت، ابتلعته شاشة العرض بكل ما فيها من صور وموسيقى ومرافق وحركات فنيّة للممثلين. كان الفيلم يطرح مشاهد آتية من زمن مُقبل محْتَمل، أبواباً فولاذية وتروساً عملاقة وأذرع تشغيل وإغلاق، ومسارات متحركة لنقل المنتجات الصناعية. بدأت الفرضيات التي تلقاها من تلك الصور المتوالية تلعب في عقله. استرجع بعضاً من ذكريات القصّ وحالات تخَلّقِها، عندما قام بتأليفها عقب نفاد أحاديث شهرزاد. يومها لم ينم جيّداً، استيقظ أكثر من مرة في الليل حتى الفجر، يواصل التفكير في ما رآه من سحر استحوذ عليه. لقد وقع في حب السينما بفضل فيلم أُنتج في الثلاثينيات. لم يكن يعرف طرفة ذلك، لكنه، في كل الأحوال، أراد أن يكرر التجربة، ويشاهد كل الأفلام الممكنة. في اليوم التالي كان موعد عودتهم إلى البصرة. أهدت له زوجة خاله دواوينها الشعرية، ومجموعة كتب، كان بينها رواية لنجيب محفوظ وتشارلز ديكنز، وروائع شكسبير، وديوان لأبي القاسم الشابي.

***

أتذكر، بعد عودة طرفة يومذاك من بغداد، شعرتُ بأنه تحوّل إلى شخص آخر، كان مبتهجاً على نحو حالم، وبدا محمّلاً بالأحاديث الطويلة التي لم تسنح له

الفرصة ساعتها لأن يدلي بها. سلّمني بعجالة مجموعة الكتب التي تحصّل عليها من الشاعرة، زوجة خاله، وطلب إخفاءها في مكان آمن. بالنسبة إليّ، ما كنتُ أملك مكاناً بعينه جيّداً للإخفاء، لكنني قبل أن أبلغ نهاية الطريق التي تمر أمام بيت أسامة، وجدت ابن جيرانهم، الأخ الأصغر لفتاة السطح نفسها، كنّا نكبره بسنتين تقريباً، ولأنني كنتُ في حيرة من أمري، لم أفكر مليّاً، فقط وضعت الكتب بين يديه وأخبرته أنها مِلك طرفة، ومن الضروري حفظها في بيتهم من أجل كذا وكذا. استجاب فوراً دون أن أتكبّد عناء إقناعه، بدا أنه رغب في اقتنائها أو الاطلاع عليها.

عاد طرفة إلى العمل في بقالة عبد الجبار، ومع انتصاف شهر سبتمبر كان العام الدراسي قد بدأ، ومنذ ذاك اقتصرت رحلاته إلى البصرة على عطلة نهاية الأسبوع. لكنه استمر في قضاء جُلّ وقته خارج المنزل، خصوصاً بعدما أنجبت والدته فتاة سمّوها بسيمة إضافة إلى صالح ورباح اللذين كبرا قليلاً وأصبحا شاغلَي أسامة الذي توقف بعض الشيء عن تتبّع ابنه الأكبر.

ولأكثر من سبب، توطدت علاقة طرفة بابن الجيران الذي أصابته عدوى القراءة إثر احتفاظه بكل ما يقتنيه الأول من كتب ومجلات، وكذلك أخته فتاة السطح ذاتها. لم يكن يعلم أسامة أن ابنه أصبح يزورهم يومياً بانتظام، ولم يكن طرفة يلتقي بالفتاة في الغالب، أحياناً يسمع صوتها تنادي أخاها الذي يوبّخها غالباً بصوت هسيس حين يكون في ديوانيتهم. كانت القراءة حجّة زيارته لابن الجيران، والصداقة والسَمَر والجيرة عند أهله، وأحياناً تبادُل المعرفة والدراسة رغم أنهما ليسا في المرحلة ذاتها، كنتُ ألتقيهما في ساحة ترابية وراء أشجار السدر الكثيفة التي تقبع آخر القرية، لكن وقت طرفة قد ضاق بعض الشيء، بين عمل البقالة والمدرسة والقراءة. عَلِم أسامة بعد مدة، وبطريقة ما، أن طرفة يتدبّر أموره الشخصية من خلال عمله عند عبد الجبار، وبقدر ما تسلل شيء من الفرح في نفسه، تغلب الغضب عليه لأن ابنه لم يعد يصارحه أو يشاركه حياته. لن أخبركم عن الجدال الكبير الذي أفضى إلى مشاجرة تكررت كثيراً في السنة الأخيرة ولأسباب متعددة.

ورغم هذا، لم يتخذ أسامة أي إجراء إثر استمرار عمل ابنه في البقالة، واستغل طرفة هذه الحال في الغياب لفترات طويلة خارج المنزل دون أن يضطر ليسوّغ ذلك، خصوصاً بعدما سمع والده ذات مرة بالمصادفة، يوجه كلامه إلى صابرين: "ربما سأتخذ عقوبة جسيمة في حقه حتى لا يسلك إخوته مسلكه". وقالت أمه شيئاً بصيغة معترضة، لم يتمكن من رصدها، لكن الآخر ردّ بعصبية: "سأطرده". لجأ طرفة نهاية ذلك الأسبوع إلى المبيت في البصرة ليلة واحدة، لأن عرض أحد الأفلام السينمائية قد فاته، ولم يجد غضاضة في البقاء هناك كي يلتحق به في اليوم التالي.

***

ما زال يحاول كتابة الشعر، ويدأب على قراءته وتدبّر الأبيات ويلاحظ جوانبها الفنيّة، ويعرض بعض كتاباته على معلمي اللغة العربية، الذين اهتموا به، وصحّحوا له هَنات في وزن منظومته وقافيتها، حتى وجد فرصته ليلقي قصيدة عروبية في إحدى فقرات إذاعة طابور الصباح المدرسي، إثر تداعيات الثورة المصرية. لم تكن أفكار طرفة قد تشكّلت بعد، لكنه يؤخذ بالحماسة والاندفاع نحو القضايا العامة. من جهة أخرى تملكته رغبة جامحة في اقتناء كاميرا. ربما في ذلك الوقت لم ير بعد أيّاً منها، لا في الطبيعة ولا الصور، لكنه تعلّق بتلك الآلة التي تملك قدرة تجسيد الحكايات، من الورق، من العيون، من الخيال، إلى الواقع الذي يجعل الجماهير كلها ترى رؤية واحدة، وتتدفق مشاعرها سويّة في لحظة عاطفية محتدمة، وتناقش قضية مشتركة ذات رأي منحاز.

ينقل طرفة لنا كلّ الأفلام التي شاهدها، وبدا أنه عاد يمارس هوايته المحببة، ليكون راوي السينما المؤتمن: "عندما صرخ الممثل في اللقطة الختامية، كان المشهد يتباعد من وراء ظهره". يصف أسلوب المخرج، وما يُظهره الكادر كل مرة، وكأنه يمارس كل مهامّ فريق عمل الفيلم. اكتشفتُ في ما بعد أنه حرّف بعض القصص، وأعطى أدواراً لبعض الشخصيات أكثر مما ظهرت عليه في الشاشة، وأضاف أخرى لم تظهر قطّ. لقد اعتدته، ولم تعد تشكل تلك الأمور

وجهة نظر جديدة حيال شخصيته. كان طرفة قد قرر آنذاك أن يكون مخرجاً سينمائياً، وشاعراً كذلك.

كانت قريحته الشعرية غزيرة، يأتينا بقصيدة كل يوم تقريباً، وبدا ذلك في لحظتها أمراً عادياً، لكنني بعدما أعدت النظر وجدتها ظاهرة خارقة. على حد قوله، إن أغلب الحالات الشعرية تظهر أثناء الحصص الدراسية، وفي دقائق الخدر الأولية التي تسبق النوم، خصوصاً في لحظات الدفء الشتوية، وهفهاف نسمات الهواء الصيفية. وربما ذلك اختلاق آخر من أفكار طرفة. أحفظُ عنه مطلع قصيدة كانت تقول: "وحول الموقد الناري تجْمَعُنا حكاياهُ. غرائب عن بلاد الهند. عن نيبار. عن بحر إذا ما ثار. ألقى الرعب في القبطان والبحّار" كان يردّدها بين حين وآخر، كلما ران صمت جلستنا، وانتهت الأحاديث، كلما خضنا البساتين أو توارينا عن القرية، يهمهم بها، يقول إنها مشروع قصيدة تحكي سيرة لم تكتمل بعد، وبحاجة إلى زمن حتى تُبنى بشكل متماسك صحيح. يحاول من خلال ترديدها تحضير الأبيات الموالية، واعترَف لي ذات مرة بشكل غير مباشر بأنه أحياناً يكرّس يوماً، أسبوعاً أو أكثر، في تكرار أشياء كي تتمكن من دخول أحلامه، هناك يجد الحلول بطريقة سلسة وسهلة.

هذه غرائبيات طرفة المأثورة، لا يصرّح بها غالباً. بالنسبة إليّ، أحياناً أصدّقها، وأخرى أشعر بأنها تفاهات تصلح لتمضية الوقت والتسلية. في كل الأحوال لم أكن أملك قدرة الاعتراض على ما يقوله لأنه أثبت جدارته الشعرية، ونبوغ موهبته خصوصاً بعدما نشرت له مجلة المُعلم الجديد أول قصيدة له بمساعدة أستاذ اللغة العربية نفسه. لم يكن من السهل حدوث هذا لفتى لم يتجاوز الثالثة عشرة بعد، كان فخوراً بنفسه لحظتها، ومنذ ذلك الحين صار يتفذلك بعض الشيء في محيط أصدقائه المقرّبين، ببعض المصطلحات النقدية الثقيلة، ويخبرنا عن حالات التجلي التي تهبط عليه حين يغطس في مياه النهر، ويكابد حبس أنفاسه، وعندما يجالس نخلة لأكثر من ساعة رفقة كوب شاي، أو يجري في عمق خلاء، بعيداً عن الأصوات البشرية.

هذا ما لم نملك إمكانية نفيه، أو السخرية منه.

***

لم تكن القصيدة العروبية التي ألقاها طرفة وليدة أفكاره وحدها.

الجلوس في المقاهي، خصوصاً أثناء رحلاته إلى البصرة، الإنصات إلى أحاديث ونقاشات العامة حول الثورة المصرية، أنبتت وعياً ناشئاً إزاء ما يحدث، وأقاويل ساخطة موجهة نحو نوري باشا، الرجل الذي يعرفه لكنه لا يدرك مكانته أو الأدوار التي يقوم بها في السلطة. لم يكن هذا يعنيه بقدر تلك الجملة التي قالها أحدهم في لحظة انفعال متفجرة: "إلى متى يحكمنا الأجانب!؟". ودّ لحظتها أن يسأل القائل عن مقصده، لكن ما منعه أنها بدت عبارة عادية لدى الآخرين. أثارت لديه بعض الغيرة والغضب والحيرة في آن واحد، واضطر في لحظة هادئة على الغداء، إلى أن يسأل والده: "من يحكم العراق؟". تناول أسامة لقمته وظلّ صامتاً شاخصاً باتجاه الحائط ما بين طرفة وصابرين، وقال بعدما ابتلع طعامه: "الملك فيصل الثاني". إذن من ذا الغريب الذي يتسلط علينا؟ لم يقل طرفة هذا، احتفظ بتساؤله، لكن والده فهم على نحو ما مقصد ابنه: "الإنجليز أتوا بعائلة الملك من الحجاز، بعد الحرب العالمية الأولى"، ولم يقل أكثر.

***

وفق مخزون طرفة الذي تلقاه في المدرسة من حصص التاريخ. ما تفوّه به والده هو الخط الفاصل بين العهد العثماني والزمن الحالي، هكذا أخذ يعالج بعض معلوماته التي لم تكن مرتبة ترتيباً جيّداً، واستدعى بعد حين بعض أشعار الرصافي والجواهري التي لم يكن يدرك مقاصدها، تجلت الآن وبدت آفاق إدراكه تتسع، وأحسّ لحظتها بالمسؤولية الوطنية. كانت مشاعره جديدة، وتفطّن للتوّ إلى هذه المسائل، أخذ يتحدث فيه بإفراط، ورأيتُ في عينيه الحماسة والانفعال، كان اكتشافاً مغايراً له ولكل أقرانه، نحن من نماثل مرحلته العمرية.

سمعنا ذات يوم عن تظاهرة حاشدة في جانب ما من السيبة، لم نكن نعرف آنذاك المعنى الدقيق لمصطلح "تظاهرة" لكنها بدت فعالية جديدة أو نادرة الحدوث. ركض طرفة وتبعناه باتجاه الصرخات الآتية من مكان على مسافة منّا، حتى بلغْنا جَمعاً من الناس اتخذوا الطريق العابر من السوق مساراً للتعبير عن احتجاجاتهم، كان خليطاً من البشر المتفاوتي الطبقات، بعضهم يحمل لافتات من القماش كُتبت عليها عبارات معادية للإنجليز ونوري باشا. يتصدّرهم رجل يهتف بصوت عالٍ ويردّد الآخرون وراءه، لم أكن أسمع ما يقولونه جيّداً، لكنني ميّزت كلمات "الموت، المحتل، العرب" أظن أن طرفة استطاع تفكيك العبارات الرنانة، لأننا بعد أن انضممنا إليهم بفضول وذهول، راح يردد معهم في صوت ممزوج بالانفعال والغضب، وكان بعضهم يرفع قبضته ويهزها بتوافق مع الهتاف.

استمر الناس في التوافد إلى المسير، وبدا طريق السوق قد اكتظّ عن آخره، وراح القطار البشري يمتدّ حتى أضعتُ طرفة وبقيّة الأصدقاء، وأُقْفِلت المحالّ وانضم بعض أصحابها إلى ركب الاحتجاج، حتى وصلنا إلى فرجة تفضي إلى ساحة جعلت الجميع يلتف حول أولئك الذين يتصدرون المسير، وبدأ أحدهم يلقي خطاباً مستعيناً بورقة بعدما حمله آخر على كتفيه. كان صوته جهورياً صادحاً يصل إلى مسمع الجميع، وتخللت حديثه عبارات صارخة من الحشود، بعضها ناقمة وأخرى مؤيدة، وبعدما فرغ الخطيب تناوب آخرون على سدّة الحديث، حتى انصرف الناس تدريجاً. بعضهم واصل الهتاف إلى أن بلغ أول السوق، كانت الحادثة نفسها لم تتجاوز الساعة، ربما الساعة والنصف، ولا نعرف كيف عَلِم أسامة، الذي اعترض على تهوّر ابنه وانضمامه إلى التظاهرة، حتى نشبت يومها مشاجرة كبيرة أدّت إلى هروب طرفة من بيتهم، الأمر الذي جعله يبيت ثلاث ليالٍ في البقالة، ومثلها في بيت الجيران.

***

"كان يلزمنا أخذ لقطة علوية للمسير تُظهر أوله حتى آخره".

هذا ما بدر في ذهن طرفة حين استحضرنا حالة عدوى الاحتجاج، وتنامي جمهرة الناس. لم يكن أيٌّ منّا يعرف سبيلاً لأخذ صورة فوقية لها قدرة احتواء المشهد بالكامل، لم تكن هناك مبانٍ عالية حول السوق، لم نكن نملك كاميرا أصلاً.

طرفة لم يكن ينتظر جواباً، لقد وجد حياته تؤخذ باتجاه الشعر والسينما والسياسة، وصار يرى الدنيا وفق هذه الأشياء التي يحوم فوقها، ومن أجلها. واصل عمله في البقالة ليضمن حصوله على احتياجاته الخاصة، بعد تجذر شكل من الاستقلالية التامة عن والده، مع احتفاظه بالهدنة التي أخذت موضعاً من حياتهما، تضمّن عدم إزعاج أحدهما الآخر. لكنه منذ مشاجرة التظاهرة، أصبح يبيت في ديوانية ابن الجيران باعتياد، بالأيام، بالأسابيع أحياناً، وأخذت رجله على البصرة وكأنها في الساحة المجاورة لقريتهم، وبعد انتقاله إلى المرحلة الثانوية، طلب من والده السماح له باستخدام دراجته البخارية، واتته الفكرة بعدما اكتشف وجودها في حيّز ضيّق من البيت تتكدّس فوقها كومة من الأغراض المهملة، ربما مضى على وجودها في ذلك المكان ما يقارب عشر سنوات، بعد خبر الماء الأزرق بفترة قصيرة. لم يمانع والده، ورأيتُ طرفة أمام باب منزلهم في أحد الأيام، يزيح اللحاف الذي أسدله أسامة على الدرّاجة وينفض عنها الغبار، وراح يجرّها جهة السوق، بدا أنه أودعها عند أحدهم، وعاد بعد يومين يمتطيها.

كانت تصدر أزيزاً مزعجاً لكنها تؤدّي الغرض.

وبسببها استطاع أخذنا، أنا وابن الجيران، إلى البصرة عدة مرّات، واستطعت تفهّم توقه إلى تلك الأجواء، أكثر من كل المرّات التي تحدّث عنها، ورأينا كل ما رآه، وأحببنا كل شيء هناك كما فعل، عدا دخوله في حوارات عارضة ضمن أحاديث المقاهي المثقلة بالمفردات المبهمة، كان هذا يحرجنا بعض الشيء لصغر سننا. ذات مرة طُردنا بعد غضب أحد الرجال إثر جدال طرفة وإصراره على رأيه، إضافة إلى اندفاعه نحو المشاركة في أي اعتصام أو مسيرة معارضة، حتى ذلك الوقت أتذكر أنه انضمّ إلى تظاهرتين تقريباً، وكانت الشرطة تتدخل كل مرة لفضّها بالقوة.

مضت تلك السنوات سريعاً، وكانت الحياة قد بدأت تتقاذفه نحو اهتمامات عدة حتى تجاوز مرحلة الثانوية والتحق بمعهد الدراسات التجارية، حاجته لأن يتحصّل على شهادة تؤهله للحصول على وظيفة في أسرع وقت ممكن، يعين فيها أسرته، أمّه وأباه، كان ذلك أكبر من طموحات التحصيل العلمي. للظروف سلطتها. وفي سنته الأولى حاول تنفيذ ما تعلمه حرفياً بعدما شَعَر ببعض التقييد في عمل البقالة الذي يلزمه بأوقات محددة، ما عاد الأمر يناسبه. الآن يحتاج إلى التحرر أكثر، لكنه تحامل على نفسه حتى نفّذ فكرة جالت في رأسه، فأخذ يزرع في باحة منزلهم الخلفية ما استطاع من بذور الخضروات، ثم يأخذ حصاده وثماره ليبيعه بالتجزئة على المحتاج من قريته والقرى الأخرى المجاورة، ثم يصرف ما يفيض منه في أبو الخصيب بسعر الجُملة على أحد الباعة كما يبدو.

أخذت أموره تسير على نحو جيّد ومستقر، وصار من المعتاد أن يغيب نهاراً كاملاً إثر انشغالاته دون أن يراه أحد سوى على وجبة الغداء أو في فراشه ليلاً. لكن طليبة تنبّهتْ ذات مرة، بعد سؤال صابرين عن طرفة، كانت لم تره منذ يومين، حتى عبد الجبار البقال، وأنا وابن الجيران. رحنا نبحث ونسأل دون جدوى، طال غيابه واستمر ستة أيام متواصلة، حتى بلغنا خبر اعتقاله في إحدى تظاهرات البصرة الحاشدة!

٧

ديسمبر، عام ٢٠٠٩

أوصى طرفة الدكتور عبد الغني عصفور في مكالمة هاتفية قبل أن أغادر يوم الزيارة الأولى: "شاب واعد اسمه إسماعيل...". يومها حضَرتُ باكراً إلى قاعة الملتقى. الورشة تسبق الندوة بساعة تقريباً، عرفته منذُ رأيته أول مرة، رجل قصير ممتلئ، لا يغيب عن أي من ندوات ملتقى الثلاثاء، يجلس غالباً في منتصف القاعة، يده لا تتوقف عن العبث بحاملة مفاتيحه عندما يُنصت باهتمام إلى ضيوف الندوات. مداخلاته مقتضبة ولا يشارك في جدال عام أو حوارات جانبية.

صافحته باهتمام، قال: "أهلاً إسماعيل" دون أن أعرّفه بنفسي، ثم جلسنا في حلقة دائرية تأخذ بالاتساع كلما انضم فرد جديد. تُشاركنا بلقيس، كاتبة القصة المعروفة، تُطالع أوراقاً بيدها، تقرؤها باهتمام قبل أن ترفع رأسها نحوي: "ألم تحضّر شيئاً للمشاركة؟". كانت يداي فارغتين، هززت رأسي بابتسامة خجلة: "هذا يومي الأول" ردّت بلهجة مازحة: "هذه المرة، سَماح". سآتيهم بنَصّ في الأسبوع المقبل، حتى لو قصّة مُختارة من مجموعة الكواكب السفلى، الدكتور يفعل ذلك أيضاً. لم تكن ثمة قواعد للمشاركة في أعمال الورشة، الفكرة تكمن في تبادل الآراء والنقاش الحر حول القصص وجوانبها الفنيّة.

فتح الدكتور عبد الغني واحدة من مجموعاته القصصية، كان غلافها رثاً مفككاً، أوراقها شديدة الصفرة، قرأ منها قصة عنوانها "هواء ثقيل". بدت مخارج حروفه واضحة، يقرأ ببطء ودقة، لكن القصة كانت غامضة عصيّة على مسمعي. حين فرغ، نظر إلى يمينه باتجاه بلقيس التي ابتسمت وتولّت مسؤولية بدء المناقشة، وأخذت تتحدث بصوت هادئ حول انطباعها العام دون استخدام مفردات ناقدة وغريبة. شعرتُ آنذاك بأنه ليس من المناسب التحدث

بسلبية في قصّة لكاتب مثل الدكتور، وكنتُ، بالمناسبة، لم أفهمها أصلاً، ولا أدري إن كان من المقبول التصريح بذلك!؟

تداخل أعضاء الورشة أثناء النقاش حول جملة متوارية وراء أحد المجازات، وأخذ الحوار يكشف ملابسات القصّة، وتمسّكتُ عندها بواحد من الآراء التي أثيرت، وقمتُ، تقريباً، بتكرارها وفق صياغة جديدة وإضفاء بعض الملاحظات الجانبية حين جاء دوري للحديث. ربما كان من الأجدر الاعتراف: "هذه قصة صعبة، وقد أحتاج إلى مطالعتها عدة مرات حتى أدركها". ثم أخذنا نكرر الفعل مع نصوص أخرى، الاستماع، ثم المشاركة في التعليق. وقبل انقضاء الوقت، قال الدكتور عبد الغني: "الندوة الختامية لملتقى الثلاثاء ستكون خاصة بأعضاء ورشتنا، ونودّ من خلالها تقديم نصوص تتمحور حول عنصر التراب" ثم أخذ يشرح ما يمكن الكتابة عنه، البيوت، القبور، البساتين، الصحاري، وكل ما يماثل هذا أو يرتبط به.

***

لم أفكر في الاستعانة بمجموعة الكواكب السفلى.

ينبغي لي كتابة قصص جديدة. بالمقارنة مع ما سمعته في الورشة، أحسستُ أن كل ما أنجزته يدعو للخجل، ربما كان هذا رأياً متطرفاً ومبالَغاً فيه، سأحاول كتابة شيء مختلف يقارع ما يتداوله نخبة الأدباء، حتى لو لم أقتنص فكرة تصلح للظهور في الندوة الختامية. هناك متسع من الوقت، من ثلاثاء إلى آخر سبعة أيام بحالها، أحتاج إلى أن أتمّم خلالها قصة واحدة فقط. في الظاهر تبدو عملية سهلة ممكنة، لكنها لحظة التنفيذ تحتاج إلى معجزة، حتى مع شخص بمثل وضعي، محاط بالعديد من المحفزات والقليل من المسؤوليات. خلصت في أول أسبوع إلى حكاية استقيتها من أحاديث عابرة مع أناس لا أعرفهم في صالون الحلاقة. حوارات تخللتها حكايات مشكوك في صحّتها لكنها مشوّقة، منسوجة ببعض الأكاذيب التي تعطي للأحداث وهجها.

ألقيت القصّة في الأسبوع الموالي، انضمّ إلينا ليلتها شاعر معروف، وضيف من إحدى الدول المجاورة، لم أرتح إلى وجودهما حقيقة، كنتُ أشعر بأن

حلقتنا مغلقة نمارس فيها حماقات الكتابة. ثم جرى ما توجّست منه إذ انخرطَت المجموعة بقيادة روّادها في سجال حول ضرورة الكتابة وفق التلميحات بعيداً عن الإشارة المباشرة إلى المعنى، وكأن الكاتب يقول ولا يقول في آن واحد. حاول الشاعر أن يوضح مقصده حين استعان بجملة لأحد الكتّاب: "يقول في إحدى قصصه، دخلت إلى الشقة، فشممت رائحة الجص" وتلك إشارة ذكيّة إلى حداثة طلي المكان، فأضاف آخر على سبيل المثال: "عندما رفعتُ الكوب، كانت قاعدته قد ارتسمت على الطاولة". وهذا تلميح آخر إلى الغبار الذي يغطي السطح.

دخلتُ في أول سجال يومها، شعرتُ بأن التركيز على هذا المنحى يجعل من الكتابة مهمة شاقة جداً أكثر مما تبدو عليه. ثم توالت النقاشات مع توالد الأسابيع، كانت تلك الاشتباكات دافعاً للمواصلة والإصرار لأن آتي بجديد، كلّ مرة.

الشهور الأولى من عام ٢٠١٠

أتلقى بين الحين والآخر إيميلات تحوي آراء القراء حيال "الكواكب السفلى"، وكان أحدهم قد أرفق ضمن رسالته مقالةً منشورةً في إحدى المجلات، يتحدث فيها عن المجموعة بثناء وإفاضة. بدت إشادة مفارقة ومغايرة، تبادلتُ وإيّاه مكاتبات طويلة حول القصص والروايات، اكتشفتُ خلالها أنه قارئ نهم، إضافة إلى وجود لغة أحادية مشتركة بيننا أفضت إلى موعد في مقهى قريب. اسمه عبد العزيز سالم، وقد توصّل إليّ حين قصد اقتناء رواية باولو كويلو الصادرة حديثاً، وأثارت مجموعتي القصصية فضوله بسبب غلافها اللافت واسم كاتبها الجديد.

عندما التقينا بدا مختلفاً عن صورته المنشورة بجانب مقال المجلة. انساق اللقاء سريعاً في سيل من الموضوعات والأخبار. لاحظتُ مدى تقاطع أفكارنا والتقائها، أدّى هذا إلى سلسلة من اللقاءات اللاحقة. وفي إحدى الليالي أفصح عن مسوّدة نهائية لرواية تخصّه مُنجزة وتامة، كان يستعد ليشارك بها في

جائزة محلية، رغم حاجته إلى مزيد من المراجعات والأخذ بآراء صفوة القراء ونافلتها، فإنه اضطر إلى عمل طبعة خاصة وإرسالها إلى لجنة الحكم إثر ضيق الوقت المتاح لتقديم الأعمال المشاركة. اقترحتُ أن يخصص نسخة لطرفة. استثقل المسألة في البداية، عبد العزيز على قَدر من الذكاء بحيث يحاذر القيام بأيّ خطوة لم يعجنها جيّداً، حتى بعدما تحدّثت إليه عن لقاءات نهار السبت: "روائي مثل طرفة، لن يتحمس لقراءة عمل كاتب مبتدئ". عارضته: "هذا ما ظننته أنا كذلك". قصصت له المواقف المتوالية التي جرت منذ اللقاء الأول في قاعة ملتقى الثلاثاء، أخذَتهُ الحماسة رغم عدم اقتناعه بالخطوة، لكنه اقترح أن أدوّن تفاصيل تلك الزيارات الأسبوعية، لا بدّ من أن تحين ساعة نشر مجالسه، أسوة بأدباء آخرين لهم المكانة ذاتها. وجدتها فكرة مثيرة، وقد أحققها لاحقاً، أما في الوقت الحالي فلستُ مستعداً كفاية لتنفيذها. ما زلت بحاجة إلى مزيد من الوقت.

بعد إلحاح، ترافقنا أخيراً إلى مكتب طرفة، رغم هاجس عبد العزيز، تقدّم إليه بنسخة مطبوعة مع ناشر لبناني من روايته الآنفة التي حملت عنوان "نوافذ الضفة الأخرى". بادله طرفة الإهداء بعدد من مؤلفاته. انسجمتْ حواراتنا بتلقائية وعفوية كما توقعت، فكرّرنا الزيارة بعد أسبوع، يومها فوجئ عبد العزيز بأن طرفة قد أتم قراءة روايته، وأبدى تعليقه فوراً: "رواية أولى رائعة". وكأن المشهد نُسخ ممّا حدث معي قبل بضعة شهور.

بعد مدة قصيرة وردتنا أخبار فوز عبد العزيز سالم بالجائزة المحلية.

٨

نال طرفة ما ناله بعد الإفراج عنه. لم تكن سياط التوبيخ والغضب صادرة من أسامة فقط، كنّا قد اجتمعنا ضدّه، وبدا صامداً وقتها صامتاً لا يدافع أو يجادل، ربما كانت هزيمته الأولى، أو مدعاة لمراجعة مواقفه ومبادئه، ورغم يقين من حوله بندمه على ما اقترفه، فإنني أرى في عينيه شيئاً من التحدّي والعناد. كانت هتافات المتظاهرين موجّهة ضد نوري باشا، وأخرى مؤيدة لجمال عبد الناصر إثر العدوان الثلاثي على مصر، ولمّا اعتُقل طرفة كانت تهمته قيادة تظاهرة وإثارة الفوضى، ولعلها تهمة ألحقت بكل من كان معه، وبعد كل هذا، يدّعي طرفة أنهم لم يتعرضوا للضرب أو الإهانة، وكل ما قام به العسكر أن قسموا المعتقلين إلى مجموعات. طلاب الجامعات والمعاهد وضعوهم في عنبر منفصل، تركوهم دون طعام في اليوم الأول، وفي الأيام اللاحقة كانوا يعطونهم كسرة خبز، وكوب ماء حتى يوم الإفراج.

قال: "كانت قرصة أو توبيخاً".

طرفة يغالب نفسه، الحقيقة التي عرفتها في ما بعد، أنه وجماعته ضُربوا وعُذبوا منذ لحظة اعتقالهم حتى دقيقة الإفراج عنهم، لم تكن السلطة لتتهاون في أحداث مثل هذه. سمعنا وقتها عن إعدامات نُفذت ضد بعض المتمردين. طرفة خاطر بحياته، وكان من الممكن أن يتعرض لما هو أسوأ من هذا بكثير. لست متأكداً إن كان يدرك حجم المأساة المحتملة، لكن الإنسان بطبعه يحاول مرة أخرى بما أنه نجا. كانت فترة صعبة جداً، أحياناً أراه ملقى على الحشائش القريبة من أحد الجداول، ينظر إلى السماء بصمت، فأبقى على مسافة منه أرقب سلوكه، لا حركة تصدر عنه، فيما يبدو أن هناك ضجيجاً يعمل في رأسه، صوراً، مشاهد، أصواتاً ومشاعر. أحياناً أخرى يتركنا ويمضي بعيداً حين تحتدم الأحاديث، وفي إحدى المرات نزع قميصه فجأة، وقفز إلى النهر محاولاً السباحة إلى ضفته الأخرى.

***

كنّا نسير أحياناً بلا توقف إلى حيث تأخذنا أقدامنا. وجدنا أنفسنا ذات يوم في مكان هادئ نديّ. طلب طرفة أن نبقى حيث نحن، لسبب ما شعر بالارتياح: "لو نحفظ الطريق الذي قادنا إلى هنا". فتركنا علامات في الأشجار نستدلّ بوساطتها على المكان.

بعد يوم، اقترح طرفة أن نبني كوخاً نحفظ فيه كتبنا، وندعو إليه الأصدقاء لعقد الندوات والحلقات النقاشية. استثقلت الفكرة في البداية حتى قال: "يتعيّن علينا الاستعانة بأحد العمّارة". أخذنا نجمع عيدان القصب، وسعف النخيل، والحجارة وبضع قوائم خشبية. شيّدنا المكان خلال عشرة أيام إلى أسبوعين، وجعلنا المساحة الخلفية لممارسة الرياضة مما توفر من معدات بسيطة. بساط من الخوص لمزاولة تمارين المقاومة، وكراسيّ طولية من الخشب، وأثقال من الكونكريت.

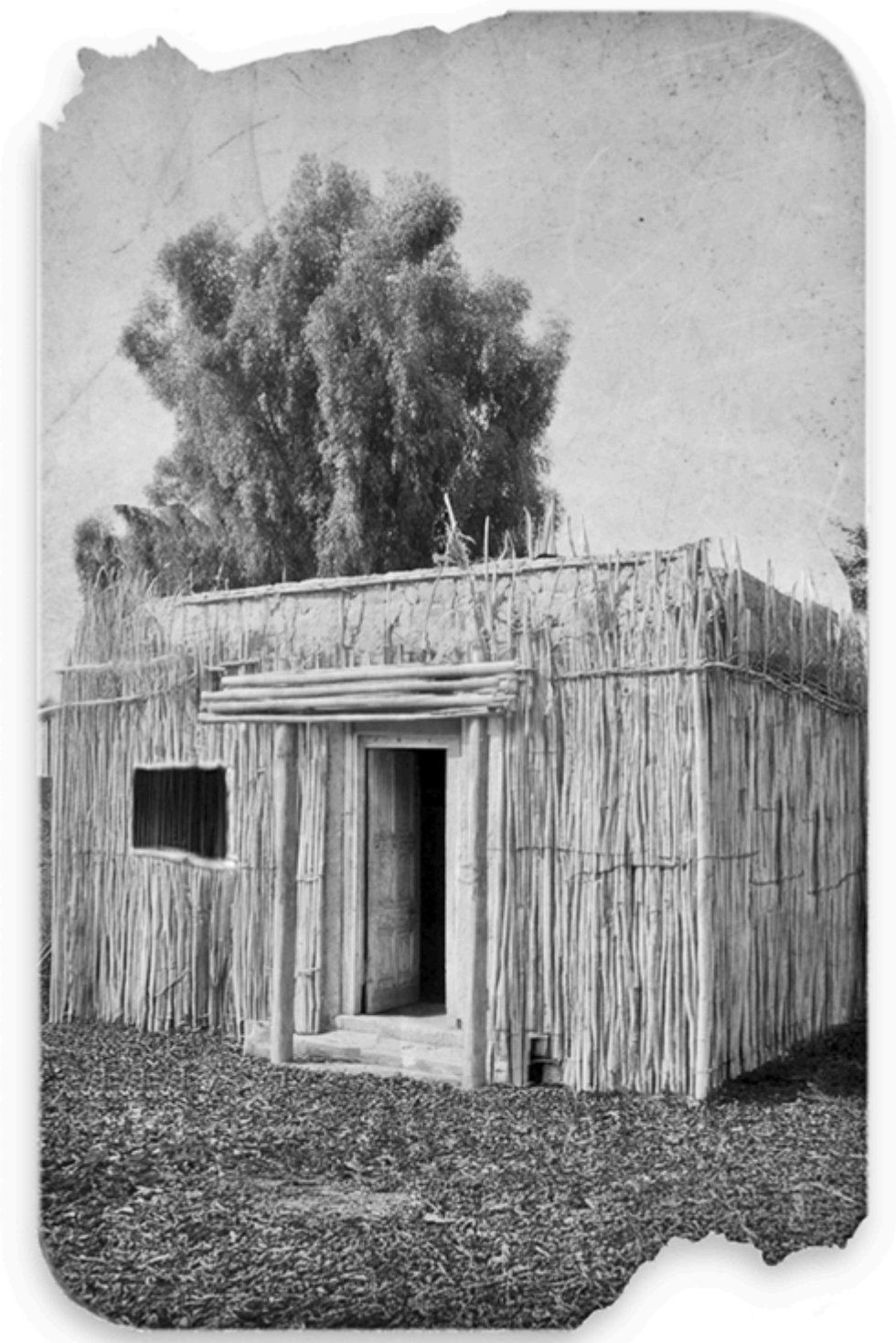

كانت بقعة بين أبي الخصيب والعشار والبصرة، وعلى جادة شارع عام، في موقع حميمي بين الأنهار الصغيرة المتفرعة عن شط العرب، وجيش من

أشجار النخيل، وروائح زكيّة تعبق بالمكان، وأصوات عصافير تزيّن الهدوء، أقمنا كوخنا الذي صار بيتنا وعزلتنا.

***

من المحرّم على الطلاب القيام بأيّ من مظاهر التجمع والجمهرة، حتى لو كانت لأغراض غير متعلقة بالسياسة، ومن هنا اكتسب الكوخ أهميته. دعونا المهتمّين ممّن حولنا في المعاهد والجامعات. كان المكان فاتناً ملهماً، يعيبه غياب ابنة الجيران، لم تعد بالقرب مثلما كان في ديوانية منزلهم. طرفة ما زال متعلقاً بها، يراها الحضن الذي يحلم أن يرتمي فيه كل ليلة بعد العودة من المعارك التي يخوضها في الخارج.

ما زال يستخدم دراجته الهوائية للتنقل أو التجوال في الأماكن القريبة، عوضاً عن الدراجة البخارية التي يخرق ضوضاء محركها سكون القرى، إضافة إلى رغبته في التخفي وألا يَستدل عليه أحد أو يتتبّعه. وفي إحدى المرات صادف ابنة الجيران وهي تسلك طريقاً بين البساتين حين عودتها من الجامعة. شعّ قلب طرفة، ورفرفت مشاعره الصدئة، ونفضت غموم الاعتقال. لقد احتفى بتلك اللحظة الخاصة، كما أشرقت هي كذلك، وراحت تعاين آثار السجن على ملامحه، ثم تبادلا حديثاً غنياً. اقترب أحدهما من الآخر، جلسا خلف نخلة تواريهما عن أيّ عابر، قضيا ذلك اللقاء واتفقا على أن ينتظرها كل مرة في الوقت نفسه والمكان. واظب على ذلك واستمرت اللقاءات القصيرة التي قد لا تتجاوز ربع ساعة، لكنها كانت تشبعه وتمدّه بالأمل وتدفع عنه مشاعر الهزيمة، زوّدها ببعض الكتب الجديدة، وأخذ منها بضع هدايا وتبادلا الرسائل للذكرى. طرفة رجل نبيل وحذر في تعامله مع الآخرين، لكن هذا لم يمنعه من التقدّم إليها في أحد الأيام، والمبادرة بلا تردّد في تقبيلها.

***

ربما هذا الملتقى الثقافي الأول من نوعه، ما أعرفه على الأقل أن نشاطاً كهذا يُمارس في المقاهي ومنازل الكتّاب، لم يبنِ أحد مكاناً مخصوصاً لتعاطي

الثقافة وإقامة الندوات والحلقات النقاشية. تداعى عدد من الطلاب باختلاف انتماءاتهم وأهوائهم، أفكار حزبية، واهتمامات فنية وأدبية، وبعضهم يتطلع فقط إلى اكتشاف المكان. كانت الدعوة سرّية، وددنا ألّا نلفت الانتباه، كنّا حذرين، نخشى وقتها من بعض المندسّين الذين قد يعملون لصالح جهاز المخابرات، ومع تنوّع الرواد وتكاثرهم، هناك من دأب على الحضور وآخرون انصرفوا حتى ثبّتنا مجموعتنا.

أنشأنا بعد وقت مجلة شهرية يدوية الكتابة والتصنيع، محدودة الصفحات ومن نسخة واحدة، مثبتة بالصمغ، كانت صناعة رديئة، إلى درجة الحذر من تمزقها وتفككها أثناء القراءة، لكنها غنية بالشعر والقصص والمقالات، وننقل فيها بعض حوارات الأدباء من مجلات وصحف أخرى، ولم تخلُ من رسوم تعبيرية أو كاريكاتورية. كان طرفة يشرف على تجميع موادّها وتحريرها، وعندما تصدر نحتفظ بها في الكوخ، وعلى كل شخص يرغب في تصفحها أن يكون برفقة أحد الأعضاء المؤسسين للملتقى، أنا أو طرفة نفسه فقط، وبعد صدور عدد جديد، تُنقل النسخة القديمة إلى الأرشيف في بيت ابن الجيران.

بعد فترة، اقترحتُ أن نعلّق لوحة خشبية نثبت عليها المواعيد والاقتراحات، ومساهمات البعض الذي لم يحظَ بفرصة الظهور في المجلة الشهرية، أو من يرغب في نشر أبيات شعرية قصيرة، من شطرين أو أربعة، ومن أجل دعوات المشاركة أو حضور أنشطة أخرى خارج الكوخ، وأخبار الأعضاء السعيدة والحزينة، ولاقت الفكرة استحسان طرفة، وتفاعل معها الآخرون.

***

في تلك الفترة بدأ طرفة مساعيه الأولى في كتابة القصة القصيرة. كانت محاولات أصيلة غير متأثرة بأحد الأدباء. أتذكر كراسته الحمراء التي يحدّها جانب أسود، يجالسها بعيداً عن الآخرين وراء جذع نخلة، أو عند ضفة نهر وكأنه يخفي سراً لا يأتمن عليه أحداً، حتى قلت له مرة راغباً في كشف فعله: ”هذه رسالة غرامية طويلة“. ابتسم على نحو مفاجئ: ”هذه وصيّتي“.

لكنه أفضى بعد حين: "أجرّب كتابة القصة القصيرة". طرفة لا ينضوي عادة في ما يسود كما يحدث غالباً. ذات مرة حاولت أن أسترق النظر إلى إحدى صفحاته، وجدت جُملاً مبتورة، سطوراً غير متواصلة، لم أفهم كيف يمارس كتاباته على هذا النحو. ربما خشيَ من ردة فعل الآخرين حيال صنيع مغاير في جنس أدبي معروف ورائج. وفي أحد الأيام وجدت كراسته على منضدة في الكوخ، وكأنه يدعوني لألقي نظرة عليها، استجبت للفضول ورحت أطالعها.

عنوان أول "الرجل ذو الرأسين". تبدأ القصة بشطر حوار لشخص ما يتحدث عن الشعر الشعبي، ثم ينظر إلى رفيقته التي تردّ عليه بجملة أخرى. لم أجد علاقة بين الحوارين. كانت هناك عبارات بين أقواس، يمضي شخص إلى شرفة، تجوب أنظاره عرض السماء، يستذكر فتاة كانت على شرفة خضراء في الطرف الآخر، يعلق عليها: "حلوة". سطور قصيرة، لغة غريبة وأحداث أغرب.

انتقلت إلى عنوان آخر "نفاق الآخرين". لا يبدو عنواناً مناسباً لقصة، تُستهل بمشهد لأحدهم يقف أو يمشي في شارع، تواجهه نافذة خضراء أيضاً، أحدهم يسأل: "أتريد شاياً؟". كان ذاك نادلاً في مقهى، ثم تخترق أنظاره زجاج النافذة، ويتساءل لماذا لم يُخلق لأب غنيّ؟ يتحدث عن أبيه، ثم تظهر خالته، أفهم أنهم عائلة غنية، ربما يقارن حالاً بحال، يصعب ربط الأحداث في ظل قراءة عجولة.

أتصفح أكثر، عنوان "النعل الكبيرة". يرفع شخص رجله ويضرب بنعله الأرض، يتصاعد الغبار، يكرر عمله برجله الأخرى، ضربة أخف، غبار أقل، يودّ لو يشتم نعله، تبدو قديمة أو متهالكة، يقف عند حاجز أسمنتي، أدرك أنه رجل من طبقة عاملة، حديث داخلي، لغة تأملية، لم يتخلص طرفة من شعريته في القصص، الكثير من الغموض، مفردات غير مألوفة.

يفاجئني طرفة: "ما رأيك؟".

***

طوينا ستة شهور على تشييد الكوخ، وجمعنا خلالها كتباً وفيرة. نُدوّن في صفحة الكتاب الأولى اسمينا، إسماعيل وطرفة، ونذيّله بتاريخ اقتناء الكتاب، حتى نثبت ملكيته، وتذكاراً نحتفظ به.

كانت أوضاع العراق السياسية آخذة بالتوتر، توافَد أهل طرفة من الكويت، وعلى نحو خاص عمه راشد صاحب البوم، طالَبَ أسامة بأن يرسل ابنه خوفاً عليه من حالة اعتقال جديدة. كان يلحّ عليه عند كل زيارة للسيبة منذ الحادثة نفسها، لكن خاله، ضابط الجيش، يتدخل كلّما أخبرتْه صابرين بذلك. طرفة يستعين بخاله كثيراً حين تستغلق عليه الأمور. لم يعد باستطاعة أسامة السيطرة عليه، خصوصاً مع ولادة أطفال جدد، رامي وعدنان، أصبح عدد أبنائه سبعة. العائلة تنمو بتوافق مع توالي المصائب التي يتسبب بها طرفة.

كانت أياماً عسيرة، تعاضدت فيها الأنباء التعيسة. تزوجت ابنة الجيران بهدوء تام ودون مقدمات. يقال إن والدها علم بطريقة ما عن علاقتها بطرفة. صدمة مغايرة، أحاطت به مشاعر الغبن والضيق، والأخبار كعادتها مطواعة تصل إلى أسامة قبل الآخرين، لكنه لم يعد يواجه ابنه كما السابق، ما عاد التوبيخ يجدي نفعاً. الفتى أصبح رجلاً، وخلق من حوله جماعة، وإخوته أصبحوا يلجؤون إليه كلما دعتهم الحاجة؛ فطرفة يمدّهم بالمال دون انتظار طلب من أحد، ولوالدته صابرين قبلهم. كان يخفي ذلك عن والده، لكن الأخير يدرك كلّ ما يحدث داخل بيته وخارجه.

***

لعمّه عبد المحسن ابنة تصغره بسنتين تقريباً.

بعد عشرة أيام من زواج ابنة الجيران، قال له أسامة: "جهّز ثيابك". سكت طرفة ونظر إليه بترقب قبل أن يتابع: "غداً نزور عمك في السبيليات، نكتب كتابك على بدرية". لم يبد ردة فعل، أخذ فترة صمت كي يجرع صيغة الأمر، ثم أجاب بانفعال مفاجئ: "لن أفعل". صرخ به أسامة، وقرع الأرض بعصاه عدة مرّات متوالية متزامنة مع ردّه: "ستفعل رغماً عنك".

تمّت الترتيبات بين الأخوين دون علم المعنيّين بالزواج، ودون أن يعرف عبد المحسن دوافع أسامة، الذي يتطلع إلى كبح انفلات ابنه وتمرده. كان من المقرر أن يتم عقد قران متبادل بين العائلتين، طرفة وبدرية، وسميرة وابن عمّها، لكن في فجر اليوم التالي، سُمع دويّ محرك الدراجة البخارية خارج المنزل، واستيقظ الجميع بمن فيهم أسامة الذي أدرك أن هناك مصيبة آتية، حاول النهوض سريعاً، لكنه لم يستطع اللحاق به، لحظات وراح الصوت يبتعد ويتلاشى.

كان طرفة قد مضى دون توقف، رحلة طويلة جداً، تلك التي وعد نفسه بها حين ذهب بالقطار مع أمه صابرين إلى بغداد، لم يكن يدرك طريقه جيداً، وليست معه خريطة يهتدي بها. خطر له أن يسير بمحاذاة سكة الحديد، لكن هذا لم يكن ممكناً، ليست كل الدروب مهيأة لوسائل المواصلات الأخرى، وهذا لم يكن عائقاً كذلك. الهدف بلوغ بغداد، لكنه يود اكتشاف كل مدن العراق، واحدة تلو الأخرى، كان معه مبلغ بسيط من المال، قرر أن يوفر ثلثيه للبنزين، والباقي لكل احتياجاته الأخرى.

تصرُّف طرفة لم يعق أسامة.

ظهيرة اليوم نفسه، استعان بابنته سميرة لقراءة تاريخ ميلاد أخيها المسجل في ورقته الثبوتية، ثم راح يعدّ بأصابعه شيئاً ما. وحين بدأت الشمس تميل جهة الغرب، أخذ عائلته وذهبوا إلى السبيليات محل منزل أخيه، ورغم محاولته إخفاء غضبه، فإن إيماءات جسده المثبط وشفتيه الذابلتين تكشفان عن كدر. تأكد الأب من أن ابنه ما زال قاصراً في نظر القانون، لم يبلغ الثامنة عشرة بعد، لذا لم يجد ضيقاً من تزويجه في غيابه، وما زاد من غرابة الموقف أن عبد المحسن لم يسأل عن سبب اختفاء طرفة، أتمّ الموضوع بهدوء ودون إثارة بلبلة، تحامل على نفسه غالباً لعقد قران ابنه على سميرة. كان حفلاً مريباً، وأسئلة كثيرة تحوم حول الزوج الغائب. وفي الصباح التالي تحدّث الأخوان هاتفياً، وبدا أن نقاشهما آخذ في الحدة تدريجاً. حاول أسامة أن يوضح طبيعة المشكلة التي نشبت بينه وبين ابنه صبيحة يوم الزواج – وهذه قصّة اختلقها بغية تهدئة الأمور – وأن الأخير أراد أن يحرجه بهذا السلوك، لكن عبد المحسن

لم يقبل هذه الحجّة، واعتبر غيابه إساءةً له شخصياً، خصوصاً أنّه لم يَظهر حتى اللحظة.

في نهاية اليوم، اضطرّ أسامة لأن يطلّق ابنه، بعد يوم واحد من تزويجه!

***

من باب العلم بالشيء، قال أسامة لطرفة، الذي اتصل ببيتهم بعد عدّة أيام يُطَمْئن والدته: " اسمع، لقد زوّجتك وطلقتك بعد يوم". بدا صوت أنفاس الفتى لاهثة عبر خط الهاتف، يفكّر في ردّ يتوافق مع الخبر المباغت: "حسناً فعلت، شكراً".

كان الاتصال آتياً من بيت خاله، وصل طرفة بعد أربعة أيام من التجوال في مدن العراق حتى بلغ بغداد، المدينة الحلم، هكذا شَعر حين رأى لافتة تشير إليها. كانت نتيجة مرضية ومشبعة بعد بضع هزائم متوالية، رغم حالة من الفوضى التي تعيشها العاصمة آنذاك، وأجواء مشحونة متوترة، أزاح صاحبنا كل ما يخدش جمال الصورة. ذهب إلى السينما يوم وصوله إلى بيت الخال، وصار هذا ملاذه ولذته اليومية دون ملل، بل تطوّر الأمر وأصبح بعد أن يشاهد فيلماً، يدخل العرض الذي يليه مباشرة، ويكرّرها بذات التوق والحماسة. وسمحت له الشاعرة، زوجة خاله، بأن يتجرأ أكثر على مكتبتها، عاش أياماً بطول الدنيا وعرضها، مارس الأشياء التي يحبّها بإصرار ومقاومة مستميتة بغية تجاوز أزمة ابنة الجيران، ومعاودة الحياة من جديد.

***

عندما ينقطع بث الإذاعة، ندرك أن خطباً ما يحدث.

استيقظ طرفة، فتناهى له صوت الشاعرة المتسائل عن مكان زوجها، كانت قلقة جداً، ويبدو أنها أيقظت أبناءها حتى يستطلعوا أوضاع الخارج ويبحثوا عن مكان والدهم، ثم سمعها تُرسل أحدهم إلى بيت جارهم ضابط الشرطة في آخر الحي: "اسأل زوجته ربما تعرف". أذعن طرفة لضجيج الخارج، تبدو حركة غير عادية، نهض من فراشه وأطلّ من النافذة القريبة، فدُهش من الجموع

الغفيرة. البيت يحاذي طريقاً عاماً، والناس منقادون في مسير نحو جهة محددة، كأن قوة ما أخرجتهم عنوة إلى الشارع. كانت ملاحظته الأولى أن ما يجري يشي بحالة فرح، الوجوه مبتسمة وضاحكة ومستمتعة رغم انتصاب شمس يوليو اللاهبة في صدر السماء. فكر طرفة في أن يصعد إلى السطح، رأى زوجة خاله في الصالون العلوي القريب من غرفة مبيته، جالسة على الأريكة تخفي جانبي وجهها بكلتا كفيها شاخصة في الأرض، رفعت رأسها ناحيته: "طرفة ألم ترَ خالك؟" هزّ رأسه نافياً، كانت عيناه مشدوهتين، المشهد في الخارج نقيض الداخل، اقترب منها، ولمس عاتقها بمؤازرة، ارتبكت أفكاره قبل أن يقول: "أثمة مكروه؟" سالت دموعها على خديها المحمرين، ثم خفضت رأسها، تداعت إليه خيالات مخيفة، تركها ومضى إلى السلالم التي تقوده إلى الأعلى.

اقترب من سور السطح، فتراءى له مشهد مهيب، طوفان من البشر على مد النظر، كأنه نداء القيامة. "ما هذا!؟" تساءل بدهشة وحيرة، ثم دهمه الخوف لحظة، وفي تلك الأثناء تفطّن إلى أمر، لمعت عيناه، ركض إلى الأسفل، فتح الباب إلى الخارج، انخرط في المسير وحاول أن ينصت إلى الأحاديث القريبة، تطلع إلى أفواههم، وجد رجلاً هرماً يسير وحده، سأله: "يا عم.. ماذا يجري؟" التفت ناحيته، فأشرق محيّاه إثر السؤال: "بشرى لمستقبلكم" لم يعلّق طرفة، نظر إليه يحثّه على المتابعة: "الحركة الثورية..." إيماءات بدنه توحي بضخامة الفعل: "أطاحت بالسلطة الملكية".

صدر بعدئذٍ البيان رقم واحد، تأسيس الجمهورية العراقية.

***

"يا عدو الإله، يا عبد الاستعمار".

"هذا بيان للتاريخ" هكذا وصف طرفة كلمة عبد السلام عارف، نائب قائد الثورة عبد الكريم قاسم.

عاد الخال فجر ذلك اليوم، أخذ زوجته إلى حِجره، وعلمنا لاحقاً أنه كان عضواً مساهماً في تحرير الشعب، بعد سنوات من القمع والقهر، بعد مطالبات

وتظاهرات. سادت حالة من التفاؤل العام، تطلع الناس إلى عودة البرلمان والصحف والأحزاب، عودة العراق إلى حضن الشرق والعروبة.

شهِد طرفة تزاحم الناس الشديد في الطرقات العامة الكبيرة والميادين، صور القائد عبد الكريم قاسم، البعض يرفع صور الرئيس جمال عبد الناصر، كان الجيش يسيطر على شوارع ومنافذ المدينة بالدبابات والآليات العسكرية، "النصر للجيش الحر" هتافات الجماهير بلا توقف، حالة انفعالية متحمسة تقمّصت نفوس الجميع، هذا انتصار بلد، ومجد لكل مواطن، هكذا أحسّ طرفة، فوز المبدأ وبصيرة المشاركة في التظاهرات، فوز على الأزمات والإهانات والصدمات، حتى الشاعرة حين احتضنت زوجها قالت: "خشيت أن يظنّوك مع الفريق الآخر".

***

فيما قضت القيادة الجديدة على النظام الإقطاعي، وجعلت كلّ فلّاح يستملك الأرض التي يزرعها، وصدرت مجموعة قرارات تنموية أهمّها بناء المدارس والمستشفيات والمدن للفقراء، كان طرفة قد تخرّج من المعهد آنذاك وتحصّل على شهادته التي سارع في تقديمها إلى وزارة المعارف، وقُبلت فوراً رغم أن تحصيله العلمي لا يرتبط بقطاع التدريس. فالبلد وقتها كان بحاجة إلى كوادر وطنية من أجل نهضة تعليمية متوافقة مع تعديل المناهج التربوية والتوجه الجديد للحكومة العراقية، أدّت إلى قبوله.

تم توظيفه في إحدى مدارس منطقة السيف التابعة لمحافظة البصرة، الأمر الذي تطلب منه الانتقال للعيش هناك بصفة مستقرة بعد شهر أو اثنين من تكبّد عناء رحلة يومية، من السيبة حتى مقر عمله على الدراجة البخارية. تزامن هذا مع رحيل طليبة عن بيت أسرة أسامة، وبصفة دائمة. أوقع ذلك حزناً سحيقاً في قلب طرفة، لم يفصح عنه ولم يفضحه شطر من ملامحه، لكنه انتحب بشدة، وحيداً عمق البستان في الجهة المقابلة من بيتهم، بعدما احتضنها وراقبها تغادر وتختفي بعيداً عن قريتهم، محمّلة بكل ذكريات الحب والطفولة؛ كثيرة هي أوقاته البائسة، لكن نادراً ما كان يذرفُ دمعه بغزارة،

فور جلوسه في مكان تحوّطه أشجار النخيل، التي راحت تواسيه بلطف وتنصت إلى أنينه.

***

أصبح طرفة يتقاضى راتباً شهرياً جيداً، ونتيجة ذلك، استأجر بيتاً قريباً من مدرسته، مقرّ عمله، وبدأ رحلة بناء مكتبته الخاصة مع تقادم الأيام، دون الاستعانة بمخزون الكتب في كوخنا الذي ما زال محافظاً على دوره ونشاطه الثقافي. انضمّت مجموعات مختلفة إلى عضوية الملتقى الذي بدأ يأخذ مكانة بارزة في التأثير على الشباب؛ العزلة والهدوء كانا يمنحاننا حبّاً وتعلّقاً بتلك البقعة المحايدة التي لا تنتمي تقريباً إلى قرية أو منطقة. أعدنا تنظيم اللقاءات وجدولتها، اختلفت الظروف والأحوال، انشغل أغلب الأعضاء بعد تعيينهم في وظائف نظامية، رغم التوافد المستمر من طلاب الجامعات.

***

بعد عام من تولّي عبد الكريم قاسم رئاسة وزراء العراق، قامت حركة عسكرية بمحاولة انقلابية انتهت بالفشل، يقال إن القيادة المصرية وقفت وراء إعدادها وتشكيلها وتمويلها، رداً على رفض العراق الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة، ترتبت على ذلك قطيعة تامة بين البلدين، تضمنت حظر تبادل المنتجات والصادرات بشتى أنواعها بما فيها الكتب والدوريات.

كان انتقال طرفة إلى البصرة بنيّة التقرّب من صخب السياسة والفن والثقافة والقدرة على مواكبة الأحداث والإلمام بما هو جديد، أكثر من ابتغاء العيش بجوار المدرسة، والأحداث السالفة جلبت للأمن الداخلي طيفاً من توتر الماضي. لم يرضخ للأمر، أجرى عدّة اتصالات مع أفراد من عائلته في الكويت، وأنسبائه الذين يترددون باستمرار إلى العراق بقصد التجارة أو السياحة، طلب منهم إحضار المجلات والكتب الصادرة من مصر وإدخالها سرّاً كل مرّة، أذكرُ منها مجلة المصوّر وآخر ساعة، هذا ما كنتُ أشاهده باستمرار، الأمر الذي جعل من بيت طرفة مزاراً مهماً لأولئك المهتمين والمثقفين آنذاك، وأكسبه

حظوة جديدة، تُذكرنا بأطفال القرية حين كانوا يتحلقون حوله لسماع قصص ألف ليلة وليلة، هكذا بدا هذه المرة بفعل وسبب وزمن مغاير.

***

إضافة إلى الملتقى المنتظم في الكوخ الثقافي، عند البقعة نفسها بين البساتين، كان لبيت طرفة تجمّع آخر مساء كل أربعاء، يحضره المقربون جداً، لقراءة الجديد مما يرد من مطبوعات مصرية مسرّبة وآتية من الكويت، ولمناقشة مواضيع سياسية خاصة وحسّاسة. في تلك الفترة، كانت هناك زوبعة داخلية تعصر عواطفه ومبادئه، لأول مرة يشعر بأنه بين موقفين، في أعماقه يؤمن بأن ما جرى كان عليه أن يجري، الحزب الحاكم أثبت في أولى خطواته، على الأقل، جدّيته في بناء العراق، موقفه العروبي محل شكّ، رد فعله حيال الجماعة المنقلبة، تعامله الأمني الداخلي يشبه سلوك السلطة الملكية في سنواتها الأخيرة.

كان بيت طرفة مكوّناً من طابقين، الأول أفرده لمعيشته الخاصة، غرفة نوم وحمام بصالون صغير وغرفة أخرى للضيوف. الطابق الأرضي أشبه بمكان يخص عامة الزوار، مفتوح على مدار الساعة، يمنح الجميع حق استغلال كل المرافق والموجودات، بما في ذلك الطعام والشراب في مطبخه وثلاجته. اعتاد ضيوفه ذلك بعد فترة، كما طرفة الذي صار لا يُحرج من تركهم يمارسون حياتهم بشكل طبيعي داخل البيت، وينصرف هو للنوم في الأعلى. هناك باب يفصل ما تحت عما هو فوق. طرفة يحب مشاركة الأصدقاء، يمنحهم جزءاً من خصوصية حياته، لكنه مع تقدّم الأيام بدأ ذلك يزعجه ويفسد مزاجه المندفع نحو القراءة ومحاولات الكتابة المستمرة. في لحظة ما قرّر أن يغير حياته، وأدرك أنه بات في حاجة إلى مشاركة امرأة.

مقاومة الدخول في علاقات أخرى، إخلاصاً لبنت الجيران التي فارقته عنوة، لم تنجح. طرفة ليس وسيماً لكنه جذاب جداً، والفتيات يحببن مجالسته والاستماع إليه، يَنظم لسانه كلاماً ساحراً، حكاياته الكثيرة وتجاربه الثريّة تجعلهن يهتممن لأمره، لا تخلو مجالسته من شقاوة لطيفة، يلكزهن، يتلمّس

رغباتهن، لكنه خلا إلى نفسه بعدئذ وقرر أن يتوقف عن أية ألاعيب عابرة. ارتمى عند أمه صابرين فترة الظهيرة بعد عودته من عمله، كانت تجلس بالقرب من المطبخ وفي حجرها مولودة جديدة سمّوها ريم: "ربما كنتُ مخطئاً حين رفضتُ الزواج من بدرية". دون أن تنظر إليه، رفعت أمه وجهها إلى السماء: "سبحانك يا الله". خفضت رأسها: "البارحة كانت عندي امرأة من جماعتنا، معها ابنتها وداد، لا إله إلّا الله، جمال وأدب، حسبتها لك". فكّر طرفة قليلاً: "وداد".

بعد مدة قصيرة، كانت العائلتان قد اتفقتا على موعد الزفاف.

***

كان زواجاً عادياً، لم يكن زفاف طرفة.

لكنه بدا سعيداً يومها، مثل أيّ شاب في القرية يقيم حفل زفاف، الأمر المختلف يكمن في أعداد المهنئين غير المعتاد، أتوا إليه من كل مكان، الجيران، أصدقاء المعهد، أعضاء ملتقى الكوخ الثقافي، زملاء العمل، ضيوف منزله من الأحزاب المعارضة، المكانة الشعبية التي يحظى بها كانت محلَّ حسد من أقرانه؛ بدا أسامة مرتاحاً مبتسماً طوال الوقت، حين يصافحه الضيف يقترب منه، يتحدث في أذنه، يتعرف إليه، فتجده أحياناً يهمّ بمعانقته، أو يطيل الكلام معه؛ يُجلس أخاه عبد المحسن في صدارة المكان، طرفة مرتدياً البشت يقف بينهما، أول مرة أراه بالزيّ الشعبي، كان منظره غريباً وجديداً عليّ.

ثم غاب مثلما يغيب المتزوجون.

وداد فتاة مؤدبة تحاول أن تقوم بواجبها تجاه طرفة، شعَر بأنها تمارس أدواراً أُمليَت عليها، تركها في البدء تفعل ما يحلو لها، ارتأى أن يُطلعها على حياته خطوة فخطوة، يُعرّفها إلى شخصيته من خلال نشاطاته معها داخل وخارج البيت، بيد أن صدْمته كانت حين عَلم أنها أميّة، لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ورغم شعوره بالخيبة تمنّعَ عن إظهار أيّ ردة فعل قد تجرحها. كان مسحوراً بحيائها الأنثوي الآسر، ولونها الحنطي، وملامحها الهادئة، ورقبتها

البارزة، واهتمامها الكبير به الذي أودى إلى تجاوز تامّ عن أية أمور أخرى، بل عزا التقصير إلى نفسه، لأنه لم يسأل عن مستواها التعليمي لظنه أن هذا أمر أضحى من البديهيات.

راح يصحبها معه في رحلات طويلة وبعيدة، استعار سيارة من أحد معارفه، دفع مبلغاً نظير إبقائها معه أطول فترة ممكنة. جال مدن العراق كلّها، لم تكن الأخرى قد خرجت من قريتها منذ طفولتها، لم ترَ المدن ولا الأرياف الأخرى، كانت تغمره سعادة قلبية كلما شاهد دهشة الأطفال في عينيها، الأمر الذي يجعله يتحمّس لفعل المزيد، لكنها على نقيض من ذلك، شعرت بالصداع الشديد بعدما خرجت من السينما، حتى إنها لم تكد تفهم ما شاهدته، كانت طوال الفيلم تطرح أسئلة ساذجة وعفوية، وتفعل ذلك باستياء. طرفة لا يوصد الأبواب أبداً، رأى أنه استعجل في إقحامها هذا العالم المغاير الأخّاذ. قرر في يوم ماطر وعلى الدراجة البخارية زيارة الكوخ برفقة وداد، يعرف أنه لا نشاطات ولا زيارات آنذاك، كانت فرصة كي يقضيا وقتاً في تلك البقعة التي يحبّها، يستمتعان تحت زخات هادئة ناعمة، يصنعان الشاي على لهب أخشاب بريّة، اشتد المطر، واحتميا داخل الكوخ حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم ومض البرق على مرأى قريب منهما، وبقدر استمتاع طرفة كانت زوجته خائفة إثر الظُّلمة وهذه الناحية النائية، ومن الهزيم والأصوات العالية، بدت وداد كأنها مولودة قبل أشهر قليلة، لا تعرف من تجارب الحياة سوى الفروض المنزلية.

أشعل طرفة سيجارة وأخذ ينظر إلى زوجته المرعوبة، كانت المياه قد بدأت بالتسلل إلى داخل الكوخ، تفطّن إلى أن منطقتهم منخفضة قليلاً، فكّر في خوض مغامرة خطِرة، العودة إلى البيت أو اللجوء إلى مكان أكثر أماناً من هذا، على دراجة بخارية تحت مياه المطر التي تلفهما من كل جانب. صعدا الدراجة، وطلب من وداد أن تلفه بذراعيها، ألّا تفلته أبداً، دوّت الريح في أذنيه، رمى سيجارته ومضى يشق الطرقات الوعرة الزلقة، يتجنب بقعاً طينية ممتلئة بالماء. كان مصباح الدراجة بالكاد يضيء مترين أمامهما، ودّ أن يخبرها في خضمّ هذا أنهما حتماً سيتعرّضان لنزلة برد إثر هطل المطر وهبّات الهواء الآتية الناتجة عن سرعة الدراجة. كانت الأخرى تصرخ مع كل مطبّ وكلما

شَعرَت بأن المقود بدا يخفق في يد زوجها، أحياناً تثقل حركة الدراجة، وأحياناً أخرى تدعس غصن شجرة يجعل العجلة تُصدر صوت احتكاك شديد، يتطاير الطين ملوّثاً ثوبيهما. في لحظة أدار طرفة لسانه في فمه فاستطعم بعض التبغ الذي تسلل إليه، رجا أن ينجو من هذه الورطة ويشعل أخرى يدخنها في البيت. كان يتطلع إلى بلوغ الطريق الأسفلتي الممهد. لا طمأنينة قريبة تحت قصف الرعد الذي يهزّ بدن وداد كلّ مرة.

٩

مايو، عام ٢٠١٠

”أدركتُ، والتراب يسجّي أمي“.

كانت قفلة قصة عنوانها ”المحفة“ تتحدث عن لحظة الموت، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بعنصر الورشة، التراب، كنتُ محتفياً بها حين ناولتها الدكتور عبد الغني عصفور الذي صغّر عينيه ونظر إليها نحو دقيقتين: ”مناسبة جداً“ دون أن يبدي أية آراء فنية، فكانت سبباً لظهوري في جلسة الثلاثاء الختامية.

بدت ليلة مثالية. أول مواجهة مباشرة مع حضور نوعيّ من الساردين والشعراء والنقاد، لكنني لم أشعر بالرهبة وقتها، كانت مشاعر الاعتداد والثقة جليّة، ولا أعرف من أين جئت بها. التقطتُ صورة مع طرفة يومذاك، ما زلت أحتفظ بها، كنتُ أرتدي قميصاً أبيض ومن تحته بلوزة سوداء، شعري بدا كثّاً طويلاً بشكل ملحوظ، الأجواء محفوفة بالفرح، مثل لحظة تعميد للدخول في نادي الكتّاب المحترفين، تهنئة بالنص الصغير الذي لم يتجاوز أكثر من ثلثي صفحة، وحظيَ بقبول الحضور.

***

في الموسم التالي، انتقل ملتقى الثلاثاء من مجمع غاليريا إلى الجمعية النسائية الثقافية، غالباً بسبب أزمة مالية أو إدارية ألمّت بمالك المكان، الأمر الذي جعل المجموعة تتجه إلى جمعيات النفع العام وتحصّلت مقابل ذلك على ثلاثاء آخر في التوقيت نفسه.

تحدّث إليّ طرفة، بخصوص ندوة، وفق الموسم الجديد، متعلقة بتحديات الكاتب الشاب، وبمشاركة عبد العزيز سالم الذي فاز أخيراً بالجائزة المحلية. كانت تجربتنا المتواضعة الأكثر جدّية آنذاك، حسب وصفهم. قبلتُ على مضض،

تخوّفت هذه المرة بصراحة، فكرتُ كثيراً في الورقة التي سأقرؤها على الحضور، استغرَقَت منّي أياماً دون أن أخطّ حرفاً واحداً، كان الأرق قد قضى على الليالي بطولها دون جدوى، وكنتُ أتساءل عن الموضوع الذي سأثيره لمناقشة الجمهور، ما الذي سأقوله في قاعة فسيحة تستوعب أفراداً أكثر من ذي قبل، والصحافة التي باتت تغطي كل الجلسات بانتظام وتُخصّص لها مساحات جيدة في صفحاتها. ماذا أكتب؟ هذا السؤال العظيم الذي التوت أيامي حوله، يحاصر أحدنا الآخر، أبارزه بسلاح رديء، يهزمني، يحطّمني، أشدّ عليّ، أحدّث نفسي: "ركّز".

في العمل، سمعت أحد الزملاء يتحدّث إلى آخر عن التزامه صباح كل جمعة برحلة صيد بحرية، قلت له بعدما انفردت به: "خذني معك". ردّ: "نخرج قبل شروق الشمس" قالها بقصد لفت انتباهي إلى ضرورة التضحية بساعات النوم الطويلة الخاصة بأيام الإجازة حتى ألتحق بهم، "وليكن". أنا بحاجة إلى مكان هادئ بعيد عن ضجيج المدينة، يمنح للبصر صورة صافية نظيفة وللذهن المساحة الكافية للتأمّل. جرّبت صيد السمك مرّة أو اثنتين في سنّ صغيرة، تجربة جديرة بتكرارها أو تعلمها، لكنني لم أكن أنوي فعل ذلك. كان القصد أن أحصل على هذه الفرصة، الانفراد في مكان وتوقيت قد ينتج عنهما شيء ما، الزميل شخص لطيف صحبته ممتعة، يصطحب معه ابنه، فتى في عمر المراهقة انضم إلينا ذات مرّة في مباراة كرة قدم. عزمتُ على الأمر وفي رأسي الندوة، المنصّة التي سأواجه بها الناس تحت عنوان "التحدّيات...". في الليلة التي سبقت الرحلة، وسط عتمة الغرفة، تطلّ نخلة على شبّاك غرفتي، ظلال سعفها تتسلل إلى الحائط الذي يقابل سريري، كانت هناك نقطة شديدة الزرقة نهاية ظلّ جريد النخلة، تتحرّك على الحائط، بتوافق مع اهتزاز ظلها إذا هبّ الهواء في الخارج، لاحظت هذا حين فتحت عينيّ في وقت من الفجر لم أستطع تحديده، نقطة زرقاء مجهولة المصدر، ربما كنت أحلم، لا أدري، لكن المشهد جليّ في رأسي، أتذكره جيّداً. لمّا رنّ جرس المنبّه، شعرت بأني نشيط كفاية، يقظ جداً رغم أنني لم أنم أكثر من أربع ساعات.

اتصلت بزميلي: "ظننتك ستخلّ بموعدنا". قلت: "لم تخطئ، سأعتذر، لن أنضمّ إليكم هذا اليوم". كان شيء ما قد صبّ الكلمات في رأسي، كتبتُ قصة على نحو متواصل، لم أتوقف حتى أنهيتها، كان هذا فعلاً جديداً عليّ، لم أعهد نفسي بهذه القدرة، لا أدري لماذا كنت شديد التركيز حينها، ولا أظنّ أن تلك الحالة تكرّرت في وقت آخر. كان النصّ يتمحور حول الحالة التي أعيشها، وحول السؤال الذي أعدت طرحه عشرات، بل مئات المرات، ماذا أكتب؟ ماذا أقول؟ حوار بين اثنين في مقهى أحدهما في حاجة إلى مرشد يهديه إلى سبيل يعبّر به عن همومه على منبر عام، تماماً مثل مشكلتي، الآخر يجد المسألة متعلقة بالحضور، الشكل الخارجي للمتحدث أكثر من مضمون الحديث، والقيام ببعض السلوكيات الغريبة التي قد تؤذي عاطفته لأنها ستنعكس بالضرورة على شكله الخارجي، وهكذا تقضي الحكاية أمرها.

***

على الفور، اتصلت بطرفة بعدما أعدت قراءتها أكثر من مرة، توقعت أنه لا يذهب إلى مكتبه صبيحة الجمعة، لكنه يفاجئني كل مرة: "حيّاك". بعد نصف ساعة تقريباً كنت أجلس أمامه، أقرأ له القصّة التي لم أختر لها عنواناً بعد. كان ينصت باهتمام كعادته لكنني لمحت طيف ابتسامة في محيّاه، كان يصحّح بعض هَنات القراءة ويشير إلى ضرورة إلقائها بطريقة معيّنة، عندما يتحدّث تظهر الجديّة في عينيه، نظراته حين يشرد قليلاً كي يستدعي فكرة، انعكاس ضوء الشمس الآتي من النافذة الملاصقة لمكتبه، تقاطيع ملامحه الخاصّة، ألاحظه يحاول التقاط خيط تائه بين خصلات شعره، يَفترض أنه تمكن من العثور عليه، يفرد كفّه على مسافة قريبة فوق الطاولة كي يتأكد من ذلك، يكرّر الفعل بين حين وآخر دون نتيجة. عندما أنهيت القراءة، حرّك حاجبيه، وأخذ نفساً عميقاً: "بديعة".

***

طرفة ذاته من سيتولى مسألة تقديم أمسيتنا، لكنني فوجئت يومها بأن الصحافة نشرت موضوع ملتقى الثلاثاء لهذا الأسبوع بعنوان: "آليات الكتابة السردية في التجارب الشبابية". ذُعرت من ذلك، أو ربما من توقعات الحضور حيال ما سيستمعون إليه. كان طرفة قد اقترح عليّ أن نطلق على القصة عنوان "المنبر" وقد أعجبني ذلك. أنا وعبد العزيز سالم أول الحضور تقريباً، على غير العادة، يأتي المعنيّون بالندوة في وقت متأخر، أتذكر أنَّ أحدهم علّق على ذلك: "هذا ينمّ عن تواضع جيّد"، ليست بداخلنا رغبة في توجيه الأضواء إلينا، ربما كان صادقاً، الحقيقة أننا مترددان، عبد العزيز سالم أفصح لي عن ذلك، أعدّ ورقة سرد فيها شهادة ذاتية حول الكتابة، استوعبتُ آنذاك أن ثمّة خطأً ما وقعتُ فيه، عدم تنسيق المسألة سيظهرنا على المنصّة بشكل فوضوي، واحدنا يقرأ قصة والآخر تجربته الخاصة، التمست هذا من ردة فعله حين أخبرته بذلك، ازداد توترنا حينها، الواقع أن النص الذي كتبته لم يكن سوى هروب من موقف سيكون غاية في الإحراج عندما تخيلته، وكأني أبدأ مشوار الكتابة بالتذمّر. على كل حال، نحن أمام أمر واقع، المُلاحظ آنذاك أن كلينا يحمل وجهة نظر مختلفة، في فحوى قصة المنبر أو خلاصة الشهادة، حتى إجاباتنا على مداخلات الحضور، تباين الآراء ربما أعطى للندوة زهوها، مداخلات طرفة كعادتها وجيزة مكثفة، كلماته مثل ومضات تسقط على فكرة هنا وهناك، توقف قليلاً عند التجربة الروائية لدى عبد العزيز سالم، لكونها فازت بجائزة وحديثة النشر، بينما كنتُ شخصياً غير مقتنع كفاية بتجربتي الأولى – الكواكب السفلى – وطرفة يعرف ذلك خصوصاً بعد الكتابات الجديدة الناتجة عن عمل الورشة. انتهت الأمسية على نحو جيّد، ربما أفضل ممّا رجوناه نحن الاثنين.

***

كتبتُ عشرين قصة، في أقلّ من سنة.

كانت الأفكار تتدفق بغزارة، حضّرتها من مخزون تمردات المراهقة، سواء كان هذا بالتأمل أو الفعل، كل الآراء التي خشيت التصريح بها، كل السلوكيات

التي مارستها بالسرّ، حوّلتها إلى قصص، واحدة تلد الأخرى، ومكتوبة بشكل مختلف تماماً عن تجربتي الأولى.

كنتُ أتطلع، على نحو مفرط، إلى إثارة إعجاب القارئ النوعي، وهذا اعتراف خانع أدلي به الآن بكل صراحة، ربما نجحت قليلاً، لأن طرفة أشار إلى ضرورة جمعها ونشرها كمجموعة قصصية ثانية، لكنني كنتُ أشك في جدوى فعل ذلك: "تعتقد أنها جيدة كفاية؟". نظر إليّ طرفة بعتب مضمّناً ذلك في ردّ وجيز: "أنا لا أجاملك" يخرج سيجارة من علبة مخبأة في درج مكتبه، يمرر لسانه على لفيفتها قبل أن يشعلها: "راهنت على عشرات قبلك، خيّبوا الظنّ". صوت دائرة القداحة، تلتفّ مرتين، تك.. تك، يخرج صوته ممقوتاً بعد أن ينفث دخانه: "لا تفعل ذلك".

لست متأكداً إن كنت سأفعل كما الآخرون، أنا في حالة شك مستمرة، لكنني جهدت وقتها في إعادة ترتيبها ومراجعتها وتحرير بعض أجزائها، كذلك عدّلت بعض عناوينها، وأرسلتها إلى بعض الأصدقاء للاطلاع عليها، أحدهم كان عبد العزيز سالم الذي أعجب ببعض العبارات التي حددها بقلم رصاص وأطلعني عليها في واحد من لقاءاتنا الخاصة، أما طرفة فقد اتصل باكراً صباح السبت المعتاد، كي يؤكد أو يتأكد من مجيئي، رغبة ملحّة منه ليحادثني في موضوع ما. حين دخلت مكتبه وجدته يقرأ من المجموعة في شكلها النهائي، وضع نظارته على رزمة الأوراق لحظة اقترابي منه بغية المصافحة، لمحتُ الصفحة بشكل خاطف، حين دنوت لأقبل رأسه، عرفت أنه يطالع قصة "حضور الغائب". سألته فور أن جلست: "ما رأيك؟". حرّك رأسه جهة ما ورفع حاجبيه: "ما زالت جميلة".

***

نُشرت المجموعة، وسمّيتها "المنبر" تيمّناً بالقصة التي قدّمتني إلى القارئ الذي كنت أغازله آنذاك. كان غلافها أبيض تتوسطه ثلاثة ألوان، أحمر وأصفر وبرتقالي، متداخلة تخلق رسم منصة خطابة، حجمها أقل من مئة ببضع صفحات. أقمت أول حفل توقيع في معرض الكتاب الموالي، كان طرفة

يوصي أصدقاءه بضرورة قراءة مجموعتي الجديدة. قال لي أحد الروائيين المعروفين آنذاك: "فقدتُ إيماني بالتجارب الشبابية، لكنني سأقرأ بسبب التوصية". لم أنزعج أبداً، لقد حصلت على تزكية عظيمة ظننت أنها ستعطي توقعات أفضل ومقروئية أكبر، ربما تفاعَل البعض وتحمّس أحدهم حين كتب في إحدى صفحات الإنترنت: "هذه بداية حقيقية لكاتب يُدعى إسماعيل". كنتُ مسروراً بتلك التشجيعات الصغيرة لكنني شعرتُ بأن العمل يستحق اهتماماً أفضل. طرفة استشعر ذلك، وأبدى شكلاً من أشكال الدعم حين حرّض "بيت الثقافة" وهو ملتقى أدبي آخر يديره روائي معروف، على استضافتي في أمسية معنيّة بمناقشة المجموعة ذاتها – المنبر – وكنتُ قد قرأت ورقة تحوي شهادة خاصة بسيرتي الناشئة.

تبدّت مشاعر الخيبة في كلماتي آنذاك، كان تذمّراً متستراً باللامبالاة، رغم حفاوة الحضور وتعليقاتهم الإيجابية، ربما تلك الأمسية أعطت المجموعة فرصة جيدة ليقرأها الآخرون، ويخرجوا بآراء جيّدة أفصحوا عنها ليلتها، لكن طرفة ألقى بتركيزه نحو الإحباط الذي أحاط بي، التقط تلك اللحظة، وعلق عليها: "الكتابة الجيّدة تُقرأ بعد عشر سنوات على الأقل".

بعد حين، شعرتُ كأنه يتحدّث عن نفسه!

١٠

”أحدهم استغلّ المكان في غيابنا“.

لم أكن أعرف أن طرفة وزوجته قضيا ليلة الأمطار الجارفة في الكوخ، توصّلتُ إلى ذلك من ركام أخشاب أُشعلت بالقرب، وجدتها حين ذهبنا نعاين أضرارنا إثر غرق المنطقة، لم يعلق طرفة على ملاحظتي. كان اهتمامه منكبّاً نحو المكتبة في الداخل.

زحْف المياه أتلف مجموعة بسيطة من الكتب في الرفوف السفلية، استطعنا معالجتها في ما بعد. ربما كانت تلك الحادثة سبباً في عودة طرفة إلى ممارسة نشاطه الثقافي من جديد، عدا اللقاءات التي كانت تنعقد في منزله، انقطَعَت تقريباً بسبب وضعه الاجتماعي الحالي، وانتقلتْ إلى مقهى هاتف القريب من إقامته في البصرة.

حبلت وداد بعد ستة شهور تقريباً من زفافهما. يبدو أن طرفة لم يكن يخطط لأن تنجب زوجته في هذه السنّ، ربما يُعَدّ ذلك سبباً إضافياً جَعله يلتفت إلى حياته الخاصة، كان هناك شيء مرتبك في أمره، مواقفه حيال السلطة كانت محل شك؛ المبادئ الخاصة، والتوجه الأدبي كذلك، تلك فترة انتقال أو اختلاط الشِّعر والقصة. يُقَسّم وقته ما بين الكتابة في المقهى، والقراءة في الكوخ، يستغرق معظم يومه خارج المنزل. وفي يوم عاد إلى السيبة برفقة زوجته التي كانت في شهرها السابع، أودعها في بيت عائلتها كي تقضي بضعة أيام، وأخذني معه إلى البصرة نسهر مع أصدقائه، تأخر بنا الوقت فأقمت عنده ليلتين، أطلعني حينها على مجموعة كبيرة من القصائد التي يخبّئها لنفسه، لو أفرزها لخلق منها عدة دواوين شعرية.

أحسستُ أنه يعيش حالة فوضى، إذا ما انشغلتُ عنه دقائق، أجده شارداً منفصلاً عمّا حوله، عندما أسأله ليفضي لي بما يشغله، يهز رأسه: ”لا تقلق“. أو يلتفت نحو صوب آخر: ”لا شيء يستحق البوح“. لم أرد إجباره على فعل لا يودّه، سيفصح عاجلاً أو آجلاً، لكنه لم يفعل أبداً. واصل حياة اللامبالاة والسهر،

أحياناً يتغيّب عن عمله دون مبرّر. تعليم أطفال في عمر الابتدائية، مرحلة حسّاسة وخطرة. إضافة إلى ضرورة متابعة معلم الفصل المتواصلة لطلابه، كان طرفة يعلمهم بطريقته الخاصة، يضيف على المناهج التعليمية دروساً من رأسه، قصصاً يكتبها بنفسه وأخرى مستمدة من ألف ليلة وليلة. تواصَلَ هذا حتى أنجبت وداد طفلاً ذكراً سمّاه إسماعيل. تعجبتُ لهذا الاختيار، سألته عن سبب ذلك، ابتسم وهو يخرج كبريتاً من جيبه، يقلّب علبة سجائره، يرجّها بخفة كي تلفظ واحدة من فوهتها: "هذه تحيّتي لصداقتنا".

الحقيقة، طرفة لم يسمِّ طفله تيمّناً بي، لقد عَرَضه على زوجته اعتقاداً منه بأنها سترفض، لكونه اسماً قديماً غير ذائع في أيامنا هذه، وليس في العائلتين اسم شبيه، لكنها لم تمانع، ولم تبد رأياً في ذلك مطلقاً، وهذا أزعجه، يودّ أن تشاركه القرارات، ولأنها لم تفعل عمل هو بخلاف رغبته، أو هكذا يظن، وأقرّ الاسم، حتى إن والده أسامة عندما علم بالأمر عقد حاجبيه: "إسماعيل!" ثم أخذ يفكر قليلاً قبل أن يقول: "من هو إسماعيل؟".

***

انتظم طرفة مع نفسه، حضور طفل في حياته أغدق عليه أثراً إيجابياً. عندما حمَله أول مرة، بعد ولادته بدقائق ربما، أمعن النظر فيه، وأنصت إلى صياحه، وشعر بدفء جسده، وتأمّل سلوك الرضيع ومحاولاته لفهم ما حوله، حين يصمت فجأة بغية التركيز في صوت أو رائحة أو ملمس، أو هكذا يبدو.

طرفة كائن متأمّل إلى حدّ كبير. وكَتَب قصة أو قصيدة عن هذا الموضوع، حتى إن البعض استنكر عليه مبالغته هذه: "كل النساء يحبلن ويلدن، إلّا طرفة يظن أن زوجته وحدها فعلت ذلك". لكنه بعد فترة قصيرة عاد إلى طبيعته، منذ اقترانه بوداد ما عاد يداوم على مشاهدة الأفلام في السينما، عاد الآن واستأنفه بشكل شبه يومي، إضافة إلى استمرار مزاولته الكتابة، القراءة، السياسة، والحديث عن كل ذلك بحماسة وتوق.

***

”إن شعب الكويت ما زال يئنّ من الفقر والجوع، لا يصله الماء العذب ومعظمهم حفاة عراة“.

دهم طرفة إحساسٌ عارم بالخيبة، وبدأ يعضّ على أسنانه، ويقبض على ذراعي كرسيّه بشدة في مقهى هاتف، أثناء عرض المؤتمر الصحافي للرئيس عبد الكريم قاسم. كان ذلك بعد خمسة أيام تقريباً من إعلان إلغاء اتفاقية الحماية البريطانية مع الكويت، وحصولها على الاستقلال الكامل.

همس أحدهم: ”لم يكتف بالتخلي عن العروبة، يريد الاعتداء عليها“. التفت طرفة ناحيته، وقال بصوت عالٍ: ”ليس أفضل من غازي“. كان يشير إلى الملك الذي سبق فيصل الثاني، إذ نادى كذلك بضم الكويت إلى العراق. ردة فعله أثارت استياء البعض الآخر من رواد المقهى: ”هذا يريد أن يستعيد أراضينا التي نُهبت بفعل الإمبريالية والاستعمار“. لم يردّ طرفة حتى بعد إضافة آخر: ”اقرأ التاريخ...“. غاب عن الأصدقاء أن صاحبنا كويتي الأصل. وضعتُ يدي على كتفه، همّ الآخر بالنهوض وغادر المكان.

بلغه إحساس بالغبن والضيق لازمه أياماً، حرص وقتها على ألا يتحدث في الأمر أو يلتقي بالآخرين لفترة حتى تهدأ الأخبار. عوّض ذلك بالكتابة والانشغال الثقافي بغية الابتعاد عن الأجواء السياسية المشحونة، أو الانخراط في نقاش سيؤدي حتماً إلى عراك، لم يكن موقفه كأقرانه. السلطة تعمل من جهة على الاعتناء بالداخل، واتخاذ سلوك مغاير مناقض في الخارج، نشط كثيراً آنذاك في كتابة القصة. بعد أسبوع ذهب إلى المقهى وأخذ يحوّل شكل اللقاء الأسبوعي إلى ملتقى أدبي، يعرض عليهم نصاً جديداً كي يأخذ حصته من التعليق والنقد والتشريح، تماماً مثل ورشة. فكّر طرفة أن يعمل هذا لأكثر من سبب، أولاً لنفسه، ثانياً ليحفّز أصدقاءه، ثالثاً لمعاودة النشاط والإنتاج. لقي تجاوباً جيداً. كانت مواضيعه متعلقة غالباً بالمسائل الاجتماعية، والنفسية، لكنها مختلفة وفريدة. تخلَّص من روح الشاعر في الكتابة السردية، أصبح بالإمكان رصد رأس القصة من ذيلها، وأضفى عليها كذلك عنصري التشويق والترقب. أتذكر واحدة من القصص تحكي عن رجل استيقظ من غيبوبته فوجد نفسه مقيّداً ومرميّاً في مكان، يتذكر بعد مضيّ وقت أنه كان يعمل على ظهر قاربه

في بحيرة قريبة من بيته، ثم جاء إليه شخص في ظلمة الثامنة مساءً طلب منه أن ينقله إلى الضفة الأخرى، عندما اقترب ظَهر أعوانه من مكان ما، استولوا على مركبه بعدما ضربوه وأوثقوا ذراعيه وساقيه خلف ظهره وأسقطوه على بطنه قرب الضفة. يتلوّى الرجل على الأرض الطينية، ويتداعى إليه كل ما يتعلق بحياته، زوجته، طفله، وظيفته، يحاول أن يصرخ من مكانه يطلب النجدة، لا أحد يسمعه، حتى عندما تناهى له صوت زورق الجمارك الذي يقوم بدوريته المنتظمة في مكان قريب، لم ينتبه إليه أحد، وكلما حاول التحرر، التحرك وتغيير وضعيته، أن ينقلب على ظهره، يجد نفسه ينزلق أكثر في الماء، ينسحب إلى الداخل، حتى غرق ومات.

شعرتُ آنذاك، على نحو واضح، أنه يقصد نفسه.

***

يقول طرفة: "وكأن لم يعد أحد يمارس الكتابة غيري".

بصيغة اعتراض أو حنق، وبعد توالي الأسابيع، كان لا يزال يحضّر النصوص الجديدة وحده، وينصت إليه الآخرون دون مشاركة فاعلة سوى في التعليقات والنقد. تخلي الأصدقاء عن فعل الكتابة يجعله يتخذ منهم موقفاً جدياً، إما يتخفف من بعضهم وإما يلجأ إلى عزلة قسرية، وقد تعمّد الاختفاء لأسبوعين تقريباً أو أكثر بقليل قبل أن يأتي وبيده قصاصة من مجلة الرائد الكويتية التي نشرت أول قصة له بعنوان "المرأة التي أصبحت حائطاً". تلقّى تهاني الأصدقاء وعتب البعض الآخر لغيابه، ولو كنتُ أرى في اختياره مكان نشر قصّته مقصداً مباشراً لكنني كما الآخرون تجاهلتُ الحديث في هذا الشأن.

بعضهم يتحاشى الصدام مع طرفة، رغم ضآلة جسده يملك حججاً صلبة وبأساً شديداً، لكنه بدا آنذاك يحاول المحافظة على هدوئه والابتعاد عمّا قد يعكر صفاء تركيزه. كان قد تحوّل نشاطه بالكامل إلى الكوخ، ولاحظتُ مدى انكبابه على كتابات سردية طويلة، حتى واتتنا أخبار اعتقاله من قِبل رجال الاستخبارات، في يوم هادئ لم تكن فيه أية نشاطات سياسية أو ما يلفت الانتباه، سواء من طرفة نفسه أو الجماعات المعارضة من أصحابه. لم يكن

أحدنا قد فهم سبب مداهمة بيته واقتياده مكبلاً إلى الخارج على مرأى من زوجته والجيران. كان أحدهم يركله بقوة ويصرخ به: "نُزل ويدبْج عالسطح!".

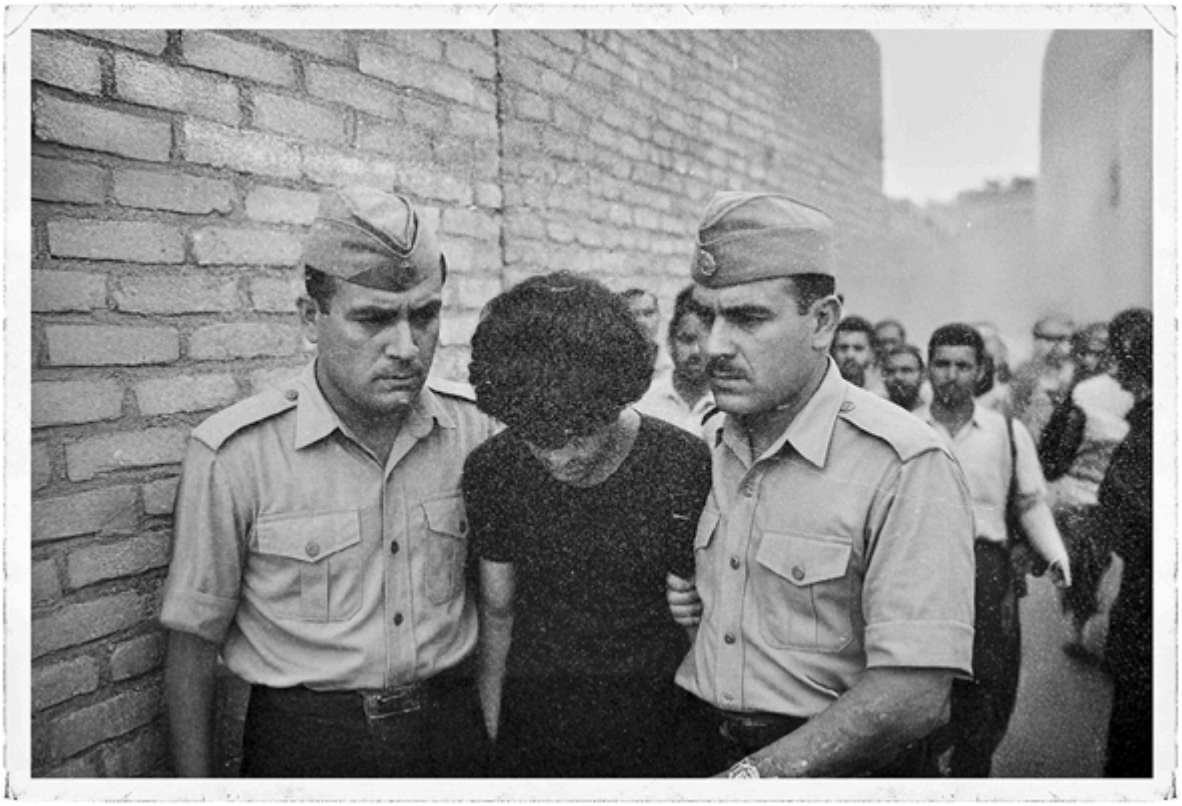

***

وردتنا الأنباء لاحقاً. طرفة نشر قصيدة هجاء ضد الرئيس عبد الكريم قاسم في جريدة لبنانية تدعى الحضارة، وذيّلها باسم أسامة فقط، في محاولة منه للتخفي عن مطاردة أو اعتقال محتمل، لكن رجال الاستخبارات استطاعوا معرفة الهوية الحقيقية لكاتبها بعد تحقيقات مكنتهم من تتبّع مصدر مرسل البريد من العراق إلى لبنان.

اختفى طرفة دون أثر، لم تنفع تدخلات وسطاء سعى إليهم والده أو بعض الأصدقاء، حتى خاله لم يكن يملك القدرة على فعل شيء، ليست لديه أية أخبار سوى معلومة وحيدة يأتي بها بين الحين والآخر تشي بأنه ما زال على قيد الحياة. حين بلغ اليأس أسامة، اختفى هو الآخر كلياً، لم يعد يجلس في الخارج بانتظام قبيل غروب الشمس، أحياناً أراه قرب ضفة النهر يتناول أقداح

الشاي بتعاقب، يدخن سيجارة وينصت إلى الأصوات من حوله. شعر بإنهاك شديد، كان أصعب ما عليه التذلل إلى الآخرين بغية الحصول على مساعدة ما. يقال إن أزمة قلبية دهمته ذات ليلة، نُقل على إثرها إلى المستشفى وبقي هناك عدة أيام. شخصياً لم أشهد ذلك لكن بعد أربعة شهور تقريباً من وقت اختفاء ابنه، رأيته يخرج برفقة ابنته سميرة وزوجها الذي كان يسنده ويسيران معه في القرية. لم يكن أيّ منهم يعرفني، لم أتحدث أو ألقِ التحية، راقبتهم بصمت وتفرّستُ في ملامح أسامة التي بدت عليها الشيخوخة وكأنه قد بلغ التسعين. أما صابرين فكان وجعها مضاعفاً، امرأة تعرّض ابنها للاعتقال وهي في شهرها السابع، لا تملك حيلة من أمرها سوى بكاء متواصل، واتصالات يومية مع أخيها ضابط الجيش. أهملت نفسها تماماً، لا غذاء ولا نوم أو راحة حتى وضعت مولودها التاسع. كانت هي من أطلقت عليه اسم مطر، رجاءً خالصاً منها أن يأتي الطفل إلى الدنيا ومعه الخير.

***

مضت ستة شهور حتى ظهر طرفة من جديد.

دهشة البعض أثارت تساؤلات وأحاديث "أبو سبعة أرواح!". كان ظنهم أن الفتى انتهى. ورغم احتفاء الأسرة بعودته، والديه، زوجته وإخوته، وأيضاً الأصدقاء الذين أقاموا وليمة على سلامته، فضّل عزلة أخرى تخلّصه من أكداس الضغينة والكراهية التي تغذى عليها طوال الفترة الماضية. في العادة، يكسر طرفة حدة المصائب بالحكايات، يستخلص المواقف المضحكة أو الغريبة وينقلها إلى المقربين منه، يمارس صنعته الأصيلة بغية التخفف من بعض أثقاله، لكنه هذه المرة لزم صمتاً مريباً. وفي إحدى المرات النادرة التي شوهد فيها خارج منزله، كان يجلس على سور خرساني مجاور لضفة نهر، تقدم نحوه أحدهم وصوّت منادياً: "طرفـ..." لكنه هوى إلى الماء مثل شخص مغمى عليه، متزامناً مع نداء الآخر الذي شعر بالذعر فأخذ يحث الناس القريبين منه لنجدته. قفز البعض وراحوا يبحثون عنه في القعر، لم يكن النهر

عميقاً إلى درجة اختفاء رجل بالغ دون أثر، ودون جدوى، حتى بعد انضمام عدة رجال آخرين استغرقوا في البحث عنه مدة طويلة.

روى طرفة هذه الحادثة بنفسه: "شعرتُ في لحظة، بأن سقوطاً غير مؤهل لمواجهة ارتطام في الماء قد يوقظني من حالة الشرود ومشاعر الغبن التي استحوذت عليّ بالكامل، ولمّا سمعتُ صياح الناس في الخارج واتتني رغبة البقاء في الأسفل، والعوم إلى الضفة الأخرى، مفرغاً الهواء من رئتيّ ببطء شديد حتى أبقى تحت الماء أطول فترة ممكنة". شاع خبر غرقه أو انتحاره، لكنه ظهر مجدداً في مقهى هاتف مساء اليوم التالي "أبو ثمانية أرواح!".

***

لم يعد وضْع طرفة كما هو قبل اعتقاله، بالنسبة إليه فقد تجاوز الأمر أسرع ممّا حدث في السابق – فترة الدراسة الجامعية – لكن هذه المرة لم تكن فعلته بطولية. السلطة العراقية تحظى بتأييد من فئة كبيرة، معارضتها تنتج عنها بالضرورة ردة فعل مدافعة، والدفاع في حالة كهذه يتحول إلى هجوم. قصيدة هجاء تتضمّن إهانة وإساءة للرمز الوطني الأبرز، القائد الذي خلّص البلاد من براثن الاستعمار الغربي "كيف يدّعي استمزاج الفكر الشيوعي؟" عانى آنذاك من مضايقات متواصلة، كان يلجأ إلى الكوخ غالباً قبل أن تقوم جهة أمنية بإغلاقه وتسويته مع الأرض بكل ما يحتويه من كتب وممتلكات. كان صاحبنا مُراقباً وملاحقاً من قبل الدولة، لم يعد شخصاً عاديّاً مثل البقيّة. ذهبنا بعد حين – أنا وهو – وجمعنا آثار الكتب التالفة الباقية في أرضنا، وانضم إلينا ابن الجيران الذي غاب منذ زواج أخته. لم يعد لدى طرفة ملاذ سوى مقهى هاتف الذي أصرّ على الجلوس فيه يومياً رغم هجوم البعض وإزعاجاتهم: "أنتَ لست منّا". كانت هذه الإشارات تُفهم على نحوين "أنت لا تنتمي إلى الحزب الذي نمثله، وأنت لست عراقياً بالأصل".

أحدث ذلك تمييزاً في نفس طرفة، رغم وجود مؤيديه من أصدقاء آخرين، فآثر التصرّف وفق بأس عنيد ينمّ عن إصرار في إثبات موقفه. تخلى عن ملابسه المعتادة، البنطال والقميص، الذي يرتديه كافة أقرانه، وظهر بين ليلة

وضحاها بالدشداشة والغترة التي يضعها على كتفه، كما يفعل أفراد عائلته الذين يزورونه من الكويت. يجول في البصرة بشكل اعتيادي، يذهب إلى عمله ويجلس في المقهى أطول فترة ممكنة، الأمر الذي منح الآخرين فرصة لاستفزازه "لا تتحدث مثلنا". في مواقف أخرى يغلق البعض فرصة النقاش في موضوع ما: "لا تتدخل في شؤوننا". ربما غليان الأجواء التي تحيط به جعله ينكبّ على كتاباته التي بدأها قبل الاعتقال، لعله وجد في ذلك مساحة لفهم ما يحدث معه ومِن حوله، لم يكن يُطلع أحداً على ما يكتب، ولا حتى أنا.

***

ربما كان طرفة مثل والده، كلما اشتد حزنه حبلت زوجته.

كل الأشياء من حوله تشغله، إلا شؤون بيته ووداد، الأمر الذي جعل الأخيرة تفكر في أن تعيده إلى دائرتها، أو تُسعده مثلما حدث مع طفلهما الأول، هكذا ظنّت. لقد تغيّر رَجُلها تغيّراً ملحوظاً، منذ اعتقاله حتى اللحظة. سلوكه، مزاجه، نفسيته، أفكاره وتطلعاته. تخللت فترة ما بعد الإفراج عنه اعتقالات أخرى صغيرة، استدعاءات إلى مراكز الشرطة، تحقيقات حول نشاطه الثقافي، غرض الكوخ ومحتوياته من كتب وأسئلة كثيرة جداً.

كان عائداً إلى منزله في وقت متأخر من الليل، استلقى على الفراش الذي تسكن زوجته في جانبه الآخر، متدثّرة بلحافها حتى أعلى رأسها. يبدأ طرفة نومته على ظهره، ينظر إلى السقف حتى تهدأ أفكاره ويغمض عينيه، أزاحت وداد غطاءها ببطء والتفّتْ جهته، نظر إليها في ظلمة الغرفة، شعر بأنها تزحزح جسدها مقتربة منه، أمعن فيها، حاول أن يتفوّه بكلمة قبل أن تنقلب فوقه وتطوّق وجهه بكفيها، نظرت في عينيه اللتين استقرّتا، وسألته بصوت رخيم: "تهتم لأمري؟". ارتباك الآخر نمَّ عن جواب حاضر: "طبعاً...". نظرت إليه بجدّية وحِدّة، عيناها شاخصتان به لم ترمشا: "دائماً صح؟". هزّ طرفة رأسه بإيجاب، إيماءته تحثّها لتقول التالي: "أنا حامل". توقُّعها أو رجاؤها أن تشاهد ابتسامة فرِحة تشعّ منه بإمكانها تمييزها في الظلمة، لم تصدر عن طرفة أيّ كلمة، بدا كأن مجموعة أفكار أخذته إلى مكان آخر خارج الغرفة، لم تخفِ

ملامحه وقع المفاجأة، لا يحق له الاعتراض أو إبداء أية آراء، قال لنفسه، ربما هي نائمة، ربما أضغاث أحلام، مدّ ذراعيه، واحدة أحاطت بظهرها وأخرى طوّقت رأسها، قرّبها إليه واحتضنها حتى غفوَا.

وداد لها تطلعاتها الخاصة، كانت ترغب في الزواج برجل يشبه والدها، جدّها، أخاها، عمّها، جارهم، أياً من الرجال الذين تعرفهم وتراهم في القرية. طرفة إنسان مختلف تماماً، أدركت بعد وقت قصير أنه لا يناسبها أبداً، لكنها حاولت أن تُجاريه، أن تتعلم القراءة والكتابة بعدما طفق يعلّمها بنفسه قبل معاودة انشغالاته المعروفة، وانكبابها في شؤون الأمومة مع إسماعيل الصغير. لم تسعَ لإنجاب طفل آخر، أتى بنفسه دون خطة، جاء من السماء لينقذهما، كان فرحها بقدر تخوّفها من تكرار الأحداث الأولى، اهتمام جامح مؤقت ثم يعود كل شيء إلى موضعه، أرادت أن تقول له: "أرجو أن تتخلى عن الممارسات التي قد تعرّضك لمشكلات، السجن، البُعد، الأذى، نحن بسطاء جداً وفي غنى عن كل هذا". هي تحب زوجها، في أعماقها تدرك مدى لطفه وطيبته لكنه لو يتخلى عن طموحاته المندفعة التي لا يُعرف إلى أيّ هاوية قد تقودهم في النهاية.

مضى على زواجهما قرابة ثلاث سنوات. ستة شهور أولى فقط، أشعرت وداد بوجود طرفة في حياتها، محاولاته لإيجاد أرضية أو لغة مشتركة تجمعهما، أفسدها، حسب رأيه، دخول طارئ يستوجب تعاملاً ومزاجاً وظروفاً مغايرة. لا يمكن توجيه أصابع الاتهام إلى أحدهما، صغر السن وقلة الخبرة، ربما انعدام وجود اتفاق على شكل الحياة قبل ارتباط أحدهما بالآخر. الأمر الجيد أن طرفة يعترف بتقصيره أمام وداد أو حين يفضي لي في مرّاته النادرة، لا يقدر على منع نفسه من التخلي عن الكتابة أو القراءة، شاغله الأكبر، استطاع بقدرة خيالية أن يقلل من حضور عروض الأفلام في قاعات السينما، كل التضحيات، أو الجهود القليلة التي يظنها تضحيات، غير كافية لاحتواء أسرة صغيرة مكونة من ثلاثة أفراد، ينتظرها دخول فرد رابع خلال أشهر معدودة، حتى مع محاولاته ادّعاء الاهتمام، افتعال ذلك كان يسعد شريكته غالباً، تنطلي عليها خدَعهُ الصغيرة لإسعادها، سوى حين يتداخل الأمران، الكتابة وأسرته، ينكشف أمره ويظهر على حقيقته.

***

علينا ألا نقسو على طرفة، إنه يواجه مرائر كثيرة.

الأمر الجدير بالمعاتبة، وقوفه في صدر المشاهد أمام فوهات المدافع، حتى بعدما أنجبت زوجته فتاة سمّتها رقيّة، لم يستكن أمره، لم يحدث حتى أدنى ما توقعته وداد، بقيَ بقربها يوم الولادة، اطمأنّ عليهما، هي والطفلة، وعاود حياته في يومه التالي كأن شيئاً لم يكن "أين تظنّنا نعيش؟" ودّت أن تقول له، بشيء من الحجّة، إنّ ما يفعله لن يجني أية نتائج سوى كوارث متوالية، شعورها بحلول مصيبة في أي لحظة يجعلها تشعر بعدم الاستقرار. الخوف والتوتر اللذان يرافقانها في مسكن بعيد نسبياً عن عائلتها، إضافة إلى غيابه خارج البيت، يفعل ذلك بداخله، تُغيّبه الأوراق وآثار مبراة أقلام الرصاص وبُرادتها ونثار المسّاحة، وكُتب في كل أركان البيت دون ترتيب. كانت زوجته تفضّل قضاء معظم أيام الأسبوع في بيت أهلها، بدأت تشعر بأنه كلما مرّ الوقت، ازداد فتور عاطفتهما، كان مشتتاً بين أمجاد شخصية وعائلية ووطنية، قالت له بعد استشارة المقربين منها، بعد محاولات وصبر بغية التأكد من قرارها، بكل جدّية وإصرار: "أنا أو الكتابة".

نعرف جميعاً خيار طرفة، حين تضع أي شيء في كفة مقابل الكتابة.

***

في ظهيرة يوم شتوي من شهر رمضان، ينزوي الناس في بيوتهم عقب صلاة الجمعة. الطقس معتدل، لا السماء تنذر بالمطر، ولا الرياح قادرة على إزاحة أوراق الشجر.

شوهدت دبابات وآليات عسكرية تسير باتجاه وزارة الدفاع، ترفع صوراً للقائد عبد الكريم قاسم، لكنها ما إن حطت في مواقعها، حتى ألقتها على الأرض، وتنامى عدد الجنود الذين طوّقوا المبنى بإحكام، وأرسلوا مطالبهم التي لا نعرف كيف وصلت إلى الجماعة في الداخل، ربما صرخ أحد الضباط، ربما استخدموا مكبّر صوت، كانت الغاية تسليم الرئيس دون الحاجة إلى

استخدام السلاح، لكن هذا لم يحدث. اشتبك الطرفان، مجموعة في الداخل تقاوم بفدائية، وأخرى في الخارج تهاجم بضراوة، وبطريقة ما، عُلم أن قاسم قد تسلل إلى قاعة الشعب الملحقة بالوزارة بغية النفاذ من الموقعة، ومن ذلك المكان، أُلقيَ القبض عليه وتمت السيطرة على معاونيه.

تداعى الناس يومها، ثورة، انقلاب، ترقب الجميع على حد سواء، الأخبار لم تكن على قدر من الدقة، كانت هناك نيّة للخروج في تظاهرة رافضة. يعرف الناس أن هناك خطباً ما بسبب انقطاع إرسال الإذاعة، التلفاز عادة لا يعمل في النهار، يبدأ البث في الفترة المسائية، الأقاويل كثيرة ومتلاطمة حتى صدر بيان السلطة الجديدة التي جاءت فيها أخبار محاكمة وإعدام قاسم ومن معه.

في اليوم التالي، نُشرت صورة الرئيس ميتاً في الصحف، كان طرفة ينظر إليه بأسى وغضب، ليست النهاية التي أرادها، ولا القصة التي يجب أن تُروى في دفاتر تاريخ البلد. أزاح الجريدة من أمامه بعدما طالع حيثيات الخبر بعجالة، كانت الآليات العسكرية منتشرة في الشوارع تكبّل مظاهر إثارة الفوضى أو أي ردة فعل محتملة، وربما أول مرة يشعر طرفة بأنه لا دافع يدفعه لاتخاذ موقف حازم من حدث عام، أو المشاركة الفاعلة في التعبير عن رأيه. أيّ شخص آخر قد يجد الظرف فرصة مواتية لإثبات وجهة نظره، إلا طرفة الذي سار بين الناس بزيّه المغاير، بغترته التي يسدلها على كتفه، يدخن سيجارته ويرصد موجات احتجاج تذهب وتجيء من حوله. سمع أحدهم يصرخ بسخط: "لا صوم، لا صلاة بعد الآن...". قد لا يدرك تماماً المعنى المبيّت من وراء جملة غير مرتبطة بالحالة الراهنة، لكنه يتفهّم الوقعة المفاجئة على الناس، يتذكر وقت دفاعه عن وجهة نظره التي تنمّ عن اعتراض مباشر حيال بعض تصرفات السلطة، يعترضه البعض باستخفاف أو استهزاء، لم يقل حتى الآن إن الزمن تكفل بالرد اللازم، لأن طرفة ذاته لم يبتغ هزيمتهم بهذا الشكل وهذه النهاية.

كانت أكثر من نهاية في غضون أيام قليلة، انفصاله عن زوجته بعد رفضه سؤالها: "أنا أو الكتابة". بقاء الولدين معها، اشتياقه لإسماعيل ورقيّة من حين لآخر. انفصاله في نظر الآخرين عن هويّته وانتمائه وأرضه "أنت لست منّا".

طرفة يجد نفسه مَلوماً دائماً حين يجالس نخلته، يشرب بقربها كأس شاي ويقضي على سيجارة تلو الأخرى.

***

بعد شهور قليلة، أوقف سيارة أجرة، فلمح امرأة في المقعد الخلفي برفقة طفلها، نظر إليها جيداً فأدرك أنها ابنة الجيران. جلس في الكرسي الأمامي، ولم يتحدث طوال الطريق، فكر لو يلتفت إليها لكنه خشيَ أن يتسبب بإحراجها، ربما لم تعد تحبّه بعدما جرى ما جرى، هي امرأة متزوجة وهو لم يعد كذلك. السائق يوصل الراكب الأول بطبيعة الحال، لكن طرفة قرر التخلي عن وجهته فور توقف السيارة، ونزل معها في مكان لم يقصده، دفع أجرته بعد ابنة الجيران، وما إن ترجّل حتى وجدها تقف متصلبة أمامه وفي ذراعها طفلها الذي لم يتجاوز عمره أكثر من عام، نظرت في عينيه. كان مرتبكاً متفاجئاً من فعلتها، بدت عيناها كأنهما تستعيدان ذكريات أحبّتها، قالت له: "شلونك؟".

كان شعوراً جديداً لم يعرف كيف يتعامل معه، وجد نفسه يسير بجوارها في شارع يعجّ بالمارة، أخذ يلاعب طفلها قليلاً: "لديه إخوة؟" بدا سؤاله غريباً على أذنيه، لم يفكر يوماً أن يطرح سؤالاً كهذا على حبيبته: "أخت وحيدة تكبره بعامين" عنَّت له فكرة تشابه وضعيهما، قال لها إن لديه طفلين كذلك، ولداً وبنتاً، الفرق فقط في قدوم الذكر قبل الأنثى، تدارك أمره بعد قليل، سألها إن كان من اللائق أن يكون بقربها في مكان عام، هزت رأسها: "لا تقلق" فكر في ما لو رآهما أحد ما يعرفها: "أين تقطنين؟" أشارت إلى جهة ما: "هناك، بعد المنعطف". بدت الحال غريبة له، أراد أن يقول لها كيف تتصرفين بهذه الجرأة!؟ كانت ملامحها حزينة منذ رآها لكنه لم يرغب في التدخل أكثر من اللازم، قالت: "زوجي في السجن". أدهشه الخبر، كان أمراً مؤسفاً لكنه أنعش شيئاً ما بداخله، قال: "أنا كذلك أعيش وحيداً".

***

فاض وقت طرفة بعد انفصاله عن وداد، انعكس هذا، بالضرورة، على نشاط كتاباته السردية الطويلة، وهذه السعة تمنحه الراحة والاستقرار، بصرف النظر عن فوضى حياته الأخرى.

أبدت ابنة الجيران رغبتها في لقائه مرة أخرى، هي تأخذ طفليها إلى بيت أبويها كل يوم تقريباً، بإمكانها الخروج والتعذر بألف سبب. مقتضيات بيتها أو أمورها الشخصية، شَعرَ طرفة بلذة خاصة، تداعت له ذكريات المراهقة، اقترح على الفور أن تأتي إلى منزله، لم تمانع، توالت الزيارات حتى اعتادا الأمر. في الأيام الأولى تحدّثا طويلاً عمّا جرى لحظة اكتشاف أسرتها أمر علاقتهما، بدا بداخلها أحاديث كثيرة ترغب في إفضائها، زوجها لم يكن خياراً مثالياً أبداً. في البدء ظن طرفة أنه مسجون إثر مسألة سياسية كما شاعت الأوضاع آنذاك، لكنه مدان بقضية مالية وسيقضي عقوبته لعدد من السنوات. لكن أكثر ما تحدثت عنه كان طفليها، من الواضح أن لا شيء يدور في فلك حياتها سواهما، وبعكس ذلك لم يتحدث طرفة عن مغامراته وشيطناته العظيمة، لم يقل لها عن نشاطاته الثورية، تمرداته واعتقالاته التي أصبحت كثيرة، ربما قال شيئاً ما عابراً حول ذلك عندما سألته عن أخبار كوخ الثقافة، وعندما سألته عن سبب ارتدائه الدشداشة، أراد أن يطلعها على النصوص التي يعكف على كتابتها آنذاك، اعترف لها بأن كل الشخصيات النسائية التي كتبها مستوحاة منها، قرأ لها من رواية أطلق عليها عنواناً أوليّاً "السياج" يقول إنها جزء أول من سلسلة مترابطة. كانت تُنصت إليه جيداً، تغيب بعض الكلمات وهي تتأمّله، أحياناً تغفو على صدره وهو يواصل القراءة، مع توالي الأيام بدأ ينكمش حديثهما، لم يكن بمقدوره اصطحابها لمشاهدة فيلم في السينما، كانت لقاءاتهما داخل المنزل فقط، اتضح أن لكليهما عالمه الخاص الذي أخذته إليه الدنيا، انشغالها كذلك برعاية وتعليم ابنيها. ابنة الجيران ستكون زوجة ملائمة لطرفة، كلاهما سيكونان، ربما، في وضع أفضل لو قُدّر لهما الارتباط رسمياً، لكن كليهما أدرك أن ليس لوضعهما الحالي الاستمرار. مضت الأيام، وانسحبا تدريجاً.

***

بعد عام ونيف من الانفصال، تزوجت وداد، وانتقلت حضانة إسماعيل ورقيّة إلى طرفة، فتوَلّت والدته صابرين رعايتهما. لم تكن الأوضاع العامة في العراق مختلفة عن سابقتها، ما زالت الأجواء متوترة غير آمنة، وبما أن اسم طرفة أصبح مألوفاً لدى السلطات الأمنية، فهو دائماً عرضة للاعتقال عند كل حادثة عارضة، غالباً لا تعنيه، لكن الأمر بدأ بالتطور حتى طالت المضايقات منزل والده في السيبة.

أتذكر أنني رأيت عمّه راشد يزورهم أسبوعياً آنذاك، يجيء من الكويت براً دون بومه البحري.

الغرض من زياراته هو إقناع أسامة بضرورة ترك العراق بعد ما آلت إليه الأحوال، كان طلبه هذا منذ أمد، منذ حادثة العمى ولأسباب مختلفة، لكن عناد والد طرفة، وربما استقراره وزوجته حالا دون ذلك، لقد امتلأ بدن عمه ولم يعد ذلك البحار الصلد الذي يقضي شهوراً يعمل على متن سفينته دون أن يطأ يابسة، ومع هذا فقد راح لفترة طويلة يلحّ على صديقه وقريبه، ذهاباً وجيئة في سفر متواصل، وسعى ليوفر له احتياجات الانتقال إلى الكويت كي لا يتذرّع بالعوائق، وذلّل له مصاعب السكن، كانت الحكومة تمنح مواطنيها بيوتاً طينية في منطقة شرق ريثما تُعمَر المناطق الجديدة. جهّز راشد كل ما يلزم كي تنتقل أسرة أسامة الكبيرة إلى بلدهم الأصل.

كانت الكويت تتمتع بكل الأسباب التي تغري المرء بالعيش فيها، الاستقرار والوفرة المالية، الخدمات والوظائف، مناخ حُر وحركة تجارية صاعدة. اقتنع الأخير، وعزم يلملم أغراضه وأسرته، وتحدث إلى سميرة وزوجها اللذين استجابا دون جدال، عدا طرفة الذي احتفظ بالرد حتى أصبحت العائلة وحاجياتها على أهبة الاستعداد للرحيل، قال لوالده: "سألتحق بكم في ما بعد". كان أسامة على يقين بأن ابنه لن يفعل، رغم أنهم أقدموا على هذه الخطوة بسببه، لكنه كان متمسكاً بأمل وجود طفليه معهما، منساقين مع المجموعة.

بعد عدة شهور، كان طرفة في طريقه إلى بغداد على دراجة بخارية بغية إنجاز معاملة حكومية، ولمّا أظلم عليه الطريق قرر المبيت في أقرب نُزل. كانت غرفاً شعبية يُدفع لها مبلغ زهيد نظير الدخول إلى أي واحدة متاحة

والمبيت فوق حصيرة مفرودة على الأرض حتى يطلع الصباح. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أيقظته ماسورة بندقية رشاش، يسأل صاحبها عن هويته، لم يكن يعرف سبب مداهمتهم غرفته، توقعها واحداً من سلوكات الاستخبارات التي تظن ما تظنه إثر تتبعها له، فاقتيد إلى مديرية الأمن، وبعد تحقيق طويل وأسئلة تدور فحواها حول سبب وجوده في ذلك المكان بالتحديد، تبيّن له أنهم يبحثون عن مهرّبي بضائع قادمين من إيران. ورغم عدم ثبوت أي تهمة عليه، ظلّ رهن اعتقالهم لأيام على ذمة التحقيق. حينها قرر فعلياً أن يلتحق بأسرته.

لم يبدد وقته فور إطلاق سراحه، لم يودّع أحداً؛ كان في ذهنه أنه سيعود بعد وقت قريب، بعد أن تهدأ الأوضاع. لكن بعد يومين من دخوله الأراضي الكويتية، أذيع خبر سقوط طائرة الرئيس عبد السلام عارف!

١١

أكتوبر، عام ٢٠١٠

في لحظة ما، لا تنقلها الذاكرة بالدقة اللازمة، اتخذتُ قرار الزواج.

كنتُ متأهباً لمواجهة صداع عائلي مُقبل متعلق باختيار جهة المصاهرة. أنا أصغر إخوتي، والأخ الأوسط ما زال عازباً، وهذا سبب وجيه لجعلهم يطالبونني بتأجيل المسألة، إضافة إلى عدم ثقتهم باختياري، وهذه واقعة متكررة، وفي جوانب عدة من الحياة، لأن أية أفكار أو سلوكيات تصدر مني آنذاك تندرج في إطار طيش المراهقة، أو أية أسباب أخرى من هذا الجنس.

"أريد أن أتزوج" ردة فعل والدتي، ابتسامة محيّرة لا تنمّ عن جدية، تخفي رفضاً للفكرة من أساسها، هكذا أشعر، أو ربما هكذا أنا متيقن. "لديّ كل الأسباب والاستعداد لذلك"، وظيفة مستقرة منذ سنتين، راتب جيّد يؤمن المتطلبات الأساسية، كنت في الثالثة والعشرين حينها "لا تتعجل، ما زلت صغيراً". لفظ "صغير" له وقع على أذنيّ، يختلف عما يعنيه الآخر، كنتُ على يقين تام لو أنّ والدتي تعرّفت إلى الفتاة التي اخترتها، لكان لها رأي آخر "انتظر ريثما نجد زوجة لأخيك". ما الذي يضمن بقاء الأخرى حتى يتخذ أخي قراراته. "الفتيات لن يجدن أفضل منك". أمي تأخذ حديثنا إلى منحى مختلف، تُجاهد لأجل تغيير دفة الموضوع، ربما كانت تظن أنه قرار مطلق غير متعلق بفتاة بعينها "لكنني اخترتها، ولا أرغب في غيرها".

"من هي؟!" السؤال بدافع الفضول أو الاستئناس "أمهلنا وقتاً نبحث ونسأل عنها وعن عائلتها"، وهذا الوقت مفتوح على مصراعيه لا نهاية له.

***

"أزعجتنا يا إسماعيل...".

الإلحاح سلاح فعّال، محاولات أخرى مثل اتخاذ قرارات الامتناع عن مشاركة العائلة أي نشاط، أو الغياب عن المنزل معظم ساعات اليوم، ارتفاع حدة الحوار بعض الأحيان، ومحاولات إقناع ليّنة في أحيان أخرى. اتصال أخي الأكبر ينتج صدامات جديدة بعد حديث طويل متعلق بالأصول والمبادئ، العادات والتقاليد: "الخطبة تتطلب وجود الأبوين، رضى والدتك أهمّ وأحقّ". اتصال آخر من زوج أختي: "تأنَّ في الاختيار، كوّن نفسك". الإجابة تنبع من قناعات السائل: "من استطاع منكم الباءة...".

والدي لا يتدخل عادة في مواضيع كهذه، الاختيار بالنسبة إليه مسألة شخصية، ربما لم يكن على علم بما يجري في هذا الشأن، وربما يعرف لكنه يتظاهر بعكس ذلك. تحدث إليّ ذات مرة، مدفوعاً، بشكل واضح، من والدتي: "الأصول أن يتزوج الأكبر ثم الأصغر". أنا لا آخذ حديثه على محمل الجد، كان يفتعل ذلك: "في مثل عمرك، لم أكن أفكر في الزواج". وعندما يرى أن هذا الجانب من النقاش لا يجدي نفعاً، يأخذ منحى آخر: "جرّب سافر، استمتع بشبابك". يصل الجدال إلى مرحلة يشعر فيها باليأس والتعب من محاولات الإقناع، يهزّ رأسه، أظنه يقول في داخله: "عنيد".

أيام السبت، في فترات مسائية أحياناً، ألجأ إلى طرفة.

أروي له بانكشاف كامل عن الصراع القائم في المنزل، الأسرة، تقريباً، بكامل عدتها في مواجهة طلب طبيعي أو رغبة إنسانية فسيولوجية نفسية، ينصت إليّ باهتمام، نظراته تتبدل بين حدث وآخر، الأمر الذي يدفعني إلى الإفصاح عن المزيد، حول قصص قديمة متعلقة بالوضع الراهن. يصمت مدة قبل أن ينهض من كرسيّه، يتوجّه إلى ركن المطبخ في مكتبه: "تشرب شاي؟". أتبعه، فأسمعه يتنهد وهو يخطو ببطء، يبدو أنه يستحضر شيئاً ما في ذاكرته، يضغط على زر تشغيل غلاية الماء، ويفتح خزانة في الأعلى يلتقط منها كوبين زجاجيين، ينتبه إلى علبة معدنية، يتناولها ويضعها على طاولة التحضير، يأخذ منها قطعة بسكويت مستديرة: "بطعم الهيل، لذيذة مع الشاي".

"عندما كنت أصغر من عمرك هذا بعامين أو ثلاثة"، يتوقف عن الحديث ليحمل كأس الشاي بحذر من حوافه، يأخذ رشفة صغيرة. "والدي زوَّجني

وطلقني دون علمي“، أظنه لم يكن دقيقاً في تحديد عمره: ”كيف يحصل هذا؟!“، أرخى جسده على الكرسي: ”كنتُ قاصراً في نظر القانون، آنذاك“. لم يكن ينظر نحوي عندما استحضر ذاكرته: ”كان عقاباً أو ردة فعل من والدي، لأنني تسببت بمشكلة كبيرة مع الجيران“. عدّل جلسته، وتناول كأس الشاي من عروته، وأخذ ينفخ فيها: ”كنتُ على علاقة مع ابنتهم، علموا بالأمر فزوّجوها، ومنذ ذلك الوقت صارت هي معظم الشخصيات النسائية في رواياتي“. قلت له: ”وأنا كذلك“. نظر نحوي، وأطلق ضحكة مفاجئة وعالية.

قال: ”أوردت حادثة عقاب والدي في أول رواية لي، أظنّك قرأتها، أليس كذلك؟“.

***

”سأزورهم، لكن لا تطلب أكثر من ذلك في الفترة المقبلة“.

هذا وعد أمّي، بعدما قلت لها: ”إذا اضطررت إلى الزواج بفتاة أخرى، إثر هذه المماطلات، ولم أوفّق في حياتي، فإن أمركم عند الله“. قالت: ”معاذ الله من تهديدك هذا“. كنتُ على يقين من قدرة هذه الخطة على أن تؤدي إلى خلاص. الذمّة، السببية، المسؤولية. وبالفعل أجرَت اتصالاً مع والدة الفتاة، وحدّدتا موعداً للزيارة، كانت فترة صعبة جداً، وربما لم أتعامل معها بأفضل نحو ممكن، لكن النتيجة حتى اللحظة في صالحي، كنتُ يائساً جداً من حدوث أمر قريب. طرفة نصحني: ”تحلَّ بالصبر، وتوجّه بالحديث إلى والدتك وحدها“. نفسي ضيّقة آنذاك وسمعي ثقيل: ”لا أظنني سأطلب من أمي شيئاً بعد الآن“، أحنى ظهره متكئاً على المكتب بقصد الاقتراب مني: ”هذه أمك، التي حملتك في أحشائها“.

أمي قامت بالزيارة وحدها، لم يكن برفقتها أي فرد آخر من العائلة، وكنتُ أنتظرها في الخارج أتلوّى من التوتر، أجري اتصالات عشوائية مع أصدقاء حتى أبدّد المشاعر التي تحيط بي، إلى أن سمعت صوتها وهي تودعهم في باحة المنزل الخارجية، تمالكتُ نفسي، ابتساماتها لا تعكس بالضرورة خبراً إيجابياً،

من الصعوبة إدراك مؤشر المجاملات النسائية. لما استفردت بها داخل السيارة، قالت: "جميلة جداً، ما شاء الله".

***

الشهور الأولى من عام ٢٠١١

أخي يتقدم خطوة في مسألة قرار الزواج، ويتراجع عشر خطوات. أصبح الفارق الزمني بين الزيارة الرسمية والتواصل اللاحق، وفق عاداتهم وتقاليدهم، لا يطاق. أزمة جديدة على وشك الحدوث، إلحاح آخر ومشاجرات أخرى. أوَزِّع عتبي على بقية أفراد الأسرة، أختي على وجه الخصوص، لا أحد يملك من أمره شيئاً، حتى طرفة: "لا حول ولا قوة إلّا بالله". أحاول أن أدفعه لتقديم نصيحة ما: "أنا أسوأ واحد يؤخذ رأيه في مسألة متعلقة بالزواج". لكنني، بفضل سلاح الإلحاح وحده، نلتُ مرادي. وفي فترة زمنية أخرى، لا تنقلها الذاكرة كذلك بالدقة اللازمة، استكملنا باقي الإجراءات، زيارة رجالية، زيارة نسائية ثانية برفقة أختي وعمتي، حتى موعد عقد القران. يومها جاءتني رسالة هاتفية تحمل تهنئة من طرفة، ولشدة تفاعلي السعيد مع الأحداث المحيطة بي، لم أنتبه إلى الشخص المُرسل، سألته من تكون؟ فاتصل ليؤكد هويته، لكنه لم يتوقف عن الضحك. كانت نكتة يرويها للآخرين من فترة إلى أخرى.

ارتديت البشت، وتوسطت والدي ووالدها في حفل الزفاف. يلفني فرح غامر بعد متاعب كثيرة لازمت كل مرحلة حتى وصلت إلى هذا المكان، يهوّنها حضور أصدقاء قدامى من المراحل الدراسية الأولى، من الجامعة، الصحافة، الثقافة، الوظيفة، جاء طرفة برفقة صديقه جواد، بزيّه المغاير المتفرد، بدلة موحدة اللون، قميصها وبنطالها وجاكيتها، عادته منذ أمد، الجميع بلا استثناء بالزيّ الرسمي الكويتي، حتى مرافقه جواد. التقطتُ صورة معهما، ثم نظر إليّ طرفة مبتسماً وفي فمه كلمة: "إلى متى ستظل ترتدي هذه العباءة". سؤاله الساخر نابع من كونه لم يعهدني أرتدي الدشداشة من قبل.

***

تَجاوب الأهل وحماستهم ليس كما المأمول في السنة الأولى، أعود بعد مدة، أحكي لطرفة عن مصاعب الزواج الجديدة.

ربما شعرتُ بنوع من المضايقات الخارجية، وشكل من أشكال التخلي في وقت احتجت فيه إلى السند، كانت كلماته تلفّها معاني الصبر والتحمُّل، لكن هناك جملة حاضرة دائماً في رأسي: "أنت اخترت هذا الطريق، وعليك مكابدة مسؤولياته".

١٢

الكويت، شهر أبريل. بعد مضيّ خمسة شهور تقريباً على تولي الشيخ صباح السالم مقاليد الحكم.

وصل طرفة، وكان يحمل في يده حقيبة صغيرة، بداخلها قميصان وبنطلون وبضعة احتياجات خاصة، وكمية هائلة من الأوراق. احتفت صابرين وأسامة بقدوم ابنهما، بعد قلق متواصل خلال المدة الماضية، خشيا أن يعمل بعناده، وينخرط في جماعات سياسية جديدة قد تعرّضه لاعتقالات أخرى.

انتقالهم إلى الكويت بِنيّة الاستقرار، عودة إلى أحضان الوطن بالنسبة إلى أسامة، إلى الأهل والأقارب، ورغم ذلك فإنّ إحساساً بالغربة أحاط بطرفة في أيامه الأولى، قال لنفسه: "سأرجع يوماً ما". استمرار التوتر السياسي في بغداد يجعل فترة بقائه هنا غير محددة الأجل. طرفة لم يبرح العراق منذ ولادته، لا بد من مشاعر دخيلة حين يجيء طارئ يرغمه على اتخاذ خطوة كهذه. هذا المكان بكل ما فيه من أناس وحركة، هموم واهتمامات مغايرة. المسافة التي قطعها في السيارة للوصول إلى منطقة شرق لا تتجاوز الساعتين، لكنه يدرك جيداً أنه مقبل على عالم مختلف له طبيعته الخاصة. فكّر طوال رحلته في لقاءات مرتقبة قد تجمعه مع أعلام ثقافية وجدت في الكويت مناخها الحر الذي تمارس فيه نشاطها دون مضايقات وملاحقات، رأى حالته شبيهة بأولئك إلى درجة ما، المفارقة أن هجرته كانت من موطنه إلى بلده.

حطَّ حقيبته في غرفة صغيرة خُصّصت له مؤقتاً، في منزل مبنيّ من حجر بحريّ مكسوّ بالطين، تحوّطه فرجان[1] وأزقة وبيوت أخرى تشبه بيتهم، بعضها مبنيّ من لِبن طينيّ خالص، لم تحطمها آلات البناء الجديدة بعد، ما زالت محتفظة بشكلها وروحها العتيقة، قال في نفسه وهو يطوّف أنظاره على المكان: "إذن هذه بلاد فهد العسكر، ومجلة العربي".

1 جمع كلمة فريج، وهي كلمة كويتيّة تعني الحيّ أو الحارة.

استغرق بعض الوقت من أجل التأقلم والاندماج مع المحيط الجديد، كان يسير في الجوار يومياً يستكشف المنطقة. عندما يمضي من سكنهم تتبدّى له الشوارع المسفلتة الحديثة ومبانٍ كثيرة من الخرسانة المسلحة، ينكشف له بحر الخليج العربي كلما سلك طريقاً مفتوحاً لا تحاذيه الأسوار، تجذبه زُرقة المشهد، فيجد نفسه تلقائياً يسير على الشاطئ، يحمل نعليه ويشعل سيجارته ويمضي بالقرب من الماء، يرفع دشداشته، كي يسمح للأمواج الزاحفة على الرمل بملامسة قدميه، تتوغل أنظاره عميقاً نحو الأفق. في العراق نهران وفروعهما كثيرة، اعتادت عيناه أن تريا يابسة في الضفة الأخرى، يجد نهاية تحدُّ طفح المياه المتلاطمة، أمّا هنا فبحر ممتد لا نهاية له.

كان يستمتع بالهدوء، لا أصدقاء كُثراً يبادلهم الأحاديث والجدالات الحادة، يتأمّل وجوه الناس المرتاحة المتطلعة، يلاحظ الحركة في الأسواق، يراقب النساء، ويفكر في فرصة جديدة ومختلفة، كانت زيجته الأولى المفترضة، بفتاة كويتية، ابنة عمه عبد المحسن، لم يطرأ في باله لو أتاح لذلك الارتباط أن

يستمر، ظروف تلك الفترة مغايرة تماماً، قطيعة عائلية مؤقتة، أمّا في هذه الأيام فقد أخذ يجالس والده كثيراً، وعاد يقرأ له بعض الكتب والأخبار، تحوّلت علاقتهما إلى صداقة بعد سنوات طويلة من التمرّد والخلافات.

***

كنتُ أمشي في سكة تقود إلى سوق مسقوف، تصطفّ بمحاذاته سيارات متوالية. الحركة نشطة في الساعات المبكرة من النهار، وعند فرجة تؤدي إلى طريق فرعي، وجدتُ مقهى يحتل جانبي ممر يقود إلى جهة أخرى من السوق، تتكئ كراسيه الخشبية على جدار المحل، مُرفقة بطاولاتها. المكان يعج برجال يرتدون غُتراً بيضاء، بعضها مع عقال وأخرى من دونه، لفت انتباهي رجل واحد لا يضع شيئاً على رأسه، يجلس في آخر المكان عند فسحة الضوء. أعرف هذا الرأس الذي تتطاير شعراته الناعمة كلما هبّت رياح هفة. كان يضع غترته على كرسي آخر بجواره، وسيجارة بين إصبعيه، وإستكانة شاي فارغة على طاولته، يطالع أوراقاً، يتأملها، ثم يحط السيجارة ويقبض على قلم رصاص يصلّح جملة أو يشطبها، ثم يعود إلى سيجارته. وقفتُ على مسافة منه أتابعه بصمت، كان مستغرقاً في فعله، يكرره باندماج تام، يطالع، يكتب، يدخن، حتى دعاه أمر ما لأن ينتبه إليّ، أو هكذا ظننت، لأنه نظر باتجاهي دون أن يعاين وجودي. هذا طرفة بالتأكيد. ألقيتُ التحية: "الله بالخير" فاستعاد ذهنه والتفت نحوي بإدراك، في الثواني الأولى بدا كأنه لا يعرفني، لكنه قطب حاجبيه وقال باستغراب: "ماذا تفعل هنا؟!". لم ينتظر ردّاً، ابتسم وخرج من وراء طاولته وعانقني، ثم صافحته بحفاوة، حتى شَعَرته يعتصر كفّي.

"التحقتُ بك بعد يوم من سفرك". بدا مندهشاً، ثم أخذ يجمع أوراقه ويرتبها، قلتُ: "أرجو ألا أكون قطعت عليك أفكارك". "أبداً"، قال، وتابع بعدما نظر في عينيّ: "أين تسكن؟". نبرته تضمر بعض الشكوك، ورغم سؤاله الطبيعي، واستغرابه كذلك، شعرت بالمباغتة: "في منطقة الشاميّة، بيت جدي". سكت قليلاً، ثم قال: "وما الذي دعاك إلى..." لم يكمل سؤاله، استغل ظهور عامل المقهى، طلب إستكانة شاي جديدة لنفسه وأخرى لي، أظنه حاول أن يصرف

النظر عن استفسارات أشبه بالتحقيق، قلت محاولاً منحه حق الإجابة: ”أنا كويتي كذلك“.

أشار عليه أحد أفراد عائلته بأن يلجأ إلى مقهى بوناشي إذا أراد مكاناً جيداً يمارس فيه الكتابة والقراءة، نظرتُ من حولي، قلت: ”لكن هذا ليس المقهى الذي تبحث عنه“. هزّ رأسه: ”أعرف“، كان بحاجة إلى استعادة تركيزه، أو احتشاده كما يصفه، حتى ينجز ما كان يواظب عليه. قلتُ: ”ماذا عنك، أين تقيم؟“ شرد بضع ثوانٍ قبل أن يجيب: ”شرق، غير بعيد عن مسجد المناعي“. ثم أخذ يمعن في ملابسي وهو يحاول أن يضمر ابتسامته، قال بصيغة مناكفة: ”هذه الدشداشة، تعني أنك كويتي؟“. ابتسمتُ: ”أرتديها إذا جئت إلى هنا فقط“. تغيّرت ملامحه، يبدو أن هذا الحوار مليء بالأخبار الجديدة، قال: ”ومنذ متى؟“. أفهم مقاصد أسئلته المبتورة: ”وقت الثورة على الملكية، وعندما ذهبتَ إلى بيت خالك في بغداد“. سعل مرتين، ثم عدّل جلسته، وبدا كأنه يستدعي بعض المشاهد العالقة في ذاكرته، لم يعقب فتابعت: ”تلك كانت أول مرة، ثم كررتها مرّات خاطفة، ولمّا اختفيتَ عقب حادثة مطالبات قاسم بضم الكويت، قضيتُ أسبوعاً هنا“. رفع حاجبيه: ”وكيف كانت الأوضاع؟“.

***

أشرتُ إلى جهة ما ليست دقيقة: ”أتذكر، أنه كان في نهار شهر يونيو، بالقرب من عمارة معرفي، أمام قصر السيف، شهدتُ توافد الجماهير الحاشدة إلى الشارع العام المجاور لساحل الخليج، رجالاً ونساءً، بعضهم يمثل أحزاباً وتجمعات سياسية وقوائم طلابية جامعية، لم أكن أعرف هذا لولا بعض اللافتات القماشية التي كانوا يحملونها. حاولتُ قراءة بعض العبارات بصعوبة إثر انكسار أشعة الشمس اللاهبة من مسافة بعيدة نسبياً. صور الأمير عبد الله السالم تملأ المكان، بعض السيارات متوقفة على امتداد الطريق، هتافات تندد: ”يا بوسالم عطنا سلاح...“ ومن شرفة القصر خرج الأمير برفقة عدد من الوزراء والشيوخ، بيده مكبّر صوت، ألقى من خلاله خطاباً على الناس“. تذكر طرفة شيئاً ما، قال دون أن يوجه كلامه لي: ”ليت أحدهم التقط صوراً للمشهد

يؤرخ الحدث“. لم أكن متأكداً إن كان أحدهم وثّق هذا، كانت الأجواء مثقلة بالغضب والحماسة، ظللت أراقب الوضع من مكاني بسكون تام، بعضهم وقف على سقف سيارته ليرصد آخر المسير الذي يغلب عليه لون الدشاديش البيضاء، وأعلام الكويت التي تنبت بينهم كل مسافة وأخرى. جرت تجمعات أخرى على مدى الأيام الموالية، بجوار دوار بوابة الجهراء وثانوية الشويخ ومنطقة دسمان. أضاف طرفة: ”مثل عالم موازٍ له أحداثه وشخوصه المغايرة والخاصة“. لم أفهم مقصده، لكنني متأكد من أنه مقبل على حياة مختلفة قد تروقه.

***

في غرفة صيفية مبنيّة على سطح منزل شرق، مفتوحة الجوانب، وسقفها من عريش سعف النخيل، يجلس طرفة قبيل مغيب الشمس حتى وقت متأخر من الليل، لمبة وحيدة تتدلى أعلى رأسه تنير طاولته، تهتز مع هبّات الريح الهادئة، تمنحه أجواءً تسهم في خلق عوالمه الجديدة، رواية أولى أتمّها، لكنه قلق عليها، ما زالت هناك بعض المكامن ليس مقتنعاً كفاية بها، يعيد كتابتها مرة وأخرى، يهجرها وينتقل إلى مسوّدة أخرى في إطار أجوائها، قصة أخرى تطلّ على الأولى، يترك الجديدة ويعود إلى السابقة، يقوّم مواضع ضعيفة وجد لها دعامة في روايته الثانية. يقفل أوراقه، يخرج إلى الشارع يسير باتجاه الساحل. يستعيد ذاكرته، يحفر في الأحداث والمشاعر القابعة في قاعه، ينعش أفكاره أو يحرّرها، يعود مجدداً إلى مكانه يكمل ليلته، يكمل نَصّه الثاني، عن غير اقتناع ينتقل إلى مسوّدة ثالثة، ثم رابعة.

كل كتاباته التي بدأها في كوخنا الأثير قبل أن يُسوّى مع اليابسة، يقول: ”هي أربع روايات لو تعرف، يربطها خيط ضئيل ربما يتسنى لقارئها ملاحظته، وربما لا“. أفصَح عن هذا بعد لقاء آخر في المقهى نفسه، تملكني الفضول حينها، أصبح يكتم كل أخباره منذ وقت، حتى قبل اعتقاله وغيابه ستة شهور، ألححت عليه، وعلى غير العادة، قلت له: ”مرّ وقت طويل جداً، لم تلقِ قصيدة ولم أسمع منك قصة“. تعذر في البدء ببضعة أسباب، لم أقتنع بها، لكنه اعترف في

النهاية: "الخوف، التردد..". عرض هذه النصوص على أفراد قليلين لا يتجاوز عددهم ثلاثة أشخاص، أحدهم قال له صراحة: "أنت تخون مبادئك". لم أفهمه، ولم أطلب منه أي توضيح، تركته يفصح عمّا يشغله ويقلقه، ثم قال في معرض حديثه: "أحد أبطال قصصي لص". قلت: "هي الخيانة؟" هزّ رأسه نافياً، وأضاف: "اللص ينتمي إلى الحزب الشيوعي".

***

طرفة ينتمي إلى نفسه، فقط.

بعد فترة قصيرة، انتَقَلت عائلته إلى منزل جديد في منطقة الروضة. طرفة آثر أن يستأجر شقة تخصه في شرق، عادته، أَلِف منطقته وأراد أن يستعيد مساحته الخاصة. كان قد ادّخر بعض المال قبل انتقاله إلى الكويت، كذلك أخذ ينشر بعض القصص والمقالات في مجلات وصحف مقابل مبالغ بسيطة تعينه على بعض متطلبات الحياة الجديدة. كنتُ قد نصحته بأن يتقدم إلى وزارة التربية للحصول على وظيفة قبل بدء العام الدراسي، وقد عمل بهذه الخطوة متكئاً على خبرته السابقة في المجال التعليمي، سرعان ما عُيّن في مدرسة المتنبي المتوسطة، وبعد شهر أو اثنين من الانتظام في روتين العمل والعزلة، بدأ يشتاق إلى أصدقائه في السيبة والبصرة، أخذ يكاتبهم كما لو يتحاور معهم في مسائل حاضرة، يبدأ رسالته بعزيزي فلان. ثم يطرح تساؤلات متعلقة بجدوى الأشياء من حوله، ويفكك أسباب حدوثها وغاياتها. كان من الجيّد أنه أطلعني على بعضها، لأنها لو وصلت إلى أي شخص آخر لظن أن طرفة فقد عقله. الوحدة مدعاة لاستحضار مشاعر ولّت أو انكفأت بفعل تراكم الأحداث والأخبار.

عادت حياته مرة أخرى بين العمل والكتابة ومشاهدة الأفلام. يتردد إلى سينما الحمرا، يحاول كسر شيء من رتابة الأيام، ربما بدأ يشعر بأن الأمور إذا ما سارت على ما يرام تصبح مملة. كان يبحث عن إثارة أو أمر ما يقتحم حياته، غير الأصدقاء الجدد، والأفلام، واكتشاف المدينة، والأحياء.

***

في ليلة شديدة البرودة، جلس طرفة في مقهاه الشعبيّ، يستمع عبر الراديو إلى نتائج الانتخابات البرلمانية، التي راقب تداعيات الدعوة إليها من كثب، إعلانات المرشحين وندواتهم، زحام المقارّ الانتخابية، كانت الأجواء جديدة عليه، أخرجته من دائرة أخبار الجيوش العربية الحاشدة ضد العدو الصهيوني. كان الرواد ينصتون باهتمام، سوى بضعة تعليقات ناشزة تصدر من رجل يجلس في صدر المكان، يحاول البعض إسكاته، أحدهم معه كشكول يدوّن فيه الأسماء الختامية الفائزة التي يعلنها مذيع النشرة. تناهى إليهم في الأثناء صياح مجموعة من الشباب يجوبون السوق: "الانتخابات مزورة، يا ناس، الانتخابات باطلة...". دخل أحدهم المقهى، بدا عليه التعب والغضب: "يا جماعة الخير، الناس متجمعة في الصفاة". هبَّ طرفة من مقعده، هرول يلحق بهم، التَحَقت به مجموعة أخرى. لم أكن مع طرفة وقتها، كنتُ خارجاً من ديوانية تقع في جهة معاكسة، صادفتهُ في أحد الطرق أو الأزقة القريبة من شارع فهد السالم، استطعتُ التعرّف إليه رغم العتمة والزحام حين وقَفَ فوق عتبة أو طوب ليرى أول المسير، كان يلف غترته حول رأسه، كمن يحاول تدفئة أذنيه، وسيجارته بدت تتأرجح بين إصبعيه عندما شرع يسرع خطاه محاولاً اقتفاء المقدمة. سمعتُ أحدهم: "يقولون الشرطة استحوذت على بعض الصناديق قبل تشميعها". كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، الحكومة أعلنت سلفاً أن يوم الغد عطلة لجميع موظفي الدولة، يظهر صوت آخر يقول: "بعض الناخبين قاوموا رجال الداخلية، منعوهم من...". عند أحد المنعرجات انفرج الطريق وتبدّت ساحة الصفاة، مثل دائرة كبيرة يطوقها شارع يفصلها عن محال وأسواق تجارية. كان أكثر ما لفت انتباهي حينها زرقة السماء الساطعة، لونها بدا مختلفاً عن كل الليالي وكأن الوقت انزلق في لحظة واقترب من فترة شروق الشمس، ربما كان القمر في حالة اكتمال، ربما الغيوم احتشدت وأضفت خليطاً بين النهار والمساء.

تحلّق جموع الناس حول أحدهم، كان صوته منفعلاً ومنهكاً من أثر الصراخ، لم أكن أستطع فهم كل ما يقوله بوضوح، سمعت: "دخول رجال الشرطة مدججين بالسلاح، دون طلب رئيس اللجنة"، ثم التقطتُ بضع كلمات حول الدستور والسلطة والحرية والتزوير وتوحيد الصفوف. أحد الحضور تدخل بكلمة: "هذا انقلاب على الشعب" وراح آخرون من حوله يصفقون ويؤيدون. كان طرفة لا يزال في مرمى نظري، يحاول التوغل بين الناس كلما وجد فرجة، اقتربتُ منه فوضعت يدي على كتفه، سحبته بقوة كي ينتبه إليّ، التفت نحوي باندهاش: "ما بك؟!"، حتى بعدما تعرّف إليّ، بدا على صوته الغضب: "لا تشدّني هكذا". قلت له: "تعال، لا شيء يدعوك للوصول إلى المقدمة".

في لحظة انفضّت الجموع، انقسموا إلى تجمّعات صغيرة غير منظمة، حوارات ونقاشات جانبية كثيرة، نظر طرفة إليّ بعينين نعستين، ثم ابتسم، قلت له: "الوقت تأخر". هزّ رأسه وأخذ يسير معي خارج الساحة باتجاه البحر، أبرقت السماء، شعّ الطريق جزء ثانية وانطفأ. نظرنا إلى الأعلى في سكون، ثم أدركنا أزيزاً آتياً من بعيد ينبئ بانقلاب الأحوال الجوية، خفّت خطانا، لم يكن أحدنا يتحدث إلى الآخر حتى اجتزنا السوق وبلغنا منطقة هادئة قريبة من البحر، سأل طرفة: "هناك اصطدام محتمل؟" بدأ يتعامل معي كشخص مطلع على الشؤون الداخلية الكويتية، راقني الأمر: "أتصوّر هذا". أشعل سيجارة جديدة، قلت له: "أين تذهب كل مساء؟". نفث دخانه: "غالباً في الشقة، أجلس في البلكون أراجع النصوص". أخذ خط سيرنا يميل جهة الشمال من تلقاء نفسه، دوّى صوت رعد رجراج، انبرى جسدانا، تأهّبا، لم تهبط قطرة مطر بعد، اعتدلنا، رحتُ أقدّر المسافة التي أوقفت بها سيارتي، يبدو أن شقة طرفة أقرب منها، تفطنت إلى موقعنا، أشرت إلى بناء خرساني قيد الإنشاء، قلت: "في هذا المكان..." نظرتُ إليه، وجدته يولي انتباهه إليّ، قلت: "تعرف ابن لعبون؟"، كرر: "الشاعر محمد ابن لعبون" ردَّده كمن يؤكد المعرفة: "في هذه المنطقة كان له ضريح يوماً ما". وقف طرفة ينظر إلى الموقع المعنيّ، براح مترب يحدّه شارع الخليج العربي، يرفع سيجارته إلى فمه ويخفضها ببطء، قلتُ: "لا أدري إن كان مرقده الحقيقي". أشار طرفة مرة أخرى: "مكان

المبنى بالضبط؟“. قَصَفَ الرعد من جديد، قلت: ”تقريباً...“ ثم انشقت السماء وبدأ هَطل الماء الغزير، جرينا كالمجانين دون أن يرى أحدنا الآخر، حتى افترق طريقانا.

***

بعد أيام، بينما كان طرفة يشرب قهوته في بلكون شقته، لاحظ مجموعة من الشباب يسيرون على مبعدة من مكانه، جهة شارع السوق، يوزعون أوراقاً أشبه بالمنشورات، شدّه الأمر، قرر أن يتفحص الوضع عن قرب، نزل وأمضى قرابة سبع دقائق نحو الهدف، حتى أصبح في صدر الحدث، فوجئ أن الشباب ليسوا سوى مراهقين ربما في المرحلة الثانوية، في جهة أخرى كانت دورية الأمن قد وصلت. تناول من أحدهم المنشور، نظر فيه: ”بيان القوى المعارضة، إن عملية التزوير المكشوفة، التي تمت ضد إرادتكم، وفيها إهدار حقكم في التعبير عن آرائكم قد أوجدت القناعة الكاملة لدينا بأن الانتخابات لا تمثل إرادة الشعب ولا نسلم بنتائجها...“.

رفع طرفة رأسه، كانت الشرطة قد اشتبكت مع الشباب.

***

مضت بضعة شهور، كنت أتحدث إلى طرفة عن توالي الأزمات المتعلقة بالحريات بعدما هدأ التوتر القائم بين القوى السياسية والسلطة. على الشاطئ نحمل راديو نستمع إلى أخبار الجيوش العربية، قلت: ”ألم تلاحظ، منذ أن جئت إلى الكويت...“ قال: ”أعرف، لا تُكمل“، ثم لَكَمَ كتفي. الثالث من يونيو، دقات ساعة القاهرة تشق صوت الأمواج الهادر، إعلان بدء برنامج أحمد سعيد، إذاعة صوت العرب. المعركة توشك على الاحتدام، العناوين التي تتصدر الصحف: ”كلّنا رجل واحد خلف القائد في المعركة“. تداعت لي تظاهرات حاشدة قبل يومين في المدرسة المباركية، التفتُّ إلى طرفة سألته: ”لماذا كنّا نهتف، أخي في الكويت دمّر أنابيب الزيت؟“. تجَمُّع الأحزاب السياسية، الناصريون، القوميون، التقدميون، قال طرفة وهو يقرّب الراديو

ليفسح له مكاناً بيننا: "لأن النفط تحت سيطرة الشركات الإنجليزية". جال في رأسي، تتمة الهتاف: "أخي في الحجاز دمّر أنابيب الغاز..." الجيوش المصرية السورية تقود الحرب، آمال العرب بالنصر، ثقتهم أكبر من أي وقت آخر، الصحف تستمد عناوينها بعضها من بعض: "مؤامرة ثلاثية عدوّة تتكشف في صورتها النهائية". هذا خطاب المذيع يصدح في مقدمته. واثق ومنطلق، عبارات منمّقة ساهبة ساجعة، موجهة إلى العرب أجمعين، إليهم ونيابة عنهم. مشاعر العزة تنسلّ إلينا، هذا البث المنتظر، يمدّنا بقوة رهيبة، تسلب الأفئدة.

أحمد سعيد: "أيها العرب في جميع أنحاء العالم، هذا صوت ناطق بلسانكم، مكافح من أجلكم، معبّر عن وحدتكم، نوافيكم به من قلب الأمة العربية المجيدة، من القاهرة". كان من الواضح أن طرفة يطرب لهذا الصوت كل يوم، وأنا كذلك، وكل الناس، كانت كلماته مثل خطاب مجهز ومرتجل في آن واحد، لا يتأتئ، لا يتعثر في فكرة، لا يرتبك قبل أن يطلق جملة، استرسال غير منقطع لا يُمَل منه، لا يشبه شيئاً، يخلب المشاعر ويطاوحها، تهبط نبرته، يطبطب على همّة الناس: "العدوان على غزة، عدوان على دمشق، العدوان على سينا، عدوان على البحرين، العدوان على بورسعيد، عدوان على الجزائر...". هذا خطاب يرسلك إلى غدٍ مشرق عزيز.

***

الخامس من يونيو، العناوين: "معارك ضارية على كل الجبهات" موظفو الدوائر الحكومية تركوا أشغالهم، تجمعوا حول المذياع: "قواتنا أسقطت ٨٤ طائرة عدوّة". وجوه العامة تشعّ بوهج النصر، لكن نشوة طرفة لا تصفها كل المترادفات. توقيت الحرب في مطلع الصيف، يدور الحديث حول ضرورة قضاء الإجازة، بعد شهر أو اثنين، في القدس، عكا، يافا، نابلس، نسبح في طبريا، ونصعد الخليل، ونجوبها شمالاً وجنوباً. أحمد سعيد: "دفاعاً عن حاضرنا ومستقبلنا، نخوض اليوم معركة الحرية...". كل البيانات، كل المؤشرات تخبرنا أن جيوشنا تحرز تقدماً بيّناً.

السادس من يونيو، عناوين الصحف: "الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب". طرفة دعا الطاقم التعليمي والإداري في المدرسة إلى وليمة عشاء في منزل والده الليلة، هذا اليوم الموعود، هذه استجابة ابتهالات المؤمنين في سكون الغسق، تسعة عشر عاماً من الذل، حانت ساعة بطش العجز واستعادة هيبة العروبة. امتلأت ساحات المدينة، جاء أهل الفنطاس من جنوب الكويت وأهل الجهراء من غربها. طرفة يردد أغنية إذاعة صوت العرب: "أمجاد يا عرب أمجاد، في بلادنا كرام أسياد...". الشوارع مكتظة بالناس تهتف: "الله أكبر، الله أكبر". الإذاعة، المصدر الوحيد لتلقّي الأخبار، الناس تلتف حوله في كل مكان. أحمد سعيد: "قوات العدو بدأت بالانسحاب غرباً...".

***

التاسع من يونيو، الرئيس جمال عبد الناصر: "لقد قررتُ أن أتنحى تماماً، ونهائياً، عن أي منصب رسمي، وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير...".

مات طرفة. هذا الوصف الذي ينوب عن كل المجازات.

لقد قضى في شقته شهراً دون أن يراه أحد، دون أن يذهب إلى العمل، حلّت الإجازة ولم يحل، كانت الدنيا حزينة، والناس تعساء، وكان صيفاً أصفرَ متوقداً، لا ظلَّ فيه، ولا أجهزة تبريد تحرّك سكون مؤشرات الحرارة، كانت أياماً جرداء عاثت فيها الحشرات والصراصير، وعجاج أحمر مضطرب يحوم في سماء المدينة. المقاهي خالية، والشطآن تشهد كل يوم هجرة البحارة منها إليها، لا أحد يطيق الآخر، لا قدرة على حوار، الطاعون يزحف من جديد، آفة دبّت في كل بيت، جريمة شنعاء اقترفتها الإذاعة، ومهّدت لها الأناشيد، ودبّرت لها الخطابات وعناوين الصحف.

لقد هُزمنا...

هكذا اعترفوا بخنوع. ثم خرج الناس يمجّدون اسم الرئيس. كان طرفة مرميّاً في سريره، ينظر إلى السقف، يرى تاريخه الذي لم يشهده قد غبر حيث كان، في غياهبه السحيقة التي يجهلها الجميع، بعدما وصل إلى عتبة الدار،

رحل قبل أن يطرق الباب. ذاكرته، بلغت ردحاً من الأزمات، أكثر من حولها الزمني المعلوم، استحضر مسيرة طرد أزلام الإنجليز من العراق، المستقبل المشرق المُنتظر، ثم ظهرت سياط المعتقل، تهوي على ظهره، تهوي على وجهه، ركلات الجنود، شتائمهم وبصاقهم، إهانات ابتلعها، لا علم لأحد عنها سواه. إن طرفة يحوم في فراشه حول المرض والسفر. كانت الحياة قد انتهت آنذاك، ولا جدوى من شيء، جسده منهك محطم، حمّى أبدية، وخزات وكدمات، إذا نهض من سريره يمشي ببطء يتكئ على الجدران، يدهم معدته مغصٌ حادّ، علّة لا تحتاج إلى من يشخّص أسبابها، لا تحتاج إلى طبيب. ينظر إلى مكتبته، يتساءل بشك، من كَتَب كل هذه الكُتب؟ من هؤلاء؟ لا يمكننا منح الثقة لأحد بعد الآن، لا رئيس، ولا صديق، ولا جندي، ولا عامل. يدهمه الآن أثر ماسورة البندقية في نُزل طريق بغداد، الأثر الذي جعله يقرر الرحيل، أو العودة بطريقة أثيرية، عودة الجينات إلى مكانها، تداعت إليه صورتا طفليه، إسماعيل ورقيّة، تذكر أنه ليس وحيداً كما يرى نفسه دائماً ويشعر بها. ربما بعد كل هذا، وكل ما أعرفه، يتبدى لي أن ما لم يقله طرفة أكثر مما قاله، وأكثر مما يعرفه عن ذاته، هذا سَفَره كل لحظة، كل دقيقة وثانية، يخرج من جسده ويطير في الاحتمالات، في عالمه الافتراضي. كانت عيناه وحدهما تنامان وتستيقظان، وكل الأشياء الأخرى تراوح بين الحالتين.

***

"لن أكتب بعد اليوم".

قرَّرَ طرفة هذا دون سبب وجيه، ودون أن يصرّح بذلك. كنتُ سأعترض لو علمت بالأمر حينها: "بل من الواجب عليك الكتابة الآن". ربما لن يجيب، وربما سيكون ردّه أن الامتناع هو اعتراض بعينه.

في العام الدراسي الموالي، خطر في بال طرفة أن يتقدم إلى الوزارة بطلب عمل إضافي، فترة ما بعد العصر، رغبة منه في الانشغال المطلق عن الأوقات التي قد تجرّه إلى دائرة التأمل والتوغل في حاله المكتئبة، ولأن هناك عجزاً إدارياً في المدارس المسائية، عُيّن مساعد مدير مدرسة عوضاً عن

معلم لمادة التاريخ. كان الغرض من ذلك أن يعود إلى شقته بعد نهاية اليوم، تَعِباً ومرهقاً وجائعاً، ينشغل بإعداد طعام العشاء، ثم ينام.

في نهاية الأسبوع، يزور والديه، يقضي وقتاً مع طفليه إسماعيل ورقيّة، أمه صابرين تشتاق إليه كثيراً، تحبّه من عرض أبنائها بشكل خاص وتعتني بزيارته، ربما بسبب غيابه المستمر، أو معاناته المتواصلة. إخوته يلتفّون حوله يفصحون له عن أخبارهم ومشاكلهم، طرفة غدا أسامة آخر بين أشقائه، والده كذلك أصبح يستمع إلى نصائحه في أمور، يشاوره في مسائل تخص الأسرة، كذلك، ويستفيد من علاقاته الكثيرة. أما أخته سميرة، فلها منزلة في قلبه، يتلهف لرؤيتها والاطمئنان عليها. عند مدخل منزل أسامة، ممرّ قصير عن يمينه باب الديوانية، ومن ثم ينفرج المكان على حوش عربي رحب يتوسّطه حوض زراعي تركن فيه نخلة كبيرة، أشبه بليوان البيوت الكويتية القديمة، على اليسار مدخل الصالة وبقيّة غرف ومرافق البيت، في الجهة الأخرى تطل ثلاثة أبواب على الحوش، أحدها للمطبخ، وآخر للمخزن، وباب غرفة سميرة التي تحتفظ بها بسبب غياب زوجها الدائم إثر عمله في شركة النفط. يذهب طرفة إلى حجرتها عادة عند كل زيارة، يلقي التحيّة عليها. ذات يوم، طرق بابها، فسمع صوت اقتراب سريع، ثم قالت من وراء لهاث: "من هناك؟" استغرب فعلها، اكتفى برده: "أنا..." ثم واربت الباب وأظهرت نصف وجهها: "أهلاً..." شعّت ملامحها: "أمهلني دقيقة". انتبه، أو فطن على نحو ما أن هناك فتاة أخرى في غرفتها. شرعت الباب بعدئذ: "مرحباً طرفة" أخذته بحضنها. كانت عيناه قد أُخذتا نحو الأخرى التي أشاحت بنظرها إلى الحائط، ثم راحت سميرة تسأل عن أحواله، يبادلها من جهته بالسؤال عنها وعن زوجها، لَمحَتْه ينظر إلى جليستها، انتبهت: "صديقتي غنيمة" بادر طرفة: "مرحباً" ردّت الأخرى بخجل، أضافت أخته معلومة أخرى: "صداقتنا منذ الدراسة في معهد المعلمات". كان طرفة سعيداً بهذه المعرفة، ودّ لو يطيل الحديث، لكنه اختار بذكائه أن يدعوهما إلى الجلسة العائلية، لم تمانعا، قالت سميرة: "سنلتحق بكم".

عندما أقبلتا، تفحّصها طرفة بعناية، احتفظ بصورتها في خياله، لونها الحنطي وشعرها المسدل الذي يلتقي في نهايته بجديلة صغيرة، قال في نفسه: "هي

إذن“. كانت سميرة، بحدسها، قد أدركت ما يدور في رأس أخيها، قالت بصوت مرتفع موجّهة كلامها نحوه: ”بالمناسبة، غنيمة كاتبة أيضاً“. حديثها كمن يتمّم موضوعاً انقطع، ثم نظرتْ نحو الأخرى: ”أخي شاعر وكاتب قصة معروف...“. اغتنم طرفة الفرصة: ”ما نوع الكتابة التي تمارسينها؟“. نظرت غنيمة إلى صديقتها، محرجة وتودّ لو توبّخها في الآن نفسه: ”سميرة تبالغ قليلاً“. طرفة أراد أن يقول: ”وأنا كذلك لست شخصية معروفة“. لكنه تركها تكمل حديثها: ”محاولات بسيطة في كتابة قصص ومسرحيات مدرسية...“. جفنا طرفة يقفزان قليلاً كلما أعجبه خبر ما، إذا ما كان الأمر آتياً من فتاة جميلة، ترفرفان: ”تقريباً، أنا رجل متفرّغ الآن، أودّ لو أطلع على تجارب جديدة في الكتابة“. لم يكن متفرّغاً بالمعنى، لكنه سيكون كذلك من أجلها، سميرة تحاول مناكفته: ”لكنك الآن تعمل نهاراً ومساءً في المدرسة“. بلع طرفة ريقه، واستدرك سريعاً: ”هناك أوقات فراغ كثيرة تتخلل العمل، فترة ما بعد العصر“.

ران صمت، تداخلت موضوعات أخرى في الحوار، تقريباً الجميع نسيَ الأمر سوى طرفة، الذي حرص على أن ينصرف قبل غنيمة، وقبل أن تعودا، هي وسميرة، إلى غرفتها، نهض، وبعدما قبّل رأسيْ والديه، التفت جهة الفتاتين: ”لا تنسي، أريد قراءة شيء يخصّك الأسبوع المقبل“.

***

طرفة يختلس النظر، كثيراً.

كان يتمعّن بها طوال الوقت، حتى لو التفت إلى ناحية مغايرة عن مكانها، يراها. بطريقته، وجد في عينيها الذكاء، النبوغ الذي يبحث عنه في امرأة، ربما لأنها ذكّرته بابنة الجيران، طيف من ملامحها، بريق أخاذ يرافق خطوها، شيء ما جعله دون بالغ تفكير يقول: ”هي إذن“.

اتصل بسميرة بعدئذٍ، قال: ”هي عزباء؟“ دون أن تسأله عن مقصده، ردّت: ”تزوجت مرة، لكنها تشبه زيجتك الأولى“. سكت قليلاً، أخذ يعالج الفكرة في رأسه: ”زواج وانفصال في يوم“. لم يكن يسألها، وإنما يهذي باستنتاجاته، فأكدت له: ”هي بكر“. همهم قليلاً قبل أن يقول: ”لا تبدو في عمركِ“. أكدت

سميرة إحساسه، صداقتهما تكوّنت حين كانت غنيمة طالبة مستجدة، بينما الأخرى في سنتها الدراسية الأخيرة. شَعر طرفة، على نحو ما، بأن الأمر كما لو كان خُطّط له، لم تكن أخته تحثّه مباشرة على التقدم لها، لكنها بدت تدفعه إلى فعل ذلك، قال قبل أن يغلق الهاتف: "أتطلع لقراءة شيء من قصصها".

وكان له ذلك في الأسبوع المقبل، أعطته قصتين مكتوبتين في ورق مطويّ أكثر من طيّة، كما لو تقول: "لا تفتحها الآن". فكر طرفة، ربما تخبئان أكثر من مجرد قصة، لكن توقعاته خابت عندما عاد إلى شقته، لم يمنعه ذلك من تشمم الأوراق المشبعة بعبق كفيها، والإمعان في خط كتابتها، استغرق الأمر أسبوعاً بأكمله، يقرأ القصتين كل يوم، وفي الزيارة التالية، دعاها للجلوس بعيداً عن البقية، بذريعة حاجته إلى الهدوء حتى ينقل لها رأيه، وقد تظاهر بفعل ذلك، إعجابه الشديد بموهبتها وقدرتها الفذة، كانت غنيمة تملك أدوات فنية جيّدة، ربما، مزيد من المران سيجعل منها كاتبة محترفة. في حينها، لم يكن طرفة يفكر في هذا، طلب منها أن تحاول مجدداً وتواظب على الكتابة لأن هذا سيعينها على التطور، اقترح لها بعض الأسماء الأدبية التي إذا ما اطلعتْ على تجربتها، فستساعدها في اكتساب مزيد من الخبرة، ثم ناولها ورقة فيها رقم هاتف شقته.

***

قالت له غنيمة في إحدى المكالمات الهاتفية، إن خالها يكمل دراسته المسائية في المتنبي، دَوّن الاسم سريعاً على ورق جانبيّ، وقرر فوراً أن يستغل هذا الظرف.

في اليوم التالي طلب طرفة الطالب – خال غنيمة – للقدوم إلى مكتب المدير المساعد، كان في أول الأربعينات على ما يبدو، قد يصغره طرفة بعشر سنوات على الأقل. وقف مستغرباً عند مثوله أمام المكتب، متوتراً بعض الشيء يفكر في خطب ما: "خير أستاذ؟" تساءل بنبرة هادئة، كانت الغرفة خالية لم يكن أحد معهما: "تفضل اجلس". استجاب لطلبه، لكنه لم يكن مطمئناً، عدّل غترته، أخذ طرفة ينادي أحدهم: "شاي أم قهوة؟" التفتَ خال

غنيمة إلى الرجل عند الباب، الذي يحمل بيده صينية فارغة، ثم نظر مرة أخرى إلى المدير المساعد: "لا شيء، شكراً". لم يهتم لإجابته، قال للعامل: "إستكانتي شاي". لم يعلق الآخر، لكنه كما يبدو لم يَعُد يطيق انتظار معرفة سبب وجوده هنا: "خير أستاذ، هناك مشكلة؟". صالب طرفة ذراعيه وأراحهما على الطاولة، ثم قال: "أنا طرفة أسامة، أختي سميرة، صديقة غنيمة ابنة أختك". نظر إليه الرجل، تبدلت ملامحه، وتبدّت عليه مظاهر الدهشة، لم يفهم الأمر بعد: "غنيمة!". تلفت من حوله بعدما كرّر اسمها، ثم عقد حاجبيه، عاجله طرفة بالتالي: "أودّ التقدم لطلب يدها على سنة الله ورسوله".

***

"الساعة المباركة".

لكن هذا لم يكن رأي والده أسامة الذي استشاط غضباً من تصرفه: "بأيّ حق تطلب البنت من خالها..". يملك طرفة ردوداً جاهزة حيال كل سؤال أو هجوم، لكنه فضّل الصمت حتى يفرغ والده شحنة غيظه: "أنا رجل أملك أمري..." كان بودّه لو يجادله: "يوماً ما زوجتني وطلقتني دون وجه حق". لو كان هذا في زمن السيبة، زمن المراهقة، لكنه الآن أكثر نضجاً وأكثر تمرداً مما نظن.

في الحقيقة لم يكن يفهم سبباً منطقياً لرفض والده، يزعم أنها مصاهرة غير متكافئة. هذه صديقة سميرة والأسرة بأكملها تعرفها وتدرك أخلاقها، الرد الجاهز الذي يتوقعه، هناك فرق بين الصداقة والنَّسَب، حسابات أخرى ليست ضمن نطاق قَبول طرفة، كان الأمر قد بلغ باقي أفراد عائلته، عقدوا اجتماعاً طارئاً حول هذا الخبر، دُهش طرفة من عِظم الأمر: "لقد بالغوا جداً". كان عمه عبد المحسن ضمن المجتمعين، رجال كثر أغلبهم من كهول وشيوخ، يرتدون البشوت والعُقل السميكة، أحاطوا والده أسامة، وجهوا إلى ضرورة ردعه عن هذه الزيجة، الأحرى به أن يتزوج من نساء العائلة، بينهنّ الأرملة والمطلقة. طرفة لم يمثل أمام المحاكمة الأسرية، وعلى عكس ذلك لم يبالِ أبداً، تهديدهم بالتخلي عنه إذا ما عمل بعناده، اعتزم أن يضرب برأي الجماعة

عرض الحائط، ردّه الذي أفصح به لنفسه: "أنا كذلك سأتخلى عنكم". مواجهة غير مباشرة، معركة لفظية عبر التخاطر، كان أسامة الموكل بردع ابنه ونصرة النسل المتسلسل الذي لم تخالطه دماء دخيلة.

***

"لستَ من عائلتنا".

لكن والده أذعن بعد شهرين تقريباً. ربما كان الطفلان الماثلان في منزله، إسماعيل ورقيّة، وحاجتهما إلى أم ترعاهما، عجّلا ذلك؛ أسامة يعرف أن غنيمة قد تعوّضهما عن أمهما وداد. صابرين ليس بمقدورها القيام بهذا الدور، لقد أنجبت قبل شهور قليلة طفلهما العاشر صُباح، الذي أُطلق عليه هذا الاسم تيمّناً بحاكم الكويت بعد انتقالهم واستقرارهم في منطقة الروضة. وافق على أن يرافقه لخطبة غنيمة رسمياً، حُدّد الموعد، وجلس أسامة يومها في كرسي السيارة الأمامي، وفي المقعد الخلفي ابناه صالح ورباح، اللذان يأتيان بعد طرفة في الترتيب العمري، وبينما كان الأخير يقود السيارة، أبدى والده بعض التردّد والتذمّر، عدّد له أسماء فتيات، فلانة وفلانة، هذه جميلة والأخرى متديّنة، لم يكن طرفة يجيبه، ولا حتى بهمهمة أو إيماءة: "لو كنت قبلت بابنة عمك عبد المحسن، لما كانت حالك...". أوقف طرفة السيارة على ناصية طريق، ثم نظر إلى أخويه عبر مرآة السيارة: "ترجّلا، وخذا والدي معكما إلى البيت!".

١٣

سبتمبر، عام ٢٠١١

كنتُ في العاشرة أو التاسعة آنذاك، ألعب كرة القدم في ساحة إحدى العمارات السكنية بمنطقة الفروانية مع الأصدقاء. يجاورنا مبنى من طابقين ممتدٌ على طول الشارع، مقسم إلى عدة وحدات سكنية معزولة. أُخلي قبل ثلاث سنوات تقريباً. كانت تسكنه عمالة من مختلف الجنسيات العربية والآسيوية. إذا ما سقطَت الكرة في سطح المبنى، نضطرّ إلى الالتفاف من حوله جهة المدخل الذي تُرك مشرعاً دون اهتمام، ثم نصعد سلالم معدنية في حوش البناية، ونبحث عن الكرة وسط الظلام. المكان مهجور موحش، غالباً ما يذهب اثنان لفعل ذلك. في إحدى المرات عجزتُ عن إيجادها، توقعتُ أنها سقطت في وحدة سكنية أخرى مجاورة، يفصل السطحين حائط عالٍ، بالإمكان تسلقه بمساعدة المرافق. عندما وقفتُ على السور، أصبحت أطلّ على الأصدقاء في ساحة العمارة أسفل مني، أردت أن أنزل بثقلي إلى الجزء الآخر في حذر شديد، فكرتُ أن أتعلق على الحافة وأترك جسدي يتدلى حتى أقصّر مسافة الهبوط، لكن في اللحظة التي انحنيت فيها، فقدت توازني، وانفصل جزء من حجارة السور، فسقطت على ظهري، في جهة ما إلى الخلف.

السقوط لحظة خاطفة، لكن الزمن توقف أو تباطأ، شعرتُ بأنني أتهاوى جهة ساحة العمارة، عيناي فزعتان مفتوحتان عن آخرهما، قلت بداخلي: ”هذا حتفي“. المسافة كافية كي يتهشم رأسي فوق بلاط الساحة القاسي. شعرت بجسدي يستقر في مكان ما، وحجارة السور المحطمة انهارت عليّ. تناهت إليّ صرخات الأصدقاء، توهمت صداها في أذنيّ، ثم انتهى المشهد. فتحت عينيّ، مسحتهما بثيابي، وجدتني في الناحية الأخرى من السطح، والتفتُّ إلى جهة ما، كانت الكرة بالقرب مني، رميتها إليهم وتظاهرت بأن الأمر هيّنٌ،

لكنني شعرت لحظتها بأنني نجوت من الموت. سجدت في عتمة العليّة أمرّغ أنفي بأتربة السطح وقلبي يدقُّ بشدة: "الحمد لله".

يحضرني هذا المشهد، وتلك المشاعر، منذ أن تجاوزت سن العشرين، كلما تجاسرت عليّ الدنيا، يجيء لي شيء ما يعرض لي الحدث من زاوية جديدة، أستعيد اللحظة، أقول: "لو حدث الأمر الذي حدسته وقتذاك". الآن، في السيارة، وعاصفة ترابية شديدة تحوّط الدنيا، تلقيت مكالمة هاتفية من صديق: "تأخرتَ كثيراً، إن لم تعطني الرد، فسأبدأ المشروع وحدي". حيرة وخوف، هذا الاتصال بما يحوي من إنذار ليس في وقته المناسب، كنتُ كمن يحمل همّ الدنيا وحده، مشاعر بالتخلي والخذلان، لكن القرار جاء ببسالته يشق إعصاراً من السلبية والأفكار السوداوية: "نعم، أنا معك".

كانت المكالمة الواردة من يعقوب، صديق وكاتب جماهيري معروف، قررنا منذ مدة تأسيس دار لنشر الكتب وتوزيعها، معتمدين على خبرتنا البسيطة في طباعة قصصنا السابقة على نفقتنا الخاصة، ومعرفتنا باحتياجات المؤلفين، لكنني آنذاك كنت أعيش عصفاً من الصراعات العائلية، وتردد حيال كلّ خطوة وتصرف، والمستقبل معتم مجهول. كان جوابي: "نعم، أنا معك". مثّل مخاطرة، الأمر يتطلب اقتراضاً بنكياً لتأمين رأس المال، لم أكن متأكداً من استعدادي لخوض التجربة، لم أقل صراحة: "وليحدث ما سيحدث"، لكن هذا هو الرد الضمني الذي قصدته.

***

صيف عام ٢٠١٢

أطلقنا على الدار اسم (فيستا للنشر والتوزيع) وكانت تلك رغبة يعقوب، لم أتدخل في هذه الخطوة، وددت انتقاء مفردة عربية بدلاً من الاسم الأجنبي. بارك طرفة هذا الإنجاز. وتحدثتُ له بعد ذلك عن المواهب الجيّدة التي تلقيّنا نصوصها، لفتت انتباهي تجربة لشاب أصرّ أن يوصل مجموعته القصصية إلينا بشكل ورقي في مظروف، عوضاً عن إرسالها عبر البريد الإلكتروني. أخذتها

معي إلى البيت، وحين استعصى عليّ النوم في ذات الليلة، أخرجت المسوّدة التي تضمنت غلافاً أنيقاً راوحت ألوانه بين درجات الأحمر والبرتقالي، على صدره فتاة هندية وعنوان: "مومباي". اختيار بيئة العمل مدخل موفق ومحفز للقراءة، القصص واللغة والأفكار كانت رائعة مفاجئة، لسبب ما كنتُ أظن أن المواهب شحيحة جداً، لن أجد منها إلا النادر الذي يستحق النشر والدعم، طرفة يستمع باهتمام، يشرب شايه بتلذذ. رواية أخرى تحكي تجربة هجرة شاب من فئة البدون بغية الدخول إلى أميركا من خلال كندا، رحلته عبر السجون بعد القبض عليه، كانت مشاعر الضغينة جلية في النص، لم أندهش عندما تحدثت إلى مُرسلها وأقر بأنه صاحب التجربة ذاتها، كانت كتابة تستحق الاهتمام، أبديت ملاحظة حول ضرورة التخلص من بعض المفردات الكاشفة، إضفاء لصفة الموضوعية على القصّ والقضية.

أتطلع إلى صورة التقطتُها في معرض الكتاب الموالي، أقف أمام جناح الدار، قرب طرفة الذي ينتصب كعادته أمام الكاميرات، يحمل كتاباً في يده اليمنى، وكنتُ أضع ذراعي على كتفه، يظهر الاسم (فيستا...) أعلى منّا، كلانا يرتدى قميصاً لونه بُني ومن حولنا مجموعة من الكتّاب. ابتسامتي تكشف بعضاً من الارتياح، رغم ظهور عدد من الأصوات الناقدة حيال قدرة شباب على قيادة ورعاية وإنتاج كتب ذات مضمون جيّد ونوعي.

زوّدت طرفة ببعض إنتاج الدار، من مؤلفات الشباب الذين شممت فيهم رائحة موهبة قادرة على المواصلة والتطور. كعادته لا يغفل مطالعة واستكشاف الجديد، عبّر لي في إحدى الزيارات عن إعجابه وملاحظاته حول بعض مما قرأه، عهدت له بإحضار مجموعة الكتّاب إلى مكتبه، مناسَبة جيدة للتعرف على أسماء جديدة، كذلك فرصة للشباب الاستفادة من خبرات طرفة. جرى هذا التنظيم في مساء أحد أيام الاثنين، كنّا سبعة أو ثمانية أشخاص غصَّ مكتبه بنا، توليت مسألة تقديمهم إليه، بادر من جهته وتحدث عن التجارب المميزة التي قرأها. كنتُ قد أرشدت المجموعة إلى هذا الطريق فحسب، بعضهم أضلّه والبعض الآخر واصله بمفرده فيما بعد.

***

بعد نهاية إحدى أمسيات ملتقى بيت الثقافة، أشار إليّ طرفة في زحام الحضور: "أريدك في موضوع" خرجنا إلى الشارع أمام المبنى، كانت الأجواء رطبة ماطرة، الأرض مبللة، تنضح منها رائحة التراب. أخرَج سيجارة من جيب جاكيته الداخلي، وأشعلها: "أفكر في إعادة طباعة السلسلة السباعية" لم أكن متأهباً لعرض كهذا. مفاجأة. لكنها بصراحة أثارت حماستي، مغامرة حقيقية تستوجب الحذر، قلت: "السباعية..". نظر إليّ كمن يستمزج رأيي، لم يقل شيئاً، فكرتُ ثوانيَ قبل أن أقول: "هل سبق تنضيدها إلكترونياً؟". هزّ رأسه، قال بعد أن نفث دخانه: "لا". كان المؤلفون آنذاك يدوّنون كتبهم بخط اليد، ثم يُكلّف أحدهم لإعادة كتابتها على برنامج كمبيوتر خاص، حتى تتولى المطابع باقي المهمة. أضاف طرفة: "حتى النسخة المكتوبة بخط اليد، ليست معي". كنتُ أراقب انزلاق قطرة ندى على ورقة شجرة قريبة، حين بدت زخات المطر تتكاثف مجدداً، أخذ طرفة يحثني: "هل من حل؟" ملتُ برأسي قليلاً، طالما النسخة المطبوعة متوافرة: "لا حل آخر، نعيد كتابتها". التفت بجسده ناحيتي: "لكنه مشروع مكلف" ردّه يضمر تحذيراً، ربما من الإفراط في الحماس، ابتسمت: "صحيح، لكنها تستحق التجربة".

سبعة كتب روائية أنجزها طرفة في زمن خارج الوجود، تَعْرِض عزلة البلدين، الكويتي والعراقي، اللذين انتُزعا بغتة من الخارطة، تقاتلا قبل تجاوز صدمتي الدفاع والاحتلال، كُتبت مثل اللقطات العلوية التي يطمح لالتقاطها في الأزمات والأحداث، هذا الحماس الذي دفعني لحظتها لإعادة نشرها. ظننتُ وقتها أن الأمر لن يستغرق أكثر من أسبوعين لو كلفت طبّاعاً متخصصاً في أداء المهمة، يسلمنا الكُتب تباعاً، لكن الحالة بدت أكثر تعقيداً من هذا. بعد تسلّمنا الجزء الأول، بدأتُ بمراجعته فوراً، واكتشفت كمّاً هائلاً من الأخطاء. كانت الخطة هي معالجة هفوات الطبعة الأولى، نخلص إلى نسخة نظيفة منقحة، مع الوقت وتكرار الزلّات رغم تحذير الطبّاع، بات الموقف مربكاً، كلمّا مضت الأيام أشعر بمزيد من التوتر، المراجعة الشخصية تستغرق جهداً ووقتاً

أكبر، هاجس المسؤولية، ربما التعليقات الناقمة التي تطلُّ من وقت لآخر، مشاعر الفشل. تحضرني ذكرى السقوط من السور، لو سقطت في الأسفل، لو ارتطم رأسي في البلاط. أستعيد نفسي، سأواصل، وربما سأصل إلى نتيجة مرضية، لكن الأمر بحاجة إلى متابعة ومراجعة دقيقة متأنية.

***

كان أمراً صعباً ومقلقاً، فكرتُ في حل آخر، أشركتُ فريقاً من الأصدقاء الموثوقين، كل شخص تولى مراجعة جزء من السلسلة، لعل الوقت يسعفنا، مطابقة النسخة الإلكترونية بالكتاب السابق وتصحيح أخطائها، عمل شاق يتطلب حضوراً ذهنياً نبهاً. حين جمعتُ الأجزاء كلها، أجريت مسحاً عشوائياً على أداء الأصدقاء، كانت المحصلة النهائية جيّدة، مشاعر من الارتياح والرضا، داخلك فخر خاص حيال مساهمتك في حفظ إرث أدبيّ عربيّ أشبه بالوثائق المصوّرة عن أكبر حدث عصف ببلدك، مرحلة انتقاء الأغلفة، وإسقاطها على العناوين الغرائبية التي وضعها طرفة لكل جزء (جوف الحوت، شاكلة الجبهات، قيود العواصف، الدوائر الأبدية، ساعة بابل، الاستحالة، العورة). افتتاحية عظيمة لبدء العمل والتعاون مع طرفة، الإعلان كان مفاجئاً للوسط الأدبي: ”دار فيستا للنشر والتوزيع تعلن عن...“ فرصة حقيقية لإسكات بعض الأصوات المهاجمة، هذا الأمر سهّل عليّ مهمة إقناع آخرين سعيت إليهم للحصول على نصوص جديدة قيّمة، كانت الفكرة أن نؤمن للدار جمهور القراء من النوعين الثقيل والخفيف. ما حصل بعد ذلك أن تداعت دور نشر منافسة، سعت لإعادة طباعة كتب أخرى تعود إلى طرفة!

١٤

وكان السؤال المُلحّ الذي لم يغادره قطّ: كيف تنهزم جيوش متحدة تحاصر منطقة من كل الاتجاهات!؟

بعد عدة شهور من الأحداث الأخيرة، سُئل طرفة عن أية كتابات جديدة، فأجاب: "قررت التوقف عن الكتابة!" لم يقل نهائياً، ولم يقل مؤقتاً كذلك، لكنه كان غاية في الجدية، قراره مرهون بفهم الداعي لمعاودة هذا الفعل. التساؤل الذي يحوم حوله: "لماذا أكتب؟" وعلى عكس مزاجه العام، كان زواجه من غنيمة فرصة جديدة، متسعاً آخر للتجديف في نهر الحياة الراكد. اهتماماتهما المشتركة، القراءة، إضافة إلى السينما التي أخذت حيزاً أكبر من فراغه الفسيح، بعد سلسلة من المواجهات المتلاحقة مع العائلة، التخلي المتبادل، الموطن، الانتماء، اللقب في نهاية اسمه، لم يكن بحاجة لغير ذاته، اعتداده بنفسه أكبر من إحساسه بالجماعة، لم يكن هذا أمراً طارئاً، لطالما سارت حياته على هذا النحو.

***

ورغم احتفائه بالزواج من غنيمة، وتنامي يقينه، يوماً بعد آخر، بأنها الفتاة التي بحث عنها طويلاً، إعجابه الذي لا يخفيه كتابة أو تصريحاً وتعبيراً، فإن جانباً من شخصه ما زال يعاني من الخرس. القنوط حيال كل ما يحيط به من معانٍ وخطابات قد تثير مشاعر الأمل والمجد، الشك أولاً وآخراً حتى تثبت الأشياء العكس. عديد الأسئلة التي لا يجد لها إجابة، طرفة نفسه أصبح يتسلك بسلوكيات جديدة من دون أية مسوغات، مثل تخليه عن ارتداء الدشداشة الكويتية، وعودته إلى البنطال والجاكيت، بدت شخصيته آخذة بالتغيّر، حواراته مع من حوله شحيحة، مضطرب، يفقد أعصابه بسرعة، حتى إنه في أحد الأيام لم يحتمل صفاقة أحد طلابه، فصفعه على الفور دون أن يتدرج بالعقاب، وكان لهذا السلوك أثره لدى إدارة المدرسة. بعدئذٍ، عادت الحياة إلى طبيعتها، أو

ربما هكذا ادعى الناس وحاولوا أن يكونوا كما السابق، وراحوا يمارسون أدوارهم، أو يمثلونها. أمّا طرفة فقد كان يحاول الهرب فحسب، إلى داخله، وإلى التاريخ.

التوقف عن الكتابة يرافقه شعور بالذنب، مثل فريضة تخلى عنها، خصوصاً أنه منذ سنوات كان لا يترك أسبوعاً يمر دون أن ينجز قصة أو قصيدة. كان يستبدل جلده، عملية التحوّل تحتاج إلى قدرة تحمّل فائقة، غنيمة أدركت أن مزاجه يتبدل على نحو مستمر، ظنّت أن هذا الاضطراب ليس سوى شخصيته الطبيعية، عصبيّ بعض الأحيان، لكنها حاولت أن تستوعبه، كانت تعي أن في داخله طفلاً حزيناً، أوعزت هذا إلى موقف العائلة، تصديه ربما ندمه على هذا، لكن طرفة كان في ضفته الأخرى التي تحمل أسباباً مختلفة.

كنتُ أجده دائماً في المقهى الشعبي، لا أوراق ولا أقلام بعد الآن، كُتب تغطيها أغلفة جلدية صماء، يَنظر إليّ بطرف عين يرد السلام بصوت خفيض، كنت أعرف أنه يحاول أن يقول: "اتركني وشأني" لكنني أصرّ على البقاء. كل مرة أسأله عن الكتاب، يجيب باختصار: "تاريخ، العصر الجاهلي" بعد وقت: "العصر الأموي" وقت آخر "المماليك، العثماني، الاستعمار". في إحدى المرات كان ردّه: "أبحث عن إجابة".

***

"هذا الشارع بالتحديد، أحد أسباب بقائي في منطقة شرق" كنّا نقطع الطريق الساحليّ أمام المدرسة الشرقية المشتركة للبنات، وكان طرفة يشير إلى المساحة الفاصلة بين الشارعين، المرصوفة ببلاط يتوسطها أحواض ترابية متوالية زُرعت فيها أشجار نخيل صغيرة على مد النظر.

"البحر قريب مني، وكلما ضاقت بي الأفكار أطلق ساقيّ بمحاذاة شريط الشاطئ حتى أصل إلى فندق الشيراتون، هناك نخلة كبيرة بعد الكنيسة، أستريح بالقرب منها". شتاء الكويت شديد البرودة، الرياح الآتية من البحر في فترة النهار نافحة، تعامد قرص الشمس مطلع الظهيرة يضفي إحساساً مختلطاً يراوح بين متعة الدفء وانفراج البرد، طرفة يفرد كفه خارج مساحات

الظل يوازن درجة حرارة جسده: ”في المساء لا أصمد طويلاً عند مواجهة هذا الصقيع“. يستغل أيام العطل يتأمل وجه السماء، يتحدث عمّا استنتَجَهُ من القراءات السابقة، يحلل تلاطم أحداث التاريخ، ترابطها، انحدارها وازدهارها: ”معرفة المسار الزمني واجب قومي“ هذه إجابة شاملة وخاصة حين أعلّق على وجه العموم عن وجوب صهر هذه القراءات وإفرازها على شكل كتابة إبداعية: ”معرفة أصولك وجذورك ضرورة ثقافية“. أستوقفه: ”على الأقل انشر رواياتك التي كتبتها في السنوات السابقة“ يلتفتُ إليّ. شعاع الشمس في إحدى عينيّ، العين الأخرى تجاهد من أجل رؤية ردة فعله، يتبدى رأسه وهو يهتز، ثم أسمعه: ”ربما لم يحن وقتها بعد“.

كنّا قد وصلنا إلى نخلته التي تحدث عنها، شاخصة من مسافة بعيدة، راسية على ناصية براح، لا شيء في المكان سواها، تُرى وكأنها إشارة إلى الوصول. ألقى طرفة تحيته عليها، ثم أخرج قنينة ماء ورش جذعها وطاف من حولها يبلل الأرض التي تحيط بها، ثم ثبّت قدمه على كَرَبها وتسلق ساقها حتى تمكّن من قطف إحدى ثمارها، تفحصها وغسلها بما تبقى معه من ماء. ثم قال: ”اجلس الآن“.

***

إسماعيل ورقيّة أصبحا تحت رعاية غنيمة.

أمّا طرفة، بعد أن تخلى عن ارتداء الدشداشة، ظن طلابه الجدد أنه عراقي الجنسية، لهجته الآخذة على لحن مد الحروف الناعمة، نبرة البصرة الهادئة الودودة، عيناه الخضراوان، إضافة إلى ملابسه التي تدعم هذا الافتراض. لم تكن تعنيه ظنون وتعليقات الآخرين، في المدرسة أو خارجها، لكنه أخذ ينزعج قليلاً عندما يذهب لإنجاز معاملة حكومية، في بعض الحالات يضطر إلى إخبار الموظف بأنه كويتيّ قبل أن يرسله لاستكمال بعض الإجراءات الخاصة بالمقيمين، أو يطلب منه إثبات عمل، أو يسأله عن أحوال العراق. استحضَرَ طرفة معاناة حالة التمييز أو الإبعاد العاطفي عقب قصيدته الشهيرة في وجه نظام قاسم ”أنت لست منّا“، سجنه وكوابيس الإهانات التي لاحقته، الموت

الذي ظلّ يتفقده بين الحين والآخر، وربما سجن جديد ينتظره الآن، كان متوتراً على مرّ تقلبات الأيام، أنا كويتي، أنا عراقي، لا أحد يشعر بذلك، لا أحد يقرّبه إليه، "أنت كويتي؟!" هكذا يواجه سؤال الموظف بعد أن يتسلم مستنداته الثبوتية، سؤال مبطن بالاستنكار. يتمتم إلى نفسه: "ربما حان وقتها".

أصعب مواجهة يتعرض لها المرء حين يكون المجتمع طرفاً مقابلاً. في بعض الأحيان، الزمن يذيب الأثقال النفسية، الإقصاء، بقصد أو دون قصد. أتذكر حادثة جرت في تلك الأيام، قصّها لي حين جاء إلى مدرسة المتنبي مدير جديد، وأخذ يراقب طرفة من كثب في أيامه الأولى، التزامه بالعمل، دفتر تحضير الدروس، رصد درجات الطلاب وتصحيح الواجبات، ربما أوعز إليه أحدهم بذلك، طرفة حين يدخل الفصل، يطلب من الأولاد أن يفتحوا الكتاب المدرسي: "قراءة صامتة..." يحدد لهم الصفحات، من كذا إلى كذا، بعد عشر دقائق، يختار أحدهم: "فلان، خذ الطبشورة واكتب على السبورة سؤالاً ممّا قرأت". فينتقل من تلميذ إلى آخر حتى يحصل على مجموعة مناسبة من الأسئلة، ثم يتحول إلى مرحلة أخرى: "فلان، اذهب وأجب عن السؤال الأول" ويستمر حتى تنقضي كل الإجابات. دهم فصله مدير المدرسة ذات يوم في الدقائق العشر الأولى: "أستاذ طرفة، تفضل عندي المكتب" كان يدرك على نحو ما مراد المدير، لكنه تظاهر بغير ذلك، اختار أن يبقى صامتاً إلى حين أن يقول الآخر ما الداعي لهذا الإجراء: "أستاذ أنت لا تعطي طلابك المنهج المقرر" نظر إليه طرفة إثر هذا الحكم النافذ: "من قال هذا؟!" كان واضحاً على المدير استعداده لمواجهة أي اعتراض، كما بدا له جلياً أن أحدهم وسوس إليه ببعض الأفكار المغلوطة: "لا أحتاج إلى أحد أن يقول، رأيتك بعيني تجلس صامتاً، تكاد تغط في نومك داخل الفصل". طرفة يبدو هادئاً لا يتأثر بادعاءات المدير: "غير صحيح" ودّ الآخر أن يقول: "كيف تجرؤ" لكنه لم يمنحه فرصة كافية: "أحضر أيّاً من الطلاب، واطرح عليه ما شئت من المنهج". أخذ الموضوع أبعاده في التجاذب، ورغم سكينته في التعامل مع الأمر فإنه يفرغ مشاعره الغاضبة في المساء، شيئاً عندي وربما أشياء عند غنيمة.

أثبت طرفة صحة ردّه فيما بعد، ربما استعان بالطلاب أو رئيس القسم أو الموجه الفني، ومع تقادم الوقت تآلف المدير معه، ودعاه ذات يوم إلى مكتبه، قال: "هذه المرّة أرشحك لتكون المشرف العام على النشاط الطلابي" وفي حال قبوله سيتم انتدابه للعمل في المنطقة التعليمية. راق لطرفة هذا الأمر، شعر أنه سيُمنح أخيراً بعض الخصوصية والعزلة، المنطقة الدافئة التي يفضل العمل في دائرتها، لكن المدير أضاف شرطاً وحيداً حتى يتم قبوله: "عليك ارتداء الزي الوطني". تلقى طرفة الطلب ببعض الخيبة: "غترة وعقال؟" هزّ الآخر رأسه مؤكداً. لم يعرض عن الأمر، فقط قال في نفسه: "ربما حان وقت نشر أولى رواياتي".

***

"هل أرى أول شعرة بيضاء في رأسك؟".

بالقرب من الشاطئ، مقابل المستشفى الأمريكاني الذي توقفت خدماته الطبية قبل سنتين تقريباً، قال طرفة: "أرجو ألا يعبثوا بهذا المبنى الجميل". مددت يدي محاولاً التقاط خصلته التي تطيّرها رياح البحر، التفت إليّ: "اتركها، ليست الوحيدة في رأسي" ابتَعَد عن المنطقة الرملية إلى أرض صلبة، ركن إليها وقرفص ثم أشعل سيجارة ووضعها في طرف فمه: "البارحة، رأيتُ في منامي أنني أزور بلاداً يحكمها ثلاثة عساكر أشداء". كنتُ أحاول أن التقط حصاة مغموسة في التراب: "أشداء! كانوا يطلقون الرصاص مثلاً؟" أجاب وهو يفرّق دخان سيجارته: "شعرتُ بذلك، نياشينهم كثيرة، وجماهير غفيرة تهتف لهم". كانت صخرة ناعمة بيضويّة لها رأس مدبب، نظفتُها، أمعنت النظر فيها، ثم أخفيتها في جيبي: "وما تفسير هذا؟". نهض طرفة، وسار باتجاه المستشفى المهجور: "تفسير هذا أنني سأزور بلاداً يحكمها ثلاثة عساكر أشداء".

***

عند نخلته الكبيرة، على ناصية البراح، يمكننا مشاهدة فندق الشيراتون على مسافة من هذ المكان، يقطف طرفة عدداً من حبات الرطب، ينظر إليها، ينظفها ويناولني بعضها: "هذا بِرحِي، أشتاق كثيراً إلى منظره وهو يتدلى من نخيل الغابة المقابلة لمنزلنا في السيبة". أقضم البِرحِيّة، ثم يتناهى إليّ صوت مضغها؛ تبدو ناضجة كفاية: "إذا حصلت على بيت، سأزرع نخلة مثل هذه، أو ربما أكثر". كان صوته قد اهتز قليلاً، نظرتُ إليه، ثم أحسست أنني قد أتسبب له ببعض الحرج، بدا وكأنه يستعيد شيئاً من ذكرياته، أخذ يقول إنه يفتقد بعض الأصدقاء الذين غابوا في السجون، بعض منهم ربما نُصبت لهم المشانق. آثرتُ الصمت، حاولت أن أعطيه مساحة كافية حتى يُفرغ ما بداخله، لكنه لم يستغرق في ذلك. أخذ شهقة عميقة: "المهم..." ثم سعل مرتين: "انتُدبت إلى قسم الأنشطة في وزارة التربية" ودون أن أعرف أهمية الخبر، قلت: "عظيم". أخذ يمضغ بِرحِيّة أخرى قبل أن يتابع: "كان أحد الشروط أن أرتدي الزي الوطني، كاد الأمر أن يفشل، لكن مدير قسم الأنشطة شاعر طليع، ومن حسن الحظ أن اسمي بدا مألوفاً لديه، فسعى إلى إنقاذ الموقف وتجاوَز مسألة الغترة والعقال". كنتُ أرمي بذر الرطب حول حوض النخلة: "ممتاز".

"على ذكر الشعراء، سمعتُ، من مصادري المطلعة، أخباراً حول زيارة الشاعر المصري المعروف، عماد عبد الغفور، من أجل لقاء إذاعي". لم يبد أي تعليق، لكنّ عينيه بدتا تستنكران ادعاء نبوغ مصادري. "فرصة، ترسل له أحد نصوصك، صدقني، حان وقت نشر كتاباتك". وبعد انقضاء صوت مضغ آخر حبة بِرحِي، فاجأني طرفة حين أخبرني بأن سبق له نَشْرُ مجموعة قصصية في العراق قبل سنة من مجيئه إلى الكويت، انتخب فيها أفضل ما لديه، لكنها لم تأخذ نصيبها من القراءة، وطرفة نفسه كان يترنح ما بين الاعتقالات وأفكار الالتحاق بعائلته.

خلال عودتنا، على الطريق الساحلي، كان شارد الذهن، يضع يده خلف ظهره، فقط يدخن سيجارته ويعيدها إلى مكانها. في المساء أفضى إلى غنيمة بما دار بيننا، دَفَعتْه الأخرى دون تفكير، أيّدته: "لم يحن الوقت فحسب، بل تأخرت" قبل أن يغمض عينيه في السرير، كان قد قرر أن يبحث عني يوم غد.

***

بعد يومين، وجدته في المقهى رفقة كتاب مغلف بجلدة خضراء، سحبت الكرسي من أمامه، صدر صوت احتكاك عالٍ، فزّ طرفة، اعتدل وكأن فأراً دبَّ تحت رجليه: "أبحث عنك منذ يومين". حماسته أثارت فضولي، أخرج مظروفاً كان قد وضعه على كرسي آخر، كَتب على صدره بخط أحمر (عناية السيد عماد عبد الغفور) قال: "كيف نسلمها إلى الشاعر؟" ابتسمتُ، وقد بدا عليّ الارتياح: "أخيراً" أخذت المظروف، أحسست أنه رفيع بعض الشيء، قلت: "ما بداخله! قصة قصيرة؟" نظر إليّ باستياء: "ليس من شأنك".

مصادري المطلعة، صديق، تربطه صداقات مع بعض العاملين في وزارة الإرشاد والأنباء. كنتُ أنظر إلى المظروف طوال اليوم، بودي لو أفتحه وأقرأ شيئاً مما ينوي طرفه نشره، لكنني كل مرة أمرر إصبعي على الطرف اللاصق، رأس المغلف، أتذكر توصياته التي تضمنت شيئاً من التحذير: "معي نسخة، وهذه نسخة أخرى وحيدة، أمانة عندك حافظ عليها" لو تسنى لي الأمر أن استأذنه، ترددت في طلب ذلك، عماد عبد الغفور يحظى بأهمية عربية كبيرة، يأتي إلى الكويت لفترة وجيزة. صديقي قام بدوره، أرسلني إلى شخص آخر، حدد لي يوم ووقت تسجيل الشاعر للقائه الإذاعي. أول مرة أزور مبناهم، كان هناك باصات من طراز (فولكس فاجن) تصطف في الخارج بالقرب من المدخل، توجستُ في البداية، صديقي قال: "اسأل عن شخص يدعى راشد عبد الله". مقرّ الإذاعة بدا لي وكأنه أكثر من مبنى منفصل ومتجاور، مكون من طابق واحد، اقتربتُ من حارس الأمن عند البوابة، "لو سمحت وددت لو أقابل الأخ..." هز رأسه مؤكداً عدم معرفته، أشار لي بالدخول، خطوتُ نحو المدخل، بدت لي الممرات كثيرة، أناس يسيرون على عجلة من أمرهم، يبدو أن حضور الشاعر له أثره على الموظفين. "لو سمحت، أين أجد الأخ راشد عبد الله" أشار إلى المكتب قبل الأخير نهاية الممر.

جَلَبَة المكان تمنحني إحساساً بأهميته، كنتُ أتفقد الغُرَف التي أمرّ بجانبها، بعضها تحتوي على مكاتب مليئة بالأختام والأقلام، البعض الآخر مكتظة

بالرفوف والملفات، ألحظ موظفين منكبين على أوراق ودفاتر، وآخرين يشربون الشاي ويتحدثون بانفعال، أما في الغرفة المعنية، فيجلس رجل يعقد الغترة على رأسه من غير عقال، لفت انتباهي وجود هاتفين على مكتبه، واحد أسود والآخر أحمر، يلقي بتركيزه على ملف يمرر إصبعه على أسماء أو أرقام ربما. ألقيت التحية، رفع رأسه ورمقني دون أن يجيب، بعد ثانية ردّ بصوت خفيض، قلت: "الأخ راشد؟" منحني بعض الانتباه هذه المرة، تبدت عليه ابتسامة مجاملة: "تفضل" شعرت أن ملامحه مألوفة بعض الشيء، عرّفته بنفسي، نهض من مكانه فوراً وصافحني، لم يكن يعرف سبب قدومي إلى الإذاعة: "معي هذا المظروف، أريد أن أسلمه إلى الشاعر عماد" مدّ يده تناوله مني، قرأ المكتوب على واجهته: "بسيطة، تفضل معي". تحدثت أثناء عبورنا أحد الممرات حول أهمية الأوراق، وضرورة تسليمها إلى الشاعر بيده: "اطمئن" توقف عند إحدى الغرف، طل بداخلها: "وصل الشاعر أم بعد؟" كانت غرفة المراقبة الرئيسية، كما كُتب على اللوحة خارجها، أحدهم يضع سماعة ويقف عند جهاز ارتفاعه يقارب السقف، مليء بالأزرار ودوائر التحكم، يقف خلفه شخص آخر بيده دفتر يسجل فيه بعض الملاحظات، التفت إلينا الأخير، نظر إلى ساعة يده: "ربما يوشك على الدخول إلى الأستوديو الآن".

بدأ راشد يسير بشكل أسرع، دلفنا ممرّاً آخر، تهت قليلاً حتى وصلنا إلى الجزء الخاص بالأستوديوهات، بدأت أشعر بالبرد، تناهى لي طنين أجهزة التكييف، سأل راشد أحدهم في الطريق عن الشاعر، أجابه الآخر: "الحق به، للتوّ دخلوا...".

دفعتُ الباب بعد راشد، كان ثقيلاً بعض الشيء، وكنت متردداً في تتبعه. هناك ممرّ صغير ينتهي بباب، وعلى يميننا باب آخر موارب، دخلناه بهدوء وحذر: "صباح الخير" بصوت هامس، كان هناك شخصان يجلسان وراء طاولة مكتظة بالأزرار وأيقونات إلكترونية، يضعان سماعتين على عنقيهما وأمامهما نافذة كبيرة بعرض الحائط محكمة بزجاج شفاف. ردّ أحدهم التحية: "أهلاً راشد" شعرتُ بالارتياح عندما علمت أن الرجل يعرف صاحبنا: "بدأتم التسجيل؟" راشد يقول هذا بينما يبدو من وراء الزجاج، أحدهم يضبط الأسلاك

والتوصيلات أمام الشاعر الذي لم أرَه من قبل، لكنني أدركته بسبب بدلته الأنيقة وشعره القصير الذي يسرحه إلى الخلف، أما الرجل الذي يحاوره فكان يرتدي الزي الوطني.

نظر الرجل إلى ساعة في الحائط: "خمس دقائق" اقترب منه راشد، همس في أذنه، رد الآخر: "لا بأس، لكن بسرعة" خرج مسرعاً، أشار لي بيده، فهمتُ أنه يطلب مني الانتظار، دخل إلى غرفة التسجيل، رأيته يتحدث إلى المحاور من عند الباب، لا أستطيع سماع أيّ شيء من مكاني، ثم اقترب منهما وصافح الشاعر، الذي تسلّم منه المظروف، وتناول نظارته الطبية من على الطاولة أمامه، فتحه، أخرج رأس الأوراق، يبدو أنه يقرأ العنوان، سريعاً أعاد الأوراق ووضعها أمامه. هز راشد رأسه إلى الشاعر، ثم نظر إليّ من وراء الزجاج، وأشار بإبهامه إلى الأعلى مع ابتسامة.

***

شعر طرفة بالارتياح، وكأن الرواية قد نُشرت بالفعل.

رمى بعض أحماله، وفكّر في السفر. ركوب طائرة لأول مرة في حياته بنيّة قضاء شهر العسل، لم تشاركه غنيمة في اختيار الوجهة، منذ أن كان في العراق وهو يحلم بزيارة موسكو، فقط تظاهر بأنه يقترح عليها: "ما رأيك في زيارة بلدة أوروبية باردة؟" لم تمانع زوجته، فقط طلبت أن ترى لبنان يوماً ما، وتركت له قرار تحديد الوقت. كانت غنيمة ما تزال تمارس الكتابة، لكنها منذ زواجهما كتبت قصتيّن فقط، أو محاولتين على حد قولها، إثر تبعات الحياة الجديدة، وانتقال الأطفال إلى حضانتها. مع هذا حرصت ألا تفلت منها القراءة، في كل أوقاتها السانحة، في عملها بين الحصص الدراسية، وحين تستلقي في الليل قرب الطفلين قبل أن يناما، وعند انتظار نضوج طعام الغداء في مطبخها، وعندما يقبض طرفة على كتبه في البلكون، تشاركه الفعل بعد أن تُعدّ كوبي شاي.

لا أعرف على وجه اليقين، ماذا رأى في موسكو، وكيف شعر حيالها، فقط أخبرني بترهات عامة يهذر بها أي سائح، لم أجده معجباً بها أو متحمساً لتكرار

زيارتها كما حدث عندما عاد إلى البصرة، بعد أن طمأنه الأصدقاء بتغيّر أحوال البلد إبان حكم أحمد البكر، عهد جديد مغاير بالفعل، توقفت الاعتقالات، على حد علمهم، هذا ما حدث مع ثلة الرفاق الذين شاركوا طرفة الزنازين. عقد أمره، وأخذ معه غنيمة التي لم ترَ العراق من قبل، ونزل في فندق شط العرب الذي تبدو واجهته مثل منارة مطلة على ضفاف النهر، وموقعه الفريد القريب من المطار، أصبح محط سكنه الدائم في كل مرة يعاود الزيارة، رغم عروض الأصدقاء الكثيرة باستضافته في بيوتهم، واحتفائهم بالذكريات والمغامرات.

***

كلما مضى الوقت، ارتاح طرفة إلى زواجه واطمأن إليه.

غنيمة لا توافقه الرأي كل مرة، تناكفه، تعارضه، تمنحه أفكاراً جديدة، كما يحدث أن تصغي إليه وتُعجب بآرائه، خصوصاً فيما يتعلق بالكتابة. يقرأ لها مما يكتب، ربما النص الذي أرسله إلى الشاعر عبد الغفور، تشعر بالغيرة بعض الأحيان في الجزئيات التي تُظهر بعضاً من مشاهد العلاقات العاطفية، يرى ملامحها تتبدل، قالت له ذات مرة: "هذه أحداث حقيقية، صح؟". ينكر بدوره، إبداع الروائي الحقيقي ينبت من خيال، يقول لي في المقابل: "أكذب عليها، بلا شك، أصبحت أتجنب اطلاعها على هذه الفصول، فأقفز فوق بعض الفقرات" لكنه مستمتع بما يحدث معه.

غنيمة شغوفه مثله، تطرح الأسئلة وتسعى لاكتشاف كل ما حولها، نشيطة جداً. في موسكو كانت تجوب معه الطرقات وتقترح عليه زيارة منطقة أو دخول متحف ما، تسير معه ساعات دون أن تتذمر من تعب، كل شيء تقريباً كان مثاليّاً بينهما، حتى عندما جاءه ذات مرة مدير قسم الأنشطة: "تم ترشيحك للالتحاق ببعثة دراسية في مصر". لمعت الفكرة في رأس طرفة، لكن هاجس البُعد عن غنيمة أخفَتَ بعضاً من بريق الخبر.

***

كانت منحة دراسية بدعم من منظمة اليونسكو، متعلقة بالفنون الطلابية أو الأنشطة التربوية، لست متأكداً، وطرفة لم يكن واثقاً بأي معلومة مرتبطة في هذ الشأن حينها. القاهرة فقط، هي التي توهجت في رأسه. قيل له إن مدة البعثة قد تمتد إلى قرابة سنتين، فأعمل ذهنه قليلاً قبل أن يخلص: "إذن أحتاج أن تكون زوجتي برفقتي". لم تمانع الإدارة، وأخذ يعد عدته للرحيل، وقبل أن يجري أية ترتيبات عائلية، ساقته بعض الأفكار حين استيقظ فجر اليوم التالي، ولم يتمكن من معاودة النوم، فهمس في أذن غنيمة وهي ما تزال نائمة في فراشها: "سأسافر إلى البصرة، وأعود في الغد". تذكر شاعراً مصرياً آخر أقام معه صداقة في مدة قصيرة لكنها بدت وثيقة وعميقة، وقت زارهم في إحدى مناسبات البصرة الثقافية. استضافه أحد أعضاء مجموعة الكوخ، ودّ لو يحصل على طريقة تَواصُل معه. قال في نفسه: "لا بد من سبيل إلى الشاعر عبد الغفور". رغم أن طرفة قد ترك عنوان بريده ورقم هاتف عمله في الصفحة الأولى من روايته، فإنه لا يثق برغبة الآخر في تكبد عناء الوصل فيما لو لم يعجبه النص.

***

الشاعر الآخر يدعى الخال الهلالي، رجل نحيف طويل، تميّزه بثرة بارزة قرب أنفه وشعره الأشهب المجعد، كان قبل أن يترك البصرة في زيارته اليتيمة كما يبدو، أقسم على طرفة أن يُقيم في بيته لو زار مصر يوماً ما، أما الآخر فكان قد وعد نفسه أن يزور القاهرة التي قرأها في نجيب محفوظ. وكأن الاثنين قد رسما لهذا الموعد منذ أزل، ولو أنه سيحدث بعد أن يُسْقِط الزمن كل الوعود والعهود.

الخال الهلالي يسكن الأرياف.

قنا، ريف مصر، في المقابل السيبة مسقط رأس طرفة. بُنية الهلالي الجسمانية مثيلة إلى حد ما بالآخر، إذا استثنينا تفاوت الطول، عظام وجهيهما البارزة، هذا التشابه الشكليّ لم يفطنا إليه، لكنهما أحسا بالتفاهم، أو الاندماج، بعد أن استظل الضيف في رحاب طرفة، وطاف به القرى وأبحرا في أهوارها،

الخُضرة وشمس الضحى والنسيم الآتي من قنوات الطبيعة. لا يتذكر الخال شيئاً من العراق سوى الرحلات الشاعرية التي جدولها له صاحبه، وقصص الليل عند مراسي النخيل، الأساطير وأطياف الطفولة ومغامراته الكثيرة، وأشجار الرمان، التي راح الخال يبرم ثمرتها، يلفها كما يفك لمبة من السقف، ويستذكر قصص سرقات الفواكه في الصبا من بساتين الجوار. توصل إلى رقم هاتفه، اتصل به من البصرة، لم يتحصل على ردّ، اضطر أن يبقى إلى وقت متأخر، يعاود الاتصال حتى تمكن منه، ورغم اللقاء البعيد الذي مضى عليه تسع أو ثماني سنوات تقريباً، وتلته أحداث عاصفة كثيرة، فإن اسم طرفة المميز يُسهل مهمة تذكره: "التقينا في البصرة سنة كذا..". ضحك الهلالي فور حضور صاحبنا في ذاكرته: "من أين ظهرت بعد كل هذه الأحوال؟!" أوجز له الآخر سبب قدومه إلى مصر، لكنه حاول أن يضفي مدعاة أخرى لهذا الاتصال: "ربما سأبقى مدة عامين، لا بد من لقاء". صوت الخال ينم عن أُنس وبهجة إثر المكالمة: "لقاء بس! في أي تاريخ ستصل؟" لكن طرفة لم يكن على دراية بأية تفاصيل: "لم يحدد موعد السفر بعد، فقط سأتصل بك فور بلوغ مطار القاهرة".

***

بقي طرفة يوماً آخر في البصرة، احتفال أصدقائه بالمنحة الدراسية يحتاج إلى سهرة أصيلة تُذكرهم بأيام المراهقة والتسكع في الميادين والمقاهي والحانات. خطر في بال أحدهم: "احتمال غيابك مدة عامين، نحتاج يوماً إضافيّاً نجوب فيه الأنحاء" اقتنع برأيه، لا مانع أبداً، مرَّ على بيت ابنة الجيران في محاولة لاستجداء بعض العواطف التي ولّت. لم يعد يتذكر أخاها إلا ببعض المجلات اليدوية التي كانوا يحتفظون بأرشيفها معه، لا يعرف إذا ما كانت موجودة الآن أم إنها اختفت مع كوخهم، مع رحيل ابنة الجيران، مع طيّ الذكريات.

توقد الحنين في قلب طرفة، شعر كما لم يشعر من قبل، كأنه نبش قبراً بداخله فأحيا بدنه الراقد المهمل، توارى عن الأصدقاء خفية وراء شجرة حين

داهمت عينيه دموعهما، لم يحدث معه هذا من قبل سوى حين رحلت طليبة. كانت زيارة خاطفة لحاجة، أصبحت يومين أو ثلاثة قابلة للزيادة لولا تذكره غنيمة التي رآها في خياله وهي تنتظره على عشاء ليلة غيابه، احتضن أصدقاءه كما لو لن يراهم أبداً.

حين وصل إلى الكويت، لم يجد زوجته ولا طفليه في شقته، توجه على الفور إلى بيت والده، بدوا في حالة استنفار عارمة، كان استقبال أهله كما وداعه لجماعته في البصرة: "ما الذي جرى!؟" كان مندهشاً من ردة فعلهم، تساءل جمع الحضور من إخوته ووالدته: "أين اختفيت!!" نظر إلى غنيمة بالذات من بينهم: "قلت لكِ سأسافر إلى البصرة وأعود". فطن في اللحظة أن وعده كان العودة في ذات اليوم، الأعجب أن زوجته بالأساس لم تكن واعية حين همس في أذنها، لم تسمعه أبداً، انتظرته في ذلك اليوم على الغداء والعشاء ووجبة إفطار اليوم التالي، لم يأت أي خبر. أخذت الطفلين وهرعت إلى بيت أهله: "طرفة مختفٍ منذ البارحة" لم يجدوه في عمله أو المقاهي أو دور السينما، ولا المكتبات أو الشطآن ولا بجوار أي نخلة.

***

دائماً هناك نخلة تنتظره في كل بلد يرتحل إليه. تحضر النكسة بكل ثقلها، تحطها شمس القاهرة في رأس طرفة، لحظة وقوفه خارج حدود المطار، يدفع عربة تحمل أمتعتهما، يبحث عن تاكسي شاغر. كانت السفارة قد وجهت طلاب البعثة إلى أحد الفنادق للإقامة فيه مدة قصيرة قبل أن ينتقلوا إلى سكن آخر. كلاهما، طرفة وغنيمة يتأملان من نافذة السيارة شوارع القاهرة، الباصات والترام والحناطير، الناس والأسواق والميادين الفسيحة، الجسور التي تقطع النيل من ضفة إلى أخرى، التماثيل التي تزيّن التقاطعات، المقاهي الموعودة بالسهر والقراءة.

الحرارة التي تنفذ من الخارج تضرب رأس طرفة، لكنه لا يبتعد عن زجاج النافذة، ينظر في الوجوه العابرة، يحاول رصد الشعور الذي يطغى على المدينة، كيف كانت؟ وكيف هي الآن؟ الأرصفة والنواصي والطُّرق مزدحمة

بالناس، حركة متواصلة غير منقطعة، شيء ما يحاول تجاهل الخيبة. تسأله غنيمة: "ما اسم الجامعة؟" يناولها الجواب بعد لحظة صمت، ودون أن يشيح عن مَشاهِد الخارج: "لا أعرف". تعاوده بعد دقائق: "ما اسم المنطقة؟" يجيبها بآليته: "لا أعرف". تتخلى هذه المرة عن استخدام أداة الاستفهام: "المدة التي سنقضيها في الفندق؟" أخذ يحك أذنه اليسرى: "لا أعرف". وبعد دقيقة، تيقن طرفة أنها لن تطرح سؤالاً آخر، فقال: "أعرف أن السينما أول مكان سنقصده".

***

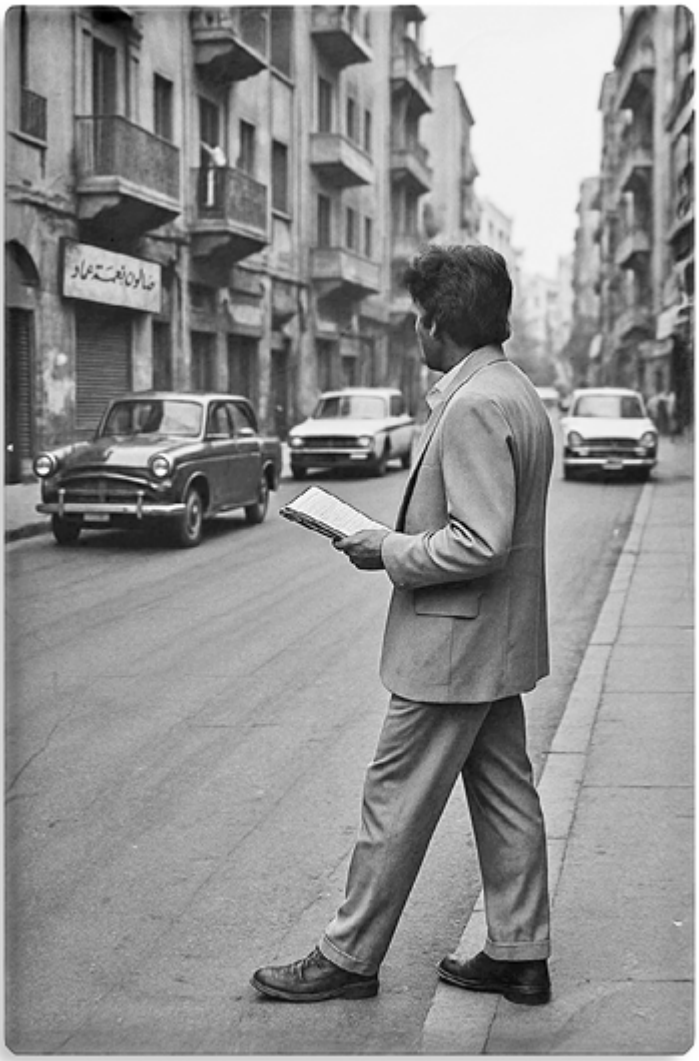

”بهذا الفعل، سنفتتح أول لقاءاتنا بمشاجرة“.

هكذا قال الخال الهلالي، بعد أن جاء من قنا إلى فندق إقامة طرفة، وحين علم أنه قد وصل القاهرة منذ أسبوع. ”أسبوع!!“ ردة فعله مستغربة وغاضبة ومعاتبة ”كيف تفعل هذا بي!؟“ حاول طرفة أن يبرر تأخره بانشغاله في تجهيز مكان الإقامة: ”معي زوجتي“ لكن الخال زاد حنقه: ”وأنا زوجتي معي“. وكلُّ حجة يردها الهلالي بطريقته حتى اعترف له طرفة بشعوره الطارئ الذي ينم عن حاجته إلى رؤية المدينة بصفاء، التعرف عليها عن قرب، مواساتها، اكتشافها والتحدث إلى الناس دون وساطة، وتلهفه إلى مشاهدة الأفلام الصادرة حديثاً، والتي تصل الكويت متأخراً، ودَّ ركوب الزوارق الصغيرة حتى يقترب من النيل، يشمه، يستطعمه. نظرات الخال غير متسقة مع شبح الابتسامة في فمه: ”يا أخي، لن ألتصق بك طوال الوقت، اطمئن“ ثم أخرج علبة سجائر من معطفه ومدها إلى الآخر: ”خذ دخّن، أفضل لك من هذا الجدال“.

مكث الهلالي مدة أسبوعين في القاهرة عند جماعة من أهله، وكانت معه زوجته الناشطة في مجالات البحث والتوثيق، والتي عقدت صداقة مع غنيمة منذ لقائهما الأول، ولأن اتصال طرفة تأخر كثيراً، عاقبه الخال بصينية إفطار يجيء بها وزوجته كل صباح، وقبل طلوع الظهر، تبْقى الزوجتان سويّة، وينصرف الزوجان إلى قضاء متاعهما في الحواري والأزقة والأسواق. تفاجأ الهلالي أن بحوزة طرفة أحد دواوينه الشعرية، عندما طلب منه كتابة إهداء خاص كي يحتفظ به للذكرى. قال طرفة: ”ما زالت إحدى قصائدك التي ألقيتها في ملتقى البصرة عالقة في ذاكرتي“ وراح يستدعي مدخلها، ينتصب الليل مثل حائط شاهق، ينهار على غرة لحظة صياح الديك. تهلّل وجه الهلالي، وهزّ رأسه يحثه على المواصلة: ”أما البيت الذي طوّق عاطفتي في هذه القصيدة“ وراح يتمتم حتى بلغ مقصده، حين يصف ضفيرتي امرأته، وقلبه الرثيث الصرّ يبحث عن الأمان والدفء في الشمس ومحبوبته الوفيّة. ثم واصل القصيدة حتى آخر بيت يحفظه. كان هذا الموقف مثل سلسلة من الفولاذ، طوّح بها الزمان وألقاها بقوة نحو السنين التي فصلت اللقاءين، فتوثقت بالماضي جيداً،

وجرّها جبروت الذاكرة حتى تمازج الزمنان، وأصبحا شيئاً واحداً. فكّر الخال كثيراً وهو يمج سيجارته، ثم قال: "كانت لك قصيدة عن البترول" ضحك طرفة بشدة: "ليس عليك تذكر أي شيء يخصني" ابتسم الآخر: "حتى نتعادل فقط".

خلال الأسبوعين، قصّ طرفة على صاحبه رحلته كاملة، تنقلاته، وزواجاته، واعتقالاته، وصراعاته. أي شخص ينصت إلى هذه الأحداث سيتعجَب ويستمتع، لكن الخال صحح بعضاً من معلوماته حول صديقه: "إذن أنت كويتي!؟" يصمت طرفة قليلاً قبل أن يميل برأسه: "أنا الاثنان" فيمازحه الأول: "أنت الأمة العربية بأسرها". أطلعه على بعض من كتاباته السردية خلاف فكرة الشاعر طرفة بن أسامة، إشارة إلى اقتران اسمه بطرفة بن العبد التي كانت في ذهن الخال: "وتكتب قصة كذلك!".

وفي عرض حديثهما عن الشعر والقصة، أفصح عن رغبته بلقاء الشاعر عماد عبد الغفور. لاحظ على الفور خطباً في ملامح الهلالي: "ألستُ شاعراً مؤهلاً لصداقتك مثلاً؟" التقط الآخر قصده، ابتسم محاولاً تخفيف الحرج الذي ألمَّ به: "من ذا الذي لا تكفيه صحبة شاعر يكتب لعبد الحليم حافظ!؟". فكر طرفة سريعاً في إيجاد مخرج من مأزق الأنفة الأدبية حيال نظير لها في الوسط الفني: "كان المفترض أن ألتقي بعبد الغفور في زيارته الأخيرة إلى الكويت" الهلالي يعدل من طريقة جلوسه، يصد عن الآخر. "الرجل طلب لقائي بالاسم" التفت الخال وعلى وجهه دهشة: "تقنعني أن عبد الغفور المتغطرس يفعل هذا!" يضيق المَخرج بصاحبنا: "يعرفني ككاتب قصة، لا شاعراً". لم يكن الهلالي قد تنازل عن موقفه بعد: "لا أنت تقيم في مصر، ولا منشوراتك تصل إليها، يا أخي قل شيئاً أصدقه!!" طرفة يحاول ممارسة بعض الدهاء: "أنت تكتب للناس، رجل بمكانتك وشاعريتك يجعل من نفسه عائقاً لأمر مثل هذا!" لم يعلق الآخر، أكمل طرفة: "يبدو أنني سأغير فكرتي عنك".

أخذ طرفة سيجارة من علبة الهلالي، زوده الأخير بالكبريت: "آخذك إليه، لكن قل لي سبب ذلك" هزّ طرفة رأسه: "موقف محرج حصل في الكويت، التقيته بالإذاعة، ثم وعدته بزيارة في فندقه وتخلفت" لم يبد أنه صدق هذه الحجة بعد: "احذر، لا تعطه أيّاً من كتاباتك، هذا الرجل سيجعلك تكره حياتك

كلها، ليس فقط الكتابة“ تصنَّع طرفة شيئاً من الدهشة: ”ولمَ أطلب رأي شاعر في قصة!“ اعتدل الخال: ”لا بأس، غداً نزور شقته، وأرجو أن يكون قد انصرف إلى مكان ما“.

***

انعطف التاكسي إلى شارع نوبار، المتفرع عن ميدان لافت مشجّر وواسع، ودّ طرفة أن يسأل عن اسمه، لكنه غفل عن ذلك لحظة توقف السائق لبلوغهما مقصدهما. ترجل الاثنان ومشيا قليلاً، ثم قطعا الطريق باتجاه عمارة الشاعر عبد الغفور، وضع طرفة يده على كتف الهلالي: ”أليس هو؟“ كان يشير إلى شرفة شقة يجلس فيها رجل يتصفح جريدة، ردّ الآخر بصوت خفيض: ”ابن الجنيّة“ اجتازا إلى الجهة الأخرى ثم صاح باتجاهه: ”أستاذ عماد“ التفت إليهم الآخر، عقد حاجبيه ثم نهض وخلع نظارته، تغيرت ملامحه بعد أن أدرك محدثه: ”الخال الهلالي!“ كان متفاجئاً من زيارته: ”تفضل“ أشار إليه الآخر: ”حالاً“ اختفى عبد الغفور من الشرفة، ثم وجداه ينتظرهما عند باب شقته حال وصولهما إلى الدور الثاني، مبتسماً مرحباً: ”أهلاً...“ بادر الخال أخذه بالأحضان، اندهش طرفة من المشهد الماثل، أظنه قال في نفسه: ”من منكما ابن الجنيّة؟!“ كان سلامهما غاية في الحفاوة والقرب، يعاتب أحدهما الآخر عن الغيبة الطويلة، ثم التفت باتجاه طرفة، فصافحه: ”طرفة أسامة من الكويت“ صعّر عينيه وبدت ابتسامة صغيرة في شفتيه، أشار إليه بسبابته وهو يستدعي شيئاً ما: ”الروائي الشاب!؟“ بادله الابتسامة وهو يؤكد: ”نعم“.

كان الهلالي ينقل أنظاره بين الاثنين، حتى بعد أن حثهم عبد الغفور على الدخول: ”تفضلا...“ سبقه طرفة إلى صالون شقته الرحب، والذي يدخله ضوء الشمس من كل جانب، وشبابيكه مشرعة تهف رياح الخارج في منطقة جلوسهما، انتبه وقتها أن الأستاذ عماد لا يسرّح شعره جيداً ويرتدي معطفاً منزلياً تظهر من تحته بيجامته: ”نعتذر عن الزيارة المفاجئة“ بادر طرفة قبل أن يتناول منه الخال دفة الحديث، الذي راحت مواضيعه تتوالى حول الأحداث المصرية الراهنة، وأوضاع الوسط الفني والقصيد، وألقى عليهما أبياتاً غنائية

جديدة، وكان بادياً على طرفة، الذي نسيه صاحبه، أن لهب الانتظار قد توقد بداخله، وفكّر لو أنه جاء وحده عوضاً عن هذا الموقف، خصوصاً أن عبد الغفور كان يتحمس إلى بعض المواضيع، ويبادله الرد، وعندما أخذ الوقت يتزحزح وتبدى على شكل اللقاء الدنو من نهايته، نظر الأستاذ عماد إلى طرفة، وتبسم ابتسامة غير عادية، ووجه كلامه إلى الخال: "من أين تعرف هذا المبدع الكبير؟!" ابتهج صاحبنا، بينما تغيرت نظرات الهلالي إليه، وكأنه يقول: "كنت متأكداً أن لهذه الزيارة سبباً آخر" لكنه بدل من ذلك قال: "هو بالأساس شاعر رائع، تعرفت عليه قبل ثماني سنوات تقريباً في البصرة".

نهض عبد الغفور: "أي شاعر! هذا روائي مهم" وتوجه إلى إحدى غرفه، وعاد بيده مجموعة أوراق، استطلعها قبل أن يجلس، ثم سلمها إلى طرفة: "كتبتُ هذا من وقت، وكنت أتحرى الطريقة التي أوصلها لك" تناولها منه، وأخذ يقرؤها على عجالة، بينما طلب منه الآخر أن يأخذ وقته الكافي، وعندما فرغ منها طرفة، قال: "هذا كلام كبير جداً" رفع الشاعر رأسه: "أنت تستحقه..." ثم تابع: "وبالمناسبة لقد تحدثت مع ناشر لبناني معروف بشأن هذه الرواية" كان يبدو على الهلالي أنه يقول في نفسه: "أنت ابن جنيّة آخر".

١٥

ديسمبر، عام ٢٠١٢

ربما أغفلتُ، بفعل الحماسة وتراتب الأحداث، الآثار التي خلفتها مجريات الثورات العربية. منذ أن صاح الناس في تونس: "الشعب يريد إسقاط النظام" والتي انسحب تأثيرها على بلدان أخرى. بدت أعراض قرحة المعدة تظهر على طرفة. الإرهاق البادي حول عينيه، السهر، تعاقب أقداح الشاي والدخان، الجلوس أمام شاشة التلفاز لساعات، الخطابات الرئاسية المتوالية. يظهر زين العابدين بن علي بعد أيام من الاحتجاجات: "أنا فهمتكم..." بعد قرابة شهر، يعلن حسني مبارك: "لم أكن أنتوي الترشح لفترة رئاسية جديدة" وبعد شهر آخر، يهدد معمر القذافي: "سنُزحف عليهم الملايين لتطهير ليبيا شبر، شبر". يتزحزح الزمن ببطء، ويجرف معه ما يجرف، ويراقب طرفة بأمل وحزن في آن، يواظب على فعل الكتابة، وعلى الاحتفاظ بالأمل الذي يشع في عينيه كلما تحدث عمّا يجري من انعكاسات للمظاهرات والاحتجاجات. طرفة يقرأ المجريات السياسية جيداً، لكن أحلامه تغلبه أحياناً، يفكر إذا ما كان هذا مجداً قادماً يتحقق أم سراباً جديداً.

كنتُ أطالع إحدى مظاهرات مصر الحاشدة في ميدان التحرير، أنتظر طعام الغداء المتأخر، الساعة تقارب الخامسة عصراً. جرى ذلك في نفس اليوم الذي عَقَدْتُ فيه قراني، كان يدور في رأسي آنذاك، مسألة تزامن الانتقال أو الارتقاء نحو حياة جديدة، وعالم عربي زاهٍ، يشي بالتفاؤل إزاء حالة ازدهار مرتقبة. هذا حلم اشترك فيه ملايين العرب، بعد أشهر انتقلت العدوى إلى الكويت، مجموعة من الاستجوابات البرلمانية لأعضاء الحكومة ورئيسها، تجاذب متبادل إثر شبهة رشاوٍ واتهامات بالفساد، حُلَّ مجلس الأمة، ترتب على ذلك اعتراض عدد من نواب البرلمان، خطابات متوالية في دواوين متفرقة، قوبلت بهجمة عنيفة وشرسة من السلطة، تدخلت الآليات العسكرية

لفض الندوات بالقوة، ضرب وسحل واعتقال، خرجت جموع الناس تطالب برحيل رئيس الحكومة "ارحل، ارحل، يا ناصر" استنفار الأجهزة الأمنية والإعلامية، البلد بدت على صفيح ساخن. كنتُ أراقب كل الأحداث عبر التلفاز، تبادر إلى ذهني أكثر من مرة، فكرة الانضمام إلى المسيرات، الاقتراب منها ولو بقصد استكشافها، لكنني لم أفعل، كنتُ منزوياً على نفسي، أولى شهور الزواج، تراودني ذكرى السقوط من سور السطح بين حين وآخر: "الوضع خابط، لا لون له ولا رائحة" هناك تأثر واضح من الحالة العربية الهائجة، البعض يؤكد أن هناك تدخلاً خارجياً لتأجيج وضع الداخل، يقول طرفة: "كل شيء كان يسير بشكل طبيعي..." كان يجلس وراء مكتبه، يمدد رجليه على طاولة جانبية منخفضة: "قبل أن يقوم أحدهم بكسر بوابة البرلمان واقتحامها". كان هناك اتفاق ضمني بيننا على هذه الخطيئة الشنيعة التي رجحت كفة على أخرى، اجتاحتني يومها موجة عملاقة من الخيبة والأسى.

كان طرفة قد عكف منذ أزل، يبذل جهده في التخلص من عادة التدخين، حتى أصبح يستهلك في اليوم الواحد ثلاث سيجارات فقط، هذا إنجاز غير مسبوق بالنسبة له، لكنه فقد السيطرة آنذاك، يكتشف كل يوم وآخر ثقوباً جديدة لجمر سجائره في الأرائك، صوت خشخشة صدره حين يتحدث بإسهاب أو ينفعل، يوقظه سعال الليل أكثر من مرة حتى يهرب النوم من مضجعه. صار يتناول عشاء مكوّناً من زبادي وحليب الصويا أو شاي بالنعناع، وفي الصباح ملعقة من عسل السدر، يجرع مثبطات دوائية بلا جدوى فعلية، هذا أشبه بمرض مزمن يلازمه منذ سنوات، يرحل ويعود بين وقت وآخر. مشكلته أن كل مشكلات الدنيا تؤثر فيه، إلا تلك التي تعترضه شخصياً، لا يكترث إلا بما يصيب الآخرين.

حين لاحظت أن حالته الصحية تسوء بين زيارة وأخرى، سألته: "لماذا تفعل بنفسك كل هذا؟!" قال وهو يتمزز سيجارته: "أنا كاتب سياسي بالأساس، والشأن العربي أولوياتي".

***

بعد سنتين تقريباً، قضت أغلب الثورات العربية، ورحنا نتفقد أحوالنا.

نظّمَتْ إحدى المكتبات ندوة لمناقشة موقف الأديب العربي إزاء الأحداث السالفة، أتذكر عنوانها "دور المثقف على لوح الشطرنج". بدت أشبه بمناظرة، كان طرفة أحد قطبيها، جاء برفقة صديقه جواد، يمشي على مهله يتجوّل قليلاً بين رفوف المكتبة، ثم جلس في مكانه بهدوء تام ينتظر لحظة البداية، يمسك مسبحة ينقلها من كفه الأيمن إلى الأيسر كلّما أراد أن يرفع يده ليرد تحية أحدهم، يرتدي بنطالاً وقميصاً رماديين. في الجانب الآخر كانت الشاعرة المعروفة عزيزة السعد، المرأة الناشطة سياسياً في منصات التواصل الاجتماعي والتي تنشر آراءها الصريحة باستمرار حيال القضايا العامة المختلفة. ابتساماتها تنمّ عن تأهب وحماسة لخوض الحوار. كنتُ أجلس في مقدمة الحضور، تبدى لي أن هناك نقاشات خاصة جرت بين الطرفين قبل حضور الندوة، كلاهما يدرك أن الآخر يخالفه الرأي، لذا لم أتعجب من بعض الجدالات التي جرت إثر بعض الموضوعات الجانبية المتعلقة بسلوك السلطات العربية، تعقيب طرفة: "كل التضحيات السالفة سقطت ثمرتها في أيدي الأحزاب الدينية". رغم صداقتهما القريبة، فإن تعليقه أثار حفيظة الشاعرة، لم تخفِ استياءها؛ هي ترى أن الحزب الذي يقدّم شهداء إثر مقاومة حاكم جائر، يحق له الوصول إلى سدة القيادة بالطرق الشرعية، طرفة يعتبر أولئك ليسوا سوى متسلقين غايتهم إحكام سيطرتهم وسرقة جهود الشباب العربي: "أي أيدلوجية دينية بالضرورة تكون مناقضة للديمقراطية" بينما تردّ عزيزة: "يظلّ حكماً مدنياً أفضل بكثير من السلطة العسكرية".

يحدث هذا الحوار بعد الانتخابات المصرية التي أقيمت على إثر سقوط الرئيس محمد مرسي، كنتُ أبديت مداخلة قلت فيها إن المثقف العربي لا يقود الشارع في العادة، ورأيه لا يؤثر سوى في الأوساط الثقافية التي أحياناً تُحمّله أكثر مما يحتمل. عدا عن ذلك، لم يتصاعد الحوار، بل على عكس من ذلك، الشاعرة عزيزة تتحدث بديبلوماسية عالية، عكس طرفة الذي بدا صريحاً على غير عادته، خصوصاً حين قال: "الوضع المصري الراهن، أفضل بكثير مما كان عليه في السنة الماضية المشؤومة". في زيارتي التالية لمكتبه،

أكد لي أنه لم يكن لطيفاً في التعبير عن آرائه، واعتذر للشاعرة عن ذلك في اتصال هاتفي بعد يوم من الندوة.

***

أغسطس، عام ٢٠١٣

رُزقت بمولود أسميته سعود، ودوت في داخلي، لحظة ولادته، انفجارات عاطفية عظيمة. كان الطفل يصيح أمامي في حاضنة يطل من فوقها جهاز تدفئة، بعد دقيقة من انتقاله إلى الحياة خارج حياته الأخرى التي كنت أتحسس وجودها على جدار بطن أمه. يتفحصه الدكتور، يعاين أعضاءه بآلية دون اعتبار لاحتجاجاته المستمرة. هذا طفلي. ونتف من بقايا حبله السرّي ما تزال عالقة في سرّته، يغطيه شيء من مخاط أو عوالق كيسه المائي، يحرك أطرافه يقاوم عراء الدنيا، برودة الخارج الموحشة التي تُشعره بالتهديد وتنبئه بمخاطر وشيكة، في أية لحظة، الآن، وإلى الأبد.

أشعتُ نبأ ولادة سعود في رسالة طويلة، كتبتُ دهشة الموقف وحالة إدراك عاطفي، أعجوبة استنكرها البعض، قالوا على سبيل الدعابة: "لو تنشر الخبر في كتاب".

***

تزامن هذا مع صدور رواية أولى، عكفتُ فترة جاوزت العام في كتابة دؤوب، أقول لنفسي: "هذه ستعجبهم" أو على نحو مختلف، ستفاجئهم، كما لو لم يقرؤوا شيئاً كهذا من قبل. كنتُ قد عقدت صداقة مع مشاري، مؤلف مجموعة مومباي القصصية، وصرت ألتقي به مرة كل أسبوعين تقريباً، كما كان يجري من قبل مع عبد العزيز سالم، الذي غدا اسمه براقاً عقب صدور روايته الأخيرة، وشق لنفسه طريقاً مغايراً. الأمر المختلف في لقاءاتي مع مشاري أنها لم تكن لتستكين في مكان، نختار كل مرة موقعاً جديداً، ونسلك درباً مستوياً نطلق فيه سيقاننا نحو أمد مفتوح، نتبادل الأحاديث المتواصلة دون

توقف، أزوده بالفصول الجديدة، ونبدأ رحلة التحرير المشتركة. فكرتُ وقتها أن أطلق عليها اسم طائر، الحجل، راق لمشاري الذي يحب أن يخلق من الكلاسيكيات أوجهاً معاصِرة، كشف لي عن مهارات جديدة يمارسها، قال: "دعني أصمم لك غلاف الرواية" تحمستُ لمبادرته، خطر في بالي غلاف مومباي، تمازُج وتناسق الألوان، اختياره للوحة لافتة مريحة للنظر، يعجبني ذوقه. هذه أول منشوراتي في دار فيستا للنشر والتوزيع.

في المقابل، كانت زياراتي مستمرة إلى مكتب طرفة، كل مرة أنجز فيها فصلاً جديداً أسارع لأطلعه عليه، أقرأ له وينصت باهتمام، هو يحب لعبة تبادل القراءات، أشعرُ بأنه يهدأ كلما جاء إليه أحدهم بكتابة جديدة، كما لو يطمئن إلى قوانين الكون، كل شيء يسير وفق خطته التي خُلقت من أجله، ما يزال الناس يكتبون، هناك خيالات متدفقة ومستمرة في رؤوس الآخرين، يبتسم، يتفاعل، يغيب أحياناً، أو تشك في ذلك، لكنه يؤكد حضوره في سؤال أو تعليق عارض حول النص، وعندما أنتهي، يهزّ رأسه، دون تصريح مباشر: "جميل" تعليق وحيد ينثره على الكتابات التي ترضيه، مثل ختم موافقة على المواصلة. ثم ماذا؟ يطالب بالاستمرار، ربما يود لو يقول: "لا تأت لو توقفت عن الكتابة". جئته بعد فترة بسعود، التقطنا صوراً كثيرة برفقة زوجتي، نظر في عينيه، فسألته: "ماذا ترى؟" ابتسم وكأنه يود أن يحتفظ بتعليقه: "ولداً عنيداً، مثل أبيه" ثم راح إلى مطبخه وعاد بكمية من الحلويات، كان سعود في عمر لم يتجاوز الأربعة شهور: "احتفظا بها، حتى يصبح بمقدوره تناولها".

***

عندما قرأت له الفصل الأخير، سكت. عاد يقدم تعليقاته المعتادة. طرفة يمارس تدخلاته الصريحة فقط إذا وجد خطأً في النص، مثل استخدام مفردة تفيد معنى مختلفاً، أو خللاً في البناء الفني، هفوة نحوية، عوضاً عن ذلك، لا يبدي تعقيباً حول النصوص التي لا تعجبه، يكتفي بالصمت. أنا أعرف طِباعه تلك، طوال فترة الكتابة كان متحمساً لها، لكنه لم يفعل ذلك حين أقفلتها. هذه رواية تجري أحداثها في مجمع سكنيّ قريب من شاطئ الخليج العربي، مكوّن

من عدة مبانٍ، يعيش في إحدى شققه فتى مصري الجنسية، مسيحي الديانة، عند رجل مسنّ كويتي، تبناه عقب وفاة والده المنفصل عن زوجته. تتأرجح الأحداث بين قاطني المباني، مسؤول حرّاس الأمن، زوار من الخارج، وهكذا. صمْت طرفة في الختام، كان له دلالته، لم أفهمها في وقتها. مشاري صمم غلافاً لرجل حجري، ذراعاه تبدوان مكتّفتين، خلفية الغلاف بلونها الأخضر الممزوج بالرمادي، كتابة العنوان بخط الثُّلث. لم يخيّب ظني.

بعد صدور الرواية، طلب طرفة عشر نسخ أو أكثر كي يضعها في مكتبه، عادته يوزع الكتب على أصدقائه، ثم تحدثنا عن بعض تفاصيل النص، حتى أفصح عما أضمره منذ فترة: "بدا لي أنك تعبت من كتابتها" تصلّبتُ قليلاً، لم أفهم مقصده تماماً: "كيف؟" سعل قبل أن يكمل: "استعجلت في إنهائها، كان يتوجب عليك أن تمهد أكثر قبل الوصول إلى الختام" ربما، بدا جلياً عليّ شيء من الغضب: "لماذا لم تنبهني إلى ذلك قبل النشر؟!" وبكامل يقينه أجاب: "لم يكن بوسعي فعل شيء، كنتَ تريد أن تنهيها، ووَجب عليَّ أن أتركك تعيش تجربتك الخاصة".

١٦

انكفأ الهلالي يقرأ من رواية طرفة، بعد أن اعترف له: "عنوان شاعري جداً" كان الاسم الذي خلص إليه (قبل اغتراب السماء) هو ذات النص الذي سمّاه (السياج) حين كان يقرؤه لابنة الجيران وقت لقاءاتهم في منزلها، ومنذ ذلك الوقت حتى لحظة إرساله إلى عبد الغفور، أعاد كتابته تقريباً نحو خمس عشرة مرة، هكذا قال لي فيما بعد.

جاء الخال بعد ساعة تقريباً، يمطره بوابل من الشتائم. صُعق طرفة من ردة فعله، استدعى أحداث الرواية، لم يتطرق ولو من بعيد إلى مصر أو الصعيد، حاول التذكر، كل الأحداث تدور بين عسكري تعرض إلى إطلاق نار، وسجين هارب، عَلِقا في مكان فاضطرهما الوضع إلى تبادل الأحاديث، التي امتزجت بتداعيات من الماضي، علاقات عاطفية وأحداث جانبية تدور كلها في العراق. كانت ملامحه واجمة بينما يحاول فهم كلام الآخر، لم يختفِ منه هذا قبل أن يتمم الهلالي حديثه: "يا أخي، أنت تكتب بحرفية عالية، وأنا آخر من يعرف!؟".

***

يقال. استأذن طرفة من الشاعر كي يضمّن مقدمته في مطلع الرواية، قبل أن يرسلها بواسطة صديق يدرس لدى الجامعة الأميركية في بيروت إلى الدار التي رشّحها عبد الغفور، لكنه تلقى ردّاً بعد قرابة شهر بالرفض، ودون أن يعرف طرفة بذلك، أخذ صديقه رزمة الأوراق، وذهب بها إلى دار أخرى كان مقرها في مبنى مقابل من الأولى، مسافة عرض الشارع، قطعها وصعد إلى الطابق الأول، وقدم النص كما لو كان له. بعد أسبوعين، أتت الموافقة على الفور.

سمعتُ لاحقاً مقابلة إذاعية لطرفة، قال فيها: "كنتُ مهموماً بأمر الثورات العسكرية المتوالية، مجموعة تزيح السلطة عبر انقلاب دموي، ثم تأتي جماعة أخرى تطيح بالأولى إثر انقلاب دموي آخر، الرواية مستوحاة من هذه الأجواء،

وهو الأمر الذي أدى إلى رفض نشرها في البداية، وبالتبعية تم منعها من كل الدول التي تحكمها أنظمة عسكرية...".

ويقال كذلك، إن الكويت فقط، من سمحت بنشر وتداول الرواية. كان أمراً محبطاً لطرفة رغم تعاضد الأصدقاء، وتسريب نسخها وتوزيعها سراً، كل القراء أدركوا على نحو واضح، مقاصد الأحداث ورسم الشخصيات، وقد اضطرب تسلسل السرد عند البعض الآخر بسبب التقنيات المغايرة التي كُتب بها النص، لكن مقدمة الشاعر الكبير عبد الغفور كان لها بالغ الأثر في ذهن المرء الذي يحاول التوغل بين السطور، كيف لكتابة تمتدحها شخصية أدبية مهمة، ولا نستطيع فهمها! ما قالته المقدمة أن رواية قبل اغتراب السماء، واحدة من أهم ثلاثة أعمال عربية معاصرة، وهذا تحدٍّ مباشر لأي شخص يود قراءتها.

***

مُنعت الرواية في مصر كذلك، رغم احتفاء الخال بطرفة ككاتب، والذي أخذه إلى مجتمع الأدباء المصري، يطوف عليهم بآيتيه بعد أن تحصل على بعض نسخ من مجموعته القصصية الأولى، آتية من العراق عبر البريد، إضافة إلى وليدته الجديدة. كان على غلافها رسم امرأة رشيقة ذات صدر ناهد، وشعر كث ينسدل على أحد الجانبين، هذه الصورة تعبّر عن جزئية ظهور العشيقة في القصة، بينما استخدمها الناشر بغرض التمويه، هكذا قال طرفة كما قيل له، في حين علّق الهلالي: "نحسبها وثيقة سرية". كان ثمة إعجاب مشوب باستنكار على شاب قادم من الخليج يكتب بهذه الفنية الخاصة، ورغم هذا فإن شخصية طرفة الثقيلة تفرض حضورها، يتحدث عن كُتب كثيرة قرأها لكتّاب من مصر وخارجها، يقارن ويقيس ويشرح، في القصة والشعر والرواية، كذلك في التشكيل والسينما. لا أحد يستطيع ثني عود جرأته، كان حريصاً على إظهار جانبه هذا، لكنه، ولظروف المنع لم يَكتب عنه أحد سوى أولئك الذين يقيمون خارج مصر، وفي صحف ومجلات كويتية، إضافة إلى أصدقائه في العراق،

وظلّ اسمه يتداول في الأوساط: ”الروائي طرفة أسامة صاحب الرواية الممنوعة“.

***

لم تنقطع لقاءاته مع الهلالي منذ إقامته في مصر، إلّا بضع إجازات قصيرة يقتطعها للعودة إلى الكويت إثر إلحاح غنيمة واشتياقها إلى أسرتها. شعر طرفة أنه وجد شخصيته التي يحبها في القاهرة، رغم اضطراره للسكن في منطقة بعيدة بعض الشيء عن الأحياء النشطة. الشقة التي وفرتها له وزارة التربية بالقرب من مركز دراسته، كذلك الحال مع الخال الذي انتقل نهائياً من محافظة قنا إلى العاصمة، خشيَ طرفة أن يكون قراره هذا متعلقاً به وبوجوده منذ شهور، لكن الهلالي، بطبيعته، لا يمنح الآخر إجابة مباشرة، أو شفيفة مثل قصائده: ”عندما أدركتْ أمي مخاضها، في شهرها التاسع، وأنا أرتع في بطنها، كانت في مكان يبعد عن بيتنا مسافة ثلاثة كيلو، لم تكن النساء ينجبن إلا في غرف نومهن، فوجب على والدي أن يعود بها، لم تكن لتحتمل المشي في هذه الحال، ربما كنت أوشكت على الخروج، وهي تكابد إبقائي بداخلها أطول وقت ممكن، حتى إن أبي وضعها فوق حمار حينما استعصت عليها الحركة، وما أطلقتني على الدنيا إلا على عتبة البيت، إحدى قدميها في الداخل والأخرى في الخارج“ أخرج سيجارة وأشعلها: ”وهكذا أنا في الدنيا، لا أبقى في مكان ولا أرحل“.

كانا يسيران على جانب من النيل، انتبه طرفة إلى مبنى عن يمينه كُتب على بوابة مخصصة لدخول السيارات (مستشفى الشرطة). في حين يقص الخال ما قاله فلان وفلان في مكالمات ولقاءات خاصة حول رواية قبل اغتراب السماء، يعترف: ”بصراحة الكلام الذي يصلني عنك أثار غيرتي، أفكر جدياً في طرح ديواني الرابع“ ابتسم الآخر بينما ينظر إلى الضفة الثانية من النهر، كانت قريبة على غير العادة، المراكب هادئة فترة نزوح الشمس واقتراب الليل، كان يريد أن يسأله عن سبب ضيق النيل في هذا الجانب لكنه انتبه إليه وهو يقطع الشارع إلى جهته الأخرى باتجاه المستشفى. كان الهلالي يود زيارة صديق له

حاجة عنده، يقطن في حيّ قريب، تبعه طرفه دون أن يطرح مزيداً من الأسئلة. عادته يمعن في المشاهد من حوله، يحسّ بالأجواء التي تحيطه. سلكا طريقاً محاذياً للمستشفى، مضيا يثرثران حتى بلغا قصدهما. عمارة مكونة من أربعة أدوار تقريباً، يقف بوّاب عند مدخلها، ألقى التحية على الخال، بدا أنه يعرفه جيداً، دلف إلى ردهة المبنى، كانت شقة صديقه في الطابق الأرضي، طرق الباب ثلاث مرات، لفت انتباه طرفة صندوق خشبي صغير كُتب عليه (بريد) بخط يدوي، أحرُفه منحنية، تبدو وكأن صاحب الشقة كتبها باجتهاده الشخصي، مجدداً طرق بخفة، تزامنت مع انفراج الباب، ظهر من ورائه رجل يرتدي بدلة كحلية، بربطة عنق وجاكيت، ابتسم وتهلّل وجهه بهما، نظر طرفة جيداً، من دهشته لم يستوعب بعد أن الماثل أمامه نجيب محفوظ!

***

"لم يخطر في بالي قطّ".

كان تعليق طرفة على الهلالي حين قال: "قلقت عندما مررنا عند لوحة حيّ العجوزة".

صافح محفوظ طرفة وربت باليد الأخرى على كتفه، كان ترحيبه مثقلاً بالحفاوة، تهنئة منه على إنجاز الروائي الشاب. عندما جلسوا، لم يتبق من الشمس الظاهرة في النافذة خلف محفوظ سوى بضع فتات، قال الهلالي: "نرجو ألا تكون زيارتنا في وقت غير مناسب" هزّ رأسه نافياً: "بالعكس كنت في انتظاركما" اعتدل ورتّب جاكيته، وابتسم: "أليس واضحاً؟" ثم أطلت أسنانه خلف ابتسامته العريضة واهتز جسده، وراح الآخران يشاركانه الفعل.

كان، والعهدة على الخال، قد طلب منه أن يلتقي بطرفة، بعد أن قرأ روايته التي أثارت جدلاً واسعاً إثر موضوعها ومقدمتها ومنعها، وإعجاباً عاماً متزامناً مع كل هذا، كان لقاءً ثرياً كما وصفه طرفة، هدوء محفوظ واسترساله في وصف النص: "كتابة مختلفة وجديدة، واللافت أنك لم تنجرف مع السائد، بل أوجدت صوتك الخاص منذ العمل الأول، وهذا نادر الحدوث". يتحدث باهتمام، ويحرك ذراعيه بتفاعل عند كل كلمة واستدراك، حتى عندما يدس نكتة أثناء

حديثه، يضحك وما يلبث أن تعود ملامحه إلى جديتها ويتابع الموضوع. كان طرفة قد انتبه إلى وحمة أو ندبة على وجنة محفوظ حين التفت نحو الخال لحظة استحضاره كلمة عبد الغفور في المقدمة التي يتفق معه في مسألة أن الرواية لم تلتزم بتقاليد فنها، وإنما خلقت لها نمطاً جديداً له تقليده الخاص. أخذ طرفة حصته من الحديث، وأسهب عن تأثره بثلاثية القاهرة الشهيرة، وفصّل في أعمال أخرى أنصت لها محفوظ باهتمام، وتوقف حتى قال: "عدا روايتكم الأخيرة لم أحصل عليها بعد" نهض محفوظ فوراً، وتوجه إلى غرفة في الجوار ثم عاد وهو يحمل رواية "أولاد حارتنا".

***

لا بدّ أن تعتريه لحظات ثقة مفرطة، خصوصاً حينما يمتدحه رمز الرواية الأول، بالتأكيد صعد طرفة المنطاد الذي يفصله حد ضئيل عن الغرور. لحظتها تلتبس المشاعر حتى على صاحبها، وبالتبعية، فكّر فوراً في مجموعة النصوص الأخرى التي ما زالت مدفونة في أدراجه، والتي لم يطلع عليها سوى عدد قليل من الأصدقاء في العراق وقت تكوينها الأول، كأجزاء منفصلة ومتصلة بالرواية الأولى.

"لن يصدقك أحد" هكذا قال لنفسه، أو هكذا قال لي، كانت تزنّ هذه العبارة في رأسه طوال طريق عودته رفقة الهلالي، وأظن، ما لم يقله طرفة لي: "لو تطوّع أحدهم وأخذ آلة تصوير ووثق هذه اللحظة التاريخية" لم يكن واثقاً إذا ما سيكون الخال آلة التوثيق تلك في أذهان الناس، كان يقلّب في يده "أولاد حارتنا"، يُحدّث نفسه في انتشاء: "ما كتبه عبد الغفور، وما قاله محفوظ، ربما لم يحظ به كتاب مصريون كبار". في الأثناء، باغته الهلالي بعد صمت طال أكثر من عشر دقائق، لا يشوشه سوى صوت خطواتهما، وسحك أعواد الكبريت عند إشعال كل سيجارة: "ها، انتشيت يا كذاب؟" تطلّع إليه طرفة: "بدأت تصبح عدوانياً دون مبرر" توقف فجأة والتفَّ بجسده ناحيته: "أين تأثرك بنجيب محفوظ في هذه الرواية؟" ابتسم طرفة وتابع سيره: "أزعجتكَ هذه يا خال؟" لم يرد الآخر، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، تابع الآخر: "أنا متأثر بقصائد كثيرة

تخصك، ولم يظهر هذا في الرواية" هزّ الهلالي رأسه وهو ينفث دخانه: "مقبولة، غلبتني هذه المرة".

***

نتفق جميعاً، أن طرفة بعد صدور الرواية شيء مختلف عمّا كان قبله.

ركن قليلاً قراءاته التي كان يبحث فيها عن إجابات منذ ثلاث سنوات تقريباً، حين توعد نفسه أو العالم بالتوقف عن الكتابة حتى يجد سبباً لفعل ذلك، وربما توصل أخيراً إلى دافعه الذي أحسّ أنه بحاجته منذ لقائه بعبد الغفور. لكن القدر وجد له أمراً آخر.

في صبيحة يوم الثلاثاء، استيقظ طرفة باكراً، قبل وقت ذهابه المعتاد إلى الجامعة، كانت الشمس قد بدأت تلوّن وجه الطبيعة حين أحسّ بحركة غير عادية أسفل العمارة، وأصوات هرج آتية من الخارج، ثم علا صراخ امرأة من شقة في الجوار. نهضت غنيمة من فراشها، على الفور فتحت نافذة غرفتها، ثم شهقت من هول المشهد: "طرفة، تعال". تراءى إليهما الناس وكأنهم أجلوا من منازلهم، شرفات العمارات غاصة بنساء يبكين ويغطين وجوههن بجلابيبهن وخُمرهن. الرجال في الشوارع على غير هدى، يفترشون الأرصفة والنواصي، تائهون، يتقفون أثر اليقين، يبحثون عن منجد، يسيرون حيث تقودهم الطرقات. تداعت إلى طرفة ذكرى سقوط الملكية في بغداد، هنا حزن عارم، وقعة مجلجلة قصمت ظهر النيل. لا بدّ أنّه الرئيس. البارحة كان قد ودّع وفود القمة العربية التي عقدت في القاهرة، أمير الكويت الشيخ صباح السالم كان آخر المغادرين. تساءل طرفة في حيرة شديدة: "كيف يحدث هذا؟" وعيناه لا تشيحان على الوقع الماثل. غنيمة لم تفهم ما يجري بعد، لم يلجأ زوجها إلى التلفاز أو المذياع، استدعى على الفور أنباء ٦٧ القاضية، ما عادت المصادر الرسمية موثوقة، اللحظة الراهنة فقط هي الحقيقة. نظر طرفة إلى أوراق تقرير انشغل بإعداده ليلة البارحة بتكليف من أحد أساتذة الكلية، ارتدى حذاءه ونزل إلى الشارع، في حين سارعت غنيمة لتفتح التلفاز، بث متواصل للقرآن الكريم، أدركت بعد لحظات أن الرئيس جمال عبد الناصر غادر الدنيا.

***

كان الزعيم قد تُوفي ليلة البارحة، هكذا أدرك الجميع حين ظهر نائب الرئيس أنور السادات على التلفاز، وألقى الخبر على الجماهير.

ذهب طرفة إلى شقة الهلالي فوراً، ضرب الباب مراراً دون جواب، فطن إلى احتمال وجوده في مقهى يقع على ناصية أحد الميادين، منطقة معتادة للقاء الأدباء، لم يخطئ ظنه، كان يجلس إلى مجموعة يكاد يكون بينهم غير موجود، يدخن سيجارته، مسنداً مرفقه على الطاولة ويغطي نصف وجهه العلوي. وضع طرفة يده على كتفه، وانحنى إليه: "البقاء لله" رفع الخال رأسه، صافح طرفة وأخذ بيده إلى خارج المكان، ثم بدا كمن ينفض غباراً عن بنطاله، يضرب رجليه من الواجهة والجانبين، حينئذ تناول سيجارته من بين شفتيه، وأخذ ينظر إلى الأعلى، كل الشبابيك والبلكونات مشغولة، وكأن الناس تنتظر كلمة من الهلالي: "عبد الناصر رماني في الحبس، ولمدة طويلة، لكنني ما كرهته يوماً" وهذا الأمر يدركه طرفة، الذي سأل صاحبه حينها عن سبب اعتقاله، فقال: "لأن أنا... أنا..." مثل كل أجوبته. التهم ثلاثة أنفاس متلاحقة من سيجارته، ثم هبط كمن باغتته آلام في ساقيه، لكنه وضع عقب السيجارة أو ما تبقى منها أسفل سلة مهملات برفق شديد، وانتصب مجدداً بحركة سريعة: "هناك مشهد في ذاكرتي، كلما استحضرته بعث في نفسي وهجاً غريباً، كنت صبياً حين قيام ثورة يوليو، بعد سنتين كانت أوضاع البلد قد استقرت تقريباً، أتذكر في ذلك العام هطلت على قنا سيول رهيبة جداً، اكتسحتها ودمرت محاصيل ومساكن وأملاك، جاء مجلس الثورة بأكمله يتفقد أحوالنا، جمال عبد الناصر لم يكن رئيساً بعد لكنني أعرفه جيداً، رأيتُ سيارة الجيب العسكرية مفتوحة السقف تسير بحرص فوق الطين، وكنتُ أخبط برجليّ البقع السبخة أحاول الوصول إليهم ومشاهدتهم عن قرب، ولمّا صرت تحت السيارة، كان المستنقع يغطي كل ما هو أسفل جذعي، انتبهوا إليّ، فمددت يدي محاولاً مصافحته، بدوره، رفع عبد الناصر جسده بحذر، ومال إلى الأسفل كي يلمس كفي، حينها نظرتُ إلى عينيه اللتين لن أنساهما أبداً، نظرته حادة وبرّاقة،

ورغم أنه كان مبتسماً، فإني خشيت منها وأحببتها في آن، كانت حدقته مختلفة، ظللت طوال عمري أحاول قراءتها، أفهمها، كانتا عيني قائد، أحسست بهما وهو يميل إلى صبيّ ملطخ بالطين، في براح شاسع، لا أحد يلاحظه أو يصوره، لا قيمة حقيقية تدعوه لأن يبذل جهده ذاك، ويسلم عليّ".

***

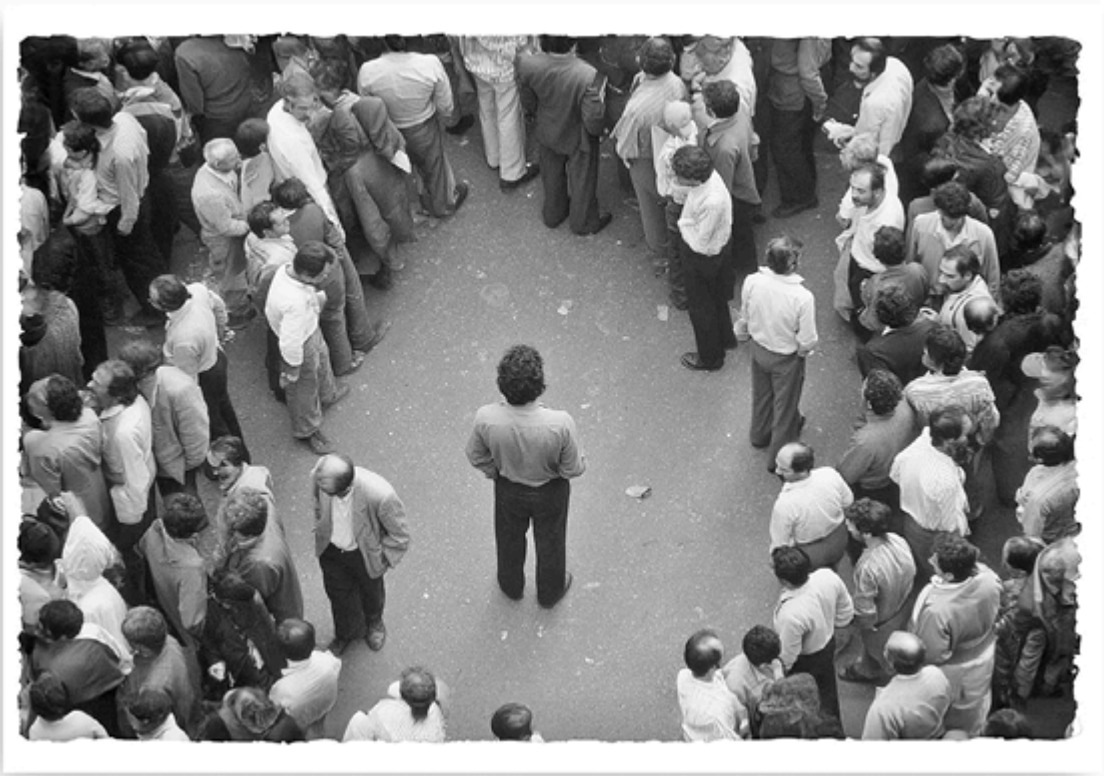

لم يشهد طرفة الحشود التي زلزلت القاهرة بعد خطاب التنحي عام ٦٧، لا في الواقع ولا التلفاز، كان ميتاً وقتها، وإذا ما استيقظ لا يفعل شيئاً سوى النظر إلى السقف أو أفق البحر. الآن هو بين ملايين البشر الكامدة، أعداد لا يرصد آخرها، صور عبد الناصر مرفوعة هنا وهناك بأحجام متفاوتة، أوشحة سوداء وعويل يأتي من كل مكان. هكذا وقد انتهت الدنيا.

هذه المرة لم يكن طرفة مثل البقية، لم يشعر بشيء سوى حضور مشاعر الغم التي واتته في أحداث الهزيمة، وجد نفسه يهرب إلى الجانب الذي يطارده، يتألم إثر شقاء الآخرين، قال لنفسه: "عليّ العودة إلى كتبي مرة

أخرى“. كنتُ أجمع له، كما طلب مني، أعداد الصحف والمجلات الكويتية التي تحوي أخباراً مهمة، وإذا خبرتُ أحداً قادماً من العراق، أو ذهبتُ بنفسي، أفعل ذلك أيضاً. يحب طرفة أن يمتلك مناظير يتفرج فيها على كل العالم، وآلة زمن يعود بها إلى الماضي متى شاء. عاد آنذاك إلى الكويت في إجازة قصيرة، لم يستطع البقاء مدة أطول في مصر المغلوبة، لم يكن الحال أفضل في بلده، عَلِم ورأى في الصحف نزول الجماهير إلى الساحات وعلى امتداد الشارع المحاذي للبرلمان، كان يهدف إلى أخذ أوراق رواياته الأخرى، أن يحييها من قبورها، وكمية كبيرة من مطبوعات ودوريات متنوعة، وبعض مما كُتب عنه، لفت انتباهه اهتمام أحد مديري تحرير جريدة يومية، وصَفَ ”قبل اغتراب السماء“ بالعمل الروائي الخارق، والسابق لأوانه، وآخر قال عنه العمل الصغير الكبير، وكاتب مسرحي معروف قال إنها لن تُمتع القارئ المستعجل، أما وقد فاجأه ما نشرته جريدة تصدر في بغداد أن نعتت كاتبها طرفة بالروائي العراقي الذي يقيم في الكويت، ضحك بدوّره وعلّق: ”هذا يشبه ما فعله أبناء عمومتي بعد أن تخليت عن اسم العائلة“ لكنه كان فرحاً جداً بكل هذا الاهتمام، كنتُ أراه يمسك بقلمه عندما يقرأ هذه المقالات، يخطط تحت بعض العبارات ويكتب تعليقات جانبية، رأيته يضع دائرة على جملة ”أدبُنا العراقي المعاصر“ والتفتَ إليّ يقول: ”هذا أهم ناقد في البصرة“ رفع حاجبيه، وهزّ رأسه: ”العالم يتغيّر بسرعة“.

***

كتب الهلالي كذلك: ”استطاع هذا الشاعر الحزين، القوي، الخبير، أن يمزج بين حياته الخاصة وأخبار الآخرين، في بساطة وعفوية مذهلة“.

بغض النظر عن وصف طرفة بالشاعر في عمل روائي، فقد أصاب في الإشارة إلى حياته الخاصة، لقد قرأتُ الرواية أخيراً بعد عودته في إجازته هذه، أهداني نسخة موَقعة، وتمكنتُ من إنهائها في ليلة، فقد جاء في سياقها ما قام به والده أسامة حين زوّجه دون علمه، وتجرده من مجتمعه أو عائلته، فكما قيل له بعد قصيدة هجاء قاسم: ” أنت لست منّا“ قالها هو على لسان بطله:

”أنا لست منكم“. في الحقيقة وددت أن أنصحه بأن يتخفف من حمل كل هذه الهموم، الأحداث السياسية العراقية في الستينيات كانت أكبر منه وبكثير، وظلّ يحملها على ظهره حتى يومنا هذا، كان ردّه بعد أن أطال السكوت عنوة أو بغرض البحث عن إجابة مناسبة: ”لا جدوى من حياة غير مسؤولة تجاه تاريخنا ومستقبلنا“. ما لفت انتباهي في كل ما هو متعلق بروايته وشخصيته، أنه رغم ما تلقى من مديح، فإنه ينكسر عند مواجهة أي نقد. لم أشعر بغضبه تجاه الضابط الذي ضربه عند اعتقاله من أمام باب منزله، أو حيال أي شخص أهانه في السجن، بقدر حنقه وسخطه من شخص كتب عن أخطاء فنية وقعت فيها الرواية، وإن كانت واهية وغير حقيقية. كان يدوّن ردوده على الهامش بخط حادّ يخزق به ورق الصحيفة، حتى بلغ به الضجر أن أرسل رداً مفصلاً ومباشراً ذات مرة ضد أحد أولئك الذين رأى في نقدهم نظرة قاصرة غير فنيّة، وقامت الصحيفة بنشر رده فوراً! حلّفته آنذاك ألا يعيد الكرَّة.

***

في صيف العام الموالي، صدرت الرواية الثانية.

وكان قد أنهى مقرر قراءات التاريخ التي راح يبحث فيها عن جواب. وضع إصبعه على رأس صفحة كتاب، حين كان يجالس الهلالي في أحد المقاهي: ”هنا مكمن هزائمنا“ كان يشير إلى مطلع فصل عنوانه: ”الحملة الفرنسية“ لكن الآخر لم ينظر إلى الأمر باهتمام، أشار إلى قلبه: ”هنا مكمن هزائمنا“.

بدا أن الخال يعيش حالة هشة تغلبها العاطفة، أما طرفة فراح يلقي بتركيزه على ما بدأه: ”كان الشرق الأوسط قد بدأ ينهض، قبل أن يفكك نابليون مصانع مصر، ويحلحل اقتصادها، ويكشف ضعفها العسكري، ثم انصرفنا عمّا قد يضعنا في الطليعة“. ربما لم يصرح بهذا القول جهراً، لكنه بالتأكيد سمع نفسه وهو يحاول أن يحلل المشاهد التاريخية من جديد. في تلك الليلة بالتحديد، حضّر مجموعة أوراق، وضعها على مكتبه الذي يحتل ركناً في صالون الشقة، صففها باهتمام، نظرت غنيمة من مكانها في الأريكة، كانت تضع كوب الشاي على طاولتها: ”بحث كبير...“ لم يجبها من فوره، ترك لحظة صامتة سوى من صوت

المبراة وهي تسنّ قلمه، ثم كتب شيئاً في صدر الصفحة: "قد تكون رواية كبيرة". تعجبت غنيمة، ابتسمت وقالت: "مبروك". اتسع جانبا شارب الآخر، لم يعلق، رماها بنظرة لامعة. أكملت غنيمة ليلتها تقرأ من كتاب حتى غلبها النوم، وقبل أن تنزح إلى فراشها، نظرت إلى أوراقه، وجدت عنوان "الوضع العربي" ومن تحته عدة فقرات في تصدير كتابته، وقد شطبها بقلمه دون أن يستخدم الممحاة، بدت لها مثل اقتباس، لأنها تذيّل باسم "الجبرتي". تساءلتْ: "لمَ يصحح كلمة منقولة عن آخر؟".

***

"ما عنوان روايتك الثانية؟".

سألتُه في مكالمتنا الهاتفية الأخيرة، ردّ كمن لا يود البوح: "ضياء الوحل". فهمتُ على نحو ما أن الوسط الأدبي لم يستقبلها كما فعل مع الأولى. أخذ يسطّر أسبابه لهذا التلقي المتفاوت، لكنه لم يبدُ مقتنعاً بما قاله، أعرف هذا، أو ربما لم يكن مرتاحاً مع ذلك الوضع: "القرّاء ما زالوا مرتبطين بالرواية الأولى، ربما كان عليّ الانتظار أكثر".

كنّا نُعدّ بعض الترتيبات المتعلقة بعودته إلى الكويت، لقد أتمّ دراسته وتحصل على الشهادة وأصبحت إقامته المؤقتة في القاهرة قيد النفاد: "يعني انتهت المصلحة؟" يناكفه الهلالي بودّ وهما يسيران في إحدى السكك الهادئة التي تظللها أشجار البونسيانا التي تنبت في عليّتها زهور حمراء، يعرف أن صاحبنا بودّه أن يبدأ مغامرة جديدة، يشتري دراجة بخارية يطوف بها مصر جنوباً وشمالاً: "هذا ليس وداعاً يا خال" ثم يتحدث عن ظروف عمله ومسؤولياته التي تمنعه من البقاء، خلاف خبره الحصري: "غنيمة حامل" ابتسم صاحبه: "يلزمنا قلب وجع الرحيل إلى احتفال" ثم وقف عند أول محل بقالة كي يستعمل هاتفه ليتحدث إلى زوجته: "صديقتك غنيمة حبلت، نحتفل الليلة...". ومضى اليوم سلساً عفوياً جاء وفق ما جاء، في شقة الهلالي أفضى طرفة بحقيقة تعلقه الشديد بمصر رغم مرور سنتين كاملتين بصيفيهما وشتاءيهما:

”ليس كافياً، سأعود“ لكنه استدرك قبل أن يغادر: ”وستأتي أنت إلى الكويت“.
هزّ الآخر رأسه بابتسامته: ”حاضر، ومن دون دعوة“.

ارتج شيء في صدر طرفة عند باب المطار، قال دون أن يتفوه بكلمة: ”لقد شهدت هنا، وفي مدة وجيزة، الحلو والمر، البدء والتحول، الهامش والصدارة“. أخذ الخال في أحضانه، وقد بدا متأثراً رغم تماسكه: ”بلّغ تحياتي لكل الناس الحلوة“.

***

”روايتك الثانية لا تقل روعة عن الأولى“.

أومأ برأسه كما الواثق، كان يتحسس بثرة نبتت أسفل ذقنه، قلت له عما رصدته من تباين بين الاثنتين، الأولى اعتمدت بشكل كبير على التداعي، الأخرى تعود بالزمن إلى الوراء في قَطع مفصول وواضح، رواية ”ضياء الوحل“ أكثر تماسكاً واندماجاً لا تُتعب قارئها. كنّا نجلس في مقهانا المعتاد بمنطقة شرق، الكويت آخذة على التحول بوتيرة متسارعة، تاه قليلاً قبل أن يصل إلى هنا، كان قد حضّر معه مجموعة من الصحف، وضع واحدة على الطاولة، تطلعت إليها كانت جريدة ”السياسة“، ثم قلبها على ظهرها، أشار إلى رسم كاريكاتيري: ”تعرفه؟“ نظرتُ في الرسمة كانت تعرض شخصاً يحمل معه فأساً يقطع بها شجرة تنمو منها أغصان على شكل أقلام، وبالقرب منه يقف طفل يولي ظهره لنا، كان حجمه أصغر مما يجب، قلت: ”لم أعرف الشخص المقصود في الرسمة“ طوى الصحيفة، قال: ”أقصد الرسام“ قلت: ”ولا هذا“ قفز حاجباه مستنكراً: ”هذا فارع حسين، أتابعه منذ كان في صحيفة الطليعة“ ملتُ برأسي قليلاً: ”تعجبني الرسومات الكاريكاتيرية، لكنني لم أفكر في التعرف على أصحابها“ أشار طرفة إلى عامل المقهى، طلب منه استكانتي شاي: ”هذه الرسومات ليست للتسلية“ ثم سعل كمن يستعد للبدء في موضوع جديد: ”لو تأخذني في زيارة إلى جريدة السياسة، أود التعرف عليه“.

***

صالح، الأخ الأصغر لطرفة والذي يليه في الترتيب مباشرة.

تحصّل على شهادته الجامعية من كلية القانون في بغداد، وبدأ عمله في سلك المحاماة بعد بضعة شهور من انتقالهم إلى الكويت. زاره في شقته، يحمل معه ملفاً متخماً بالأوراق: "هذه قضيّة منتهية لشاب فلسطيني كاد أن يُعدم" بقدر اهتمام طرفة بموضوع أخيه فإن الأمر قد التبسَ عليه، تساءل في نفسه حول علاقته بالأمر. أشعل سيجارة بعدما أعدّت غنيمة لهما القهوة، أخرج الأوراق من الملف، لكن أخاه تابع حديثه قبل أن يشرع في قراءتها: "استأذنتُ صاحبها، أخبرته عنك ككاتب معروف، ربما تنفعك بشكل أو بآخر" قد يبدو للرائي أن صالح يكبر طرفة، بسبب بنيته الجسدية وملامحه الحادة: "تتركها عندي أرى مدى جدواها" بينما أكد الآخر: "هي لك، لا تردها".

غنيمة حفّزت زوجها بعد يومين لقراءة حيثيات القضية.

حكاية مؤذن شاب يعيش مع زوجته وطفلته في شقة تبعد مسافة لا تزيد على مئة متر من المسجد. خرج إلى صلاة الفجر في يوم شتويّ غائم، الشوارع مكسوة بضباب نديّ، الرؤية عسيرة على بُعد عشرة أمتار من مكانه. سمع صوت أنين أنثويّ آت من زقاق يشق بعض المنازل التي تُصادف طريقه، ما استطاع تجاهل الأمر، ظلمة الفجر وتكاثف رطوبة الطقس على نظارته الطبيّة، استعصى عليه إدراك الحدث، كابد للوصول إلى مصدر الصوت، تبدى له عن قرب، رجلان، أحدهما يحاول خنق فتاة، بينما تجاهد الأخرى رغم غرقها بدمائها إثر تعرضها إلى عدة طعنات في جسدها، تُقاتل للحفاظ على روحها. شجاعة المؤذن دفعته إلى التدخل دون تفكير، ركل الرجل الذي يبرك فوق صدر الفتاة، حاول دفع الآخر، في لحظة تَعاضَدَ الاثنان، أسقطاه، أحدهما طعنه أسفل قفصه الصدري ثم فرّا من الموقع، انتزع الشاب السكين من جسده، حاول الصراخ قدر استطاعته، يأمل الاستعانة بأحدهم كي يبلغ الشرطة، التفت إلى الفتاة، وجدها هامدة بلا حركة ولا صوت، زحف إلى حائط قريب، ظلمة قاتمة وزقاق غير معبد مليء بالقاذورات، ولم يظهر أحدهم ينجده، حاول الوقوف والتوجه نحو الشارع، يضع يده على جرحه، انتبه أن نظارته ليست في مكانها، الرؤية باتت شبه مستحيلة، لكنه قبل أن يصل إلى هدفه، تراءت له

أضواء سيارة نجدة ساطعة تخترق عتمة المشهد، أزرق أحمر، أزرق أحمر، ربما شخص من أحد البيوت القريبة أبلغ الشرطة، المؤذن ملطخ بالدماء، السكين مُلقاة بالقرب من الفتاة التي لقيت مصرعها بسبب النزيف الناتج عن سبع طعنات، بصماته على أداة الجريمة، ولا أحد آخر في الموقع.

***

باستطاعتنا أن نحيل الحكاية، ننقلها من موقعها في الكويت إلى فلسطين.

هكذا فكّر طرفة، قلتُ له: "أنت في حالة احتشاد من أجل رواية ضخمة كما قلت لي" رد الآخر بعد ثوان: "لا مانع أن نضع مشروعنا الأول قيد التوقف ريثما نكتب عملاً يشكل مدخلاً للتعبير عن القضية الفلسطينية" ثم أضاف بعد دقيقة: "لا أظنها رواية تستغرق مدة كتابة طويلة".

الاستعانة بالرسّام فارع حسين فكرة رائعة. في اليوم التالي كنتُ رفقة طرفة أمام مبنى جريدة السياسة، استوقفنا حارس الأمن: "ممنوع الدخول لغير العاملين في الصحيفة". أخبرناه برغبتنا في لقاء الرسّام: "هل هناك موعد مسبق؟" نظرتُ إلى طرفة، قال بدوره: "لا، فقط لو تتكرم وتبلغه بوجود ضيفين يرغبان في التحدث إليه". نظر إلينا قليلاً، أومأ برأسه موافقاً، ثم طلب بطاقاتنا الشخصية، وأرسل شخصاً آخر ينقل طلبنا إلى الأخ فارع، لكن الرجل ما لبث أن عاد سريعاً، أخبرنا أن الرسّام لم يحضر إلى الجريدة اليوم، تَحيّرنا ماذا نفعل، قال طرفة: "سأترك رقم هاتفي واسمي، وأرجو أن تخبره بأمري إذا حضر في الغد" وافق الحارس، فتح دفتراً كبيراً على طاولته: "الاسم الكريم؟".

بعد يومين تقريباً، تلقّى طرفة اتصال الرسّام في شقته، بدا صوته هادئاً، يترك برهة صمت بين الجملة والأخرى، اعتذر لطرفة قال: ”منذ فترة لا أداوم على الحضور في مبنى الصحيفة بشكل منتظم، أُرسل الرسمات المقترحة عبر الفاكس. إذا لم أوفق في ذلك بسبب رداءة الحبر أو أي ظرف تقني، أضطر أن أوصلها إلى إدارة التحرير وأعود مجدداً إلى شقتي“. شَرَح له طرفة على مضض سبب رغبته في اللقاء: ”أمر فنّي يخص الشأن الفلسطيني“ كان الآخر بسيطاً منفتحاً على كل الاقتراحات، راحا يرتبان موعداً للقاء، لكن فارع باغت طرفة في سؤاله: ”عفواً هل أنت الكاتب صاحب الرواية الممنوعة؟“ ابتهج صاحبنا، شَعَر بأهميته كروائي: ”نعم أنا هو...“ لم يتوان الآخر: ”سأسعد بلقائك في شقتي إذا أحببت“.

***

اقتطع طرفة من وقت قراءاته المسائية في ليلة مكالمة فارع حسين، ليعيد مطالعة أعماله المنشورة في الصحف، تفرّسَ شخصية الرجل العربي

المغلوب، الأصلع الشاحب ذي الأنف الأفطس والشوارب الكثة، الذي يستخدمه فارع في مواقف الخذلان والسخرية والسخط. ظَهَر في إحدى رسوماته وهو يرفع ذراعه ينادي: "أخي في العروبة" ثم يرفع ذراعه الأخرى: "أخي في الإسلام" ثم يضع يده على خده: "أخي في الدنمارك". راوده حلم غريب بعد أن طوى الصحف وأوى إلى فراشه، رأى نفسه يدخل ممراً تحده مرايات من الجانبين، يستدل على طريقه من خلال أسلاك شائكة معلقة أعلى منه، لكن هذا لم يمنع من ارتطام رأسه مرة بعد أخرى بزجاج يحسبه معبراً، إلى أن يصل إلى مرآة عُلّقت عليها ورقة رُسم فيها صورة طرفة يهرب من طلقات نارية، تجاهلها ومضى في طريقه على نفس الوتيرة، انتبه بعد قليل أنه أصبح يرتدي قناع أكسجين، وأحس بأنفاسه بدت ثقيلة، حتى وصل إلى مرآة أخرى عليها صورته مكبّلاً بالقيود، ثم يجد ذراعيه قد وثقتا بالفعل بأصفاد حديدية، تنتابه مشاعر الفزع، يحاول الخلاص، يصطدم بالمرايا، لا يستطيع الركض، يثقل تنفسه أكثر، يصل إلى مرآة ضخمة، يفهم أنها النهاية، يتوجه إليها، يفطن إلى الرسمة الأخيرة، طرفة مسجّى وعليه لحاف، يسقط فجأة على الأرض، يتحدث إلى نفسه في الحلم يقول: "أنا من الشهداء".

١٧

مارس، عام ٢٠١٤

بالعودة إلى حادثة السقوط، زمن الطفولة، زمن اقتحام المنازل المهجورة.

تستدعي الذاكرة لحظة موت محتملة، كلما داهمتني مشاعر مختلطة من التخلي والخذلان. كنتُ وحيداً حين ارتخت الحجارة أسفل قدمي، ما كان لأحدهم أن يسند ظهري، لحمي وعظامي فقط كانا عضدي.

بعد بضعة شهور من ولادة سعود، عزمت أمري، قلت لزوجتي: "وجدت شقة في منطقة الشهداء" جمعت مبلغاً يؤمن انتقالنا لفترة جيدة دون معاناة. لم يستغرق قرار الهجرة من بيت العائلة أكثر من أسبوعين، بعد مضايقات متعمدة ومتواصلة، بدا لي أنه لا بد من حسم الأمر، الابتعاد سبيل لحماية زيجتنا، ربما البقاء كان سيؤدي بشكل أو بآخر إلى الانفصال. كنتُ أنقل أغراضنا على مرأى من والدتي: "سامحيني، لكنه خياركم" ربما هي خطوة تجعلهم يفكرون جدياً في توخي الحذر عند الاقتراب من شؤوني الخاصة. كنتُ متحاملاً عليهم جميعاً دون استثناء، الذي فعل، والذي لم يبدِ أية ردة فعل.

الانتقال، يشبه اليقظة من حلم السقوط. الوقوف على أرض يابسة، تدارُك الوقوع في منحدرات أخرى، ومحاولة البدء من جديد. أحمل صناديق من الكرتون تحوي من الذكريات أكثر من الأمتعة، أفقد بعضها ربما وأتخفف من أخرى، أتخلص من جروح أبت أن تلتئم، أتحدث إلى سعود الذي ينظر إليّ منشدهاً، كأنه يدرك أن خطباً ما يحدث، أطمئنه: "ستذهب إلى مكان أفضل". السكن في شقة صغيرة تمنحنا بعض الدفء والقرب، مشاعرها حميمية أكثر من منزل مترامي الأطراف.

منذ الانتقال، هجرتُ زيارة العائلة الأسبوعية، وزوجتي كانت تعترض على قراري هذا، تلحّ: "صلة الرحم واجبة..." كنت متمسكاً بغضبي، بردة الفعل التي كانت تصرخ بالنيابة عني.

***

لرواية الحجل حضور لا بأس به بين القراء، أفضل من مجموعة المنبر.

بالتأكيد لم تكن هذه النتيجة التي تخيلتها، لكنها كانت قادرة على لفت انتباه البعض. إيمان طرفة، وسعيه لتقديمها إلى قراء نوعيين من زوار مكتبه، يشي باحتواء النص، أو قدرته على أن يدخل بوابة الروايات بثقة أكثر من خجل. كنت أظن أن التحدي يكمن في الاشتغال المكثف على البناء الفني للنص، وهذا ما سينعكس على القراء بالضرورة، لكن الخيال أسهل من الواقع، الآخرون تلقفوه ربما بمشاعر سئمة، لماذا نقرأ رواية يصعب علينا فهمها؟

قبل أشهر قليلة فزتُ بجائزة القصة القصيرة التي تنظمها مجلة العربي، أشعَّ هذا الخبر وهجاً خاصاً في قلبي، الحضور الحقيقي الأول، كانت المُحكِمة روائية ومترجمة معروفة تقيم في الدنمارك، كَتَبَت في تعليقها حول القصة الفائزة أن كاتبها يحمل نَفَساً روائياً. كان برهاناً متبادلاً لي ككاتب مبتدئ ولها كممارسة خبيرة تنبأت بهذا من خلال قصة مكونة من صفحتين أو ثلاث. بالفعل جاءت الرواية بعد شهور قليلة. كانت تلك آثاراً تشي بأنني أخطو في الاتجاه الصحيح، لكن رغم هذا، لم يتوقف سؤالي المتكرر على طرفة كلما سمح حوارنا بذلك: "إلى أي مدى تعتبر كتابتي جيدة؟". الشك فارس صنديد يمتطى حصاناً مجنحاً يقتل من يعترض طريقه دون رحمة، دون توقف، دون نقاش، إلّا إذا اختبأت وراء درع من حديد ومضيت بحذر متوجس من حضوره الآتي.

يحار طرفة في اختيار إجابة مناسبة لردع المشاعر المرتبكة التي تعتريني كل مرة، يعاتبني بطريقته: "أنت تنتقص من نفسك، وتبالغ في ذلك" لكنه دائماً ما يُذكّر بضرورة التركيز من أجل كتابة جديدة، قراءات مختلفة، توصيات متوالية، يصارحني بقصص لآخرين استبشر بهم خيراً لتولي زمام الرواية من بعد جيله ومن أتى بعده، خيبوا أمله وكأنه يقول لي: "لا تكن مثل أولئك تحمل معهم لواء الفشل" لكن ما كان يقوله بالفعل: "هذه رواية أولى تنذر بولادة كاتب جيد".

بعد وقت، تلقيت دعوة من نادي الخان للقراءة من أجل مناقشة رواية الحجل، كان أحد أعضائه صاحبي مشاري مؤلف مجموعة مومباي. تبدى لي من اللحظة الأولى أنها ثلة نوعيّة خبيرة، وعلمت حينها أن بعضهم يُعد دراسته الأكاديمية في حقل الآداب، وبعضهم الآخر متمرس مطلع على الكلاسيكيات والحداثيات، ورغم أن كل فرد منهم تناول النص من جانب مغاير ومتنوع، فإنني لحظتها شعرت أن كل هؤلاء أنا. تيقنت وقتذاك أن الكتابة هي المكان الآمن لي، هي التي قادتني إلى عائلتي، وإلى الحيوات التي أحب عيشها. وفي إحدى الليالي الموالية ليوم نادي الخان، جاءت لي جدتي المتوفاة في المنام، بعباءتها التي تلتحف بها من أعلى رأسها حتى أسفل قدميها، كان في فمها أحاديث كثيرة، راحت تحكيها وتشرب من استكانة شاي تطير بالقرب من يدها، تجلس في نادي القراءة ذاته لكنها تتربع أعلى كرسي وكأنها تقتعد الأرض، ثم قاطعتها فجأة وسألتها عن أبي، إذا ما رأته، إذا مرّ من صوبها في برزخ أو مكان. لم تجبني، قلت لها كيف يبدو؟ هل يشبهني؟ ولمّا استيقظت من النوم تذكرت أن أبي ما زال على قيد الحياة، وكنتُ قد تركت منزله بمحض إرادتي.

***

عادت الحياة رغماً عني. عاد عقلي، عادت الزيارات العائلية.

تحدثتُ إلى أبي حول بيته القديم الخرِب، الذي ولدتُ فيه وعشت كل سنوات عمري حتى انتقلنا قبل سنة من زواجي إلى آخر جديد. البيت القديم المتروك على علّاته، في حضرة الطفولة وثقل التجارب والشقاوة والآلام، البيت العتيق الذي رفض أيّنا البقاء فيه، حيث يربض في منطقته المنبوذة التي يخجلون من الانتماء لها، لأنها ما عادت تلائمهم. كان لا بد أن أنقذ المستقبل، عرضت عليه شراء البيت بقصد هدمه وإعادة بنائه. لم يكن مقتنعاً في البدء: "لمَ عليك تكبد هذه المشقة" قلتُ دون أن أفكر ثانية واحدة: "هذا عناء يثقل كلما تقدمتُ في العمر". لم يرغب بتسليم الأمر في البدء، انتهت المكالمة بعد أن وعدني بمراجعة الأمر ومعاودة الاتصال لاحقاً، لكنه لم يفعل حتى مضى

أسبوع، اتصلت به، راح يحاول إقناعي بالعدول عن الفكرة والعودة إلى بيت العائلة. لم يكن لأحدهم قدرة على تغيير رأيي، استمرت النقاشات والاتصالات مدة، إلحاح وسبل إقناع عديدة، حتى أذعن أبي ووافق على الطلب أخيراً.

***

منتصف عام ٢٠١٥

لم تكن مساحة الشقة الصغيرة بيئة جيدة لبدء كتابة جديدة.

على بُعد شارعين كان هناك مقهى ألجأ إليه كل ليلة بعد الساعة الثامنة، الوقت الذي يخلد فيه سعود إلى النوم. قلت لطرفة: "لا أعرف إذا ما كانت خطوة صحيحة أن أبدأ بكتابة رواية جديدة وسط الانشغال التام بمسألة البناء". كان ينظر إلى سيجارته وينفخ عليها يطيّر منها عالقاً قبل أن يشعلها: "ما دام هناك شيء يدفعك للكتابة، اكتب...".

كانت النهارات طويلة جداً، أقضيها طولاً وعرضاً في الركض المتواصل لإنجاز متطلبات أوراق البلدية واستخراج التصاريح اللازمة لبدء العمل. لم تتحرك بداخلي أية مشاعر حين رأيتُ آلة الهدم تهوي على حجارة بيتنا، يتحطم السطح، النوافذ، والأبواب، تستوي أسقف الغرف بقاعها، تطيح خرسانة ضخمة في حوش البيت، موقع النخلة التي كانت تطلُّ على غرفتي. لا أعرف لماذا لم أهتز، تاريخ المكان ينضح بكل ما آلت إليه نفسي، وكأنني أقول لعامل الهدم: "اضرب" ولا ترحم، ولا تُبقِ أثراً ولا شكلاً لما مضى: "اضرب بقوة" كل مراحل العُمر، حتى نصنع عمراً آخر داخله يوائم خارجه: "اضرب ولا تلتفت إلى الوراء" ليتصاعد غبار الماضي، ليعرف الجميع أن هنا مكاناً يموت.

ثم بدأتُ بالحفر. كنتُ أجيء صباحاً في أيام العطل، أقرأ على مسمع من قرع الحديد، ومنشار النجارة، على خناقات المقاول ورجاله، على جدال من أجل حل معضلات تعترض تنفيذ المخطط، وعراقيل يفرضها واقع البنية التحتية، وقد يُعرّض منازل الجيران اللصيقة لمشكلات، وخلال هذا وذاك كنت أكتب.

أحكي لطرفة نهاية الأسبوع بعض الأحداث والمواقف الكثيرة التي تواجه مراحل البناء، يقول: ”هذا زاد من الخبرة، سيعينك في كتاباتك اللاحقة“ ثم يستذكر المَثل القائل: ”بيتك الأول تبيعه، الثاني تؤجره، الثالث تسكنه“. جئت به ذات مرة إلى البيت بعد أن انتصب جزء من هيكله، نَظَر إليه وطاف حوله يتأمله بصمت بينما أشرح له ما سيكون هنا وما سيُبنى هناك، بدا لي أنه يستذكر بيته الوحيد الذي غيّبته الظروف، ثم راح يسألني عمّا سأفعل في الارتداد الواقع أمام البيت، وبعد أن خلصت قال: ”ازرع لك نخلة هنا، وهناك“. في حين كنتُ أقطع أشواطاً في الكتابة، كما لو كنتُ متفرغاً تماماً لهذا الفعل، كانت الأفكار تسيل من عدم، ربما لأنها سوداوية بعض الشيء، لكنني كنت أستمتع أيما استمتاع بها. بناءان متلازمان لا يتوقفان، أحدهما أسابق به الزمن، تدفعني الالتزامات والإيجار، ولأن زوجتي حبلت مجدداً، البناء الآخر يجرني جرّاً، يرتفع في الورق، يدفعني بحكايته التي تبدأ من لحظة الموت. كنتُ قد خلقت عائلة فيها زوجان وطفل يعيشون في شقة صغيرة، تماماً مثلي، وفي مطلع الرواية، قتلتُ نفسي.

١٨

يسكن في حولي، مثل غالبية الجالية الفلسطينية المقيمة في الكويت. وصل طرفة حسب الموعد عصر يوم خميس، العمارة في زاوية تقاطع شارع موسى بن نصير مع شارع ابن خلدون المكتظ بالمحال التجارية، وقف طرفة ينظر من حوله، رأى رجلاً يشرع في الدخول حيث وصف له فارع مقر سكنه: "يا أخ..." توقف الآخر التفت: "أبحث عن الفنان فارع حسين، تعرفه؟" أكد له الرجل، أن فارع يسكن في عمارته نفسها، الطابق الثاني، عنَّ لطرفة سؤال: "عفواً، كيف يبدو؟" ثم تدارك سؤاله وراح يوضح الغاية منه: "أخشى أن أطرق باباً خاطئاً" تفهمه الآخر على الفور: "طويل ونحيل شعره أجعد..." ثم أضاف إفادة أخرى: "عندما يسير لا يلتفت أبداً، فقط ينظر إلى الأمام" كان طرفة يحمل معه ملف القضية، وعشر ورقات مكتوبة بخط يده، نموذجاً لمدخل الرواية. حين طرق الباب، فتح فارع بنفسه، وبصوته الهادئ: "أهلاً، أهلاً..." ثم صافحه بشدة ووضع يده على كتفه، استحضر طرفة ترحيب نجيب محفوظ، كان الرسّام شديد الفرح بلقاء الكاتب الذي مُنعت روايته. شقته مرتبة ألوانها تراوح ما بين درجات اللون الزيتيّ والبُنيات، في أقصى الصالون، انتبه إلى وجود ركن فيه طاولة خشبية بالقرب من النافذة، ومن حولها على الحائط عدد هائل من الرسمات أشبه بالمحتَرَف الصغير.

جلسا في مكان بالقرب من الباب، غاب قليلاً وعاد بفنجاني قهوة، كان يسير بقربه طفل يحمل بيده قناني ماء، قال: "هذا ابني، سلّم على عمك" قبّله طرفة وتحدث إليه قليلاً قبل أن يعود إلى غرفته، لاحظ طرفة أن فارع ينظر إلى أوراقه على الطاولة كلّ دقيقة وأخرى، حينما قال: "وَضَعَك الشاعر الكبير عبد الغفور ضمن مقدمته في صف واحد مع صديقي المقرب الروائي إميل حبيبي، وقدوتي غسان كنفاني" رفّ رمش طرفة عند سماع كلامه هذا، أضاف إليه: "كنفاني معلمي كذلك، أنا متأثر به جداً" سرعان ما أخذت جلستهما طابعها الوديّ، بطبيعة طرفة راح يعدد الأعمال التي قرأها لكنفاني، ويتحدث

عن فنيّاتها الدقيقة، بادله الآخر، تحدث عن عمله "قبل اغتراب السماء" ومواطن الجرأة العجيبة، ردّ طرفة: "لست أكثر جرأة منك" ثم نظر إلى الطاولة البعيدة، حيث مكانه المخصص للرسم: "أود فعلاً أن نكمل حديثنا هناك..."

***

يعترف فارع حسين: "أنا ناصري متعصب، ومنذ وفاة الزعيم لم أعد أذهب إلى العمل بانتظام".

كان طرفة يتحدث عن قلق أو مخاوف دهمته إزاء حلم راوده ليلة البارحة، شديد الوضوح إلى درجة أنه لم ينس أياً من مشاهده. المرايا التي تطوقه من كل صوب، انعكاس ملامحه الهلعة، اللوحات التي تقفز به من مرحلة إلى أخرى، وجه طرفة المرسوم بأسلوب فارع، تنفسه الثقيل وحالته المريضة. كانا قد انتقلا من مكانهما إلى طاولة الرسم الخشبية بالقرب من النافذة، شعاع الشمس يثقب الزجاج ويشعّ فوق إطار الشبّاك الفضيّ، يعكس النور فيكوّن بقعة حول فنجان القهوة، يبيّض السطح الخشبي. يفضي طرفة بحلمه يعترف: "مشاعر راودتني إثر ما رأيته، أخبرتني أنك شخص قريب، تشبهني إلى حد كبير".

إذا أردنا أن نتناول الأمر من الخارج، فإن فارع حسين غير بعيد عن هيئة الخال الهلالي، النحافة والطول وملامحه الحادة، يتناقضان في الطباع، هادئ وصاخب، ثرثار وصامت. يَلمَح طرفة ثمرة طرية ناتئة ذابلة أقصى الطاولة، مستديرة تشبه بطيخة صغيرة، يضعها الرسام على طبق صغير تتوسط ورقة بيضاء من تحتها، رسم عليها دوائر من كلمات صغيرة منمنمات يصعب قراءتها، تحوّط الطبق، دوائر ودوائر مثل دوامة بحرية سحيقة، مثل عشّة تحتضن ثمرته. طرفة يحب النباتات، يحب الفواكه والخضار: "ما هذه؟". نظر فارع إليها، قال وعيناه لم تبتعدا عنها: "أنا مثلك كذلك، ما كنت أعرفها، جرى هذا حين عودتي من زيارة الأهل في لبنان، مخيم عين الحلوة، عبر القطار من شمال العراق حتى جنوبها باتجاه البصرة، توقفنا عند محطة فآثرت النزول من

أجل تدخين سيجارة في الهواء الطلق، كان الوقت ليلاً، نور خافت يأتي من أعلى المقطورة، لفت انتباهي نبات زاحف من الضفة المحاذية لسكة القطار، يتسلل من أسفل أشجار عالية، تثمر منه هذه الدوائر الشبيهة بالكرات الصغيرة، انحنيت عليها أشعلت عود كبريت كي أتفحصها، نبّهني أحدهم يقف في مكان قريب، احذر! كررها، احذر، احذر، التفت إليه، فقال لي إن هذه حدجة شديدة المرارة، إذا لمستها فقط سينتقل طعمها المرّ إلى لسانك" فطن طرفة، قال له: "الحدج هو الحنظل أليس كذلك؟" هزّ رأسه: "نعم أظن ذلك". أخذ فارع يفتح ورق السلوفان لعلبة سجائر جديدة، مرر واحدة إلى طرفة، ثم أشعلها له، تابع حديثه: "تظاهرتُ أنني صرفت النظر عنها، كان الرجل يصرّ على خطورة لمسها، ما كنت مقتنعاً بكلامه، فتحت حقيبتي أخرجت منها مناديل ورقية، انتهزت غيابه قبل تَحرُّك القطار بدقائق قليلة، لففت إحدى الثمرات ثم شددتها واقتلعتها فخبأتها بحركة سريعة كأني أسرقها، ظلّت بداخل الحقيبة يومين كاملين، ما رأت النور مرة أخرى إلا على هذه الطاولة".

استدرك طرفة: "وهل لمستها منذ حلّت هنا" قال جملته وهو يمرر أصابعه على سطح الحدجة، مدّ الآخر يده باتجاهها: "لمستها، ونظفتها، واعتنيت بها، وأصبحتْ رمزاً، أنا وهي شيء واحد" ثم أشار إلى الفتى الذي يولي ظهره لنا، الوسم الثابت في رسوماته الأخيرة، وأخذ يقرّب الثمرة من رأسه. قال طرفة: "صحيح، كل رسوماتك المنشورة في جريدة الطليعة، ما كان لهذا الفتى وجود" اقتلع فارع بعض الأوراق أو المخطوطات من الحائط القريب، الأوراق التي تحوي ربما نماذج أو محاولات أفكار: "جريدة السياسة شهدت ولادته الأولى منذ وقت قريب، اسمه حدجة، أو حنظلة إذا تحب" ثم نظر إلى ملف الأوراق الخاص بطرفة، وضع ثمرته فوقها: "ما قصة هذه الأوراق؟".

***

عبَّ المكان بدخان سجائرهما، اضطر فارع إلى فتح النافذتين القريبتين.

طال الحديث ولم يتحدثا بعد في موضوعهما الأصليّ، أكثر من خمسة فناجين قهوة لكليهما، تمرّ الساعة تلو الأخرى، لا بأس من وقت إضافي، ما دامت الشمس لم تغرب. حديثهما يأخذ تفرُّعات كثيرة، مستحيل لهذا اللقاء أن يكون الأول، يبدو أنهما صديقان قديمان يُكملان حواراً انقطع منذ زمن غابر.

أخرج طرفة رزمة أوراقه من ملف مكتب المحاماة الذي يعمل به أخوه صالح، فلت طرفُها من يده، ارتطمت بسطح الطاولة، اهتز فنجان قهوته تطايرت منه قطرات على الأوراق. هذه قضية لشاب فلسطيني يعمل مؤذناً في منطقة السالمية. كان فارع يقضي على سيجارته في المنفضة: "الذي وُجهت إليه تهمة قتل عمد" نظر إليه طرفة، تابع الآخر: "تَدخل بين أخوين يقتلان أختهما بذريعة غسل الشرف... أعرفه" تفاجأ صاحبنا: "تعرفه شخصياً؟" نفى الرسام برأسه: "كل قضايا الفلسطينيين محل اهتمام خاص" الحكم على الشيء فرع عن تصوره. من دون أن يضيف حيثيات أخرى، أخرج ورقاته العشر التي كتبها نموذجاً لمشروع روايته: "أود لو تقرأ هذا المدخل المتعلق بكتابة عمل جديد يختص بالقضية الفلسطينية". ابتسم فارع، بالأحرى كان ابتهاجاً بيّناً: "إذن ستكون روايتك الثالثة فلسطينية". لم يرغب أن يوضح هذه المسألة، لكنه خشي أن يكون صمته شكلاً من أشكال العشم: "في الحقيقة، ربما ستكون الرابعة أو الخامسة". طرفة وضع نفسه في دوامة من النصوص غير المنشورة، والروايات غير المكتملة، لكنه كان متأكداً أن هذا النص لن يكون الكتاب التالي.

***

"مبدئياً، وُفقت في اختيار الفكرة واللغة، القتيلة فلسطينية، المتهم فلسطيني، المحقق مُحتل".

اللقاء الثاني في جلسة خارجية لمقهى على شارع أحمد الجابر. نهار ربيعي صحو، وسط صخب حركة السيارات، ورحابة المكان المؤلَّف من حارتين يفصلهما رصيف عريض، وتحفه من الجهتين عمارات عالية تظلل المشاة. هذه الأجواء تلهم طرفة المهموم بالبحث عن بيئة مناسبة تمنحه القَدر الكافي من

الخيال، الأماكن والروائح والقرى، لم يخيب فارع ظنه، على الفور اقترح عليه السفر إلى لبنان، يرسله إلى أماكن محددة تعطيه الزخم العاطفي الذي يحتاجه. أخذ ورقة وقلماً وراح يسجل كل المعلومات التي قد يحتاجها، أسماء أشخاص يبخصون طريق الجنوب، يرافقونه في رحلة تقرّبه من المناطق الحدودية، من الناقورة حتى مطلع منطقة حرمون جبل الشيخ، ربما يدفعه كذلك للقاءات مع النازحين في المخيمات. أخرج مفكرة من جيبه، ينقل أرقام هواتف إلى ورقته. قال طرفة: "ربما هذا أكثر مما أحتاج". حماسة الآخر تجعله لا يصغي إلى امتنان واكتفاء الأول.

***

كان من المقرر أن يشد طرفة رحاله في وقت قريب، خطط أن تتراوح مدة السفر مبدئياً من عشرة أيام إلى أسبوعين، لكن والدته صابرين توعكت ودخلت المستشفى بسبب مشاكل في الأمعاء، تزامن هذا مع دخول غنيمة شهرها التاسع، فقرر تأجيل الرحلة إلى وقت آخر. الناشر في لبنان صدّر روايته الجديدة، تفاجأتُ شخصياً بذلك، من المعروف أنه ما زال في جعبة طرفة روايات جاهزة غير منشورة، لكنني ظننت أن نتيجة "ضياء الوحل" جعلته يتريّث أكثر، كان يرد على تساؤلي بشيء من عدم الاكتراث: "أعدت حساباتي مرة أخرى" عدتُ إليه بعد أن قرأتها. عنوانها "الطوق" وتذكرتُ أنه أخبرني ذات مرة عن جماعة في العراق اعترضت على فحوى النص لأنه يصوّر أحد أفراد حزبهم بمظهر اللص، يتسلل إلى البيوت ليلاً يقفز فوق أسوارها، يخدع زوجته ويعيش على الاحتيال والكذب. رجل بلا مبدأ ولا قواعد أخلاقية تحكمه: "ألست بهذه الكتابة تفتح على نفسك النيران؟" كانت هبّات الرياح شديدة يومها، تتكاثف ثم تهدأ. كازينو الشاطئ الفضي محط اللقاءات الأخيرة. يقع في رأس منطقة السالمية، المكان مكشوف يطل مباشرة على ساحل البحر، مساحته شاسعة وعلى جانب منه مراجيح وألعاب للأطفال. رفع صوته: "الكتابة غالباً ما تكون حقل ألغام" كان يتحدث كثيراً عن شخصية فارع حسين، رسوماته اليومية في جريدة السياسة، هجومه العنيف على سلوك قيادات

رفيعة تنتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية، الجرأة إضافة إلى الشجاعة، هذا ما يحتاجه فنان يحمل بداخله قضية: "المواقف تتطلب صراحة فجة أحياناً". وجود طرفة في الكويت، ابتعاده المادي عن العراق، التحولات المستمرة في سياساتها الداخلية، ربما ضعف مقروئية ضياء الوحل، والطوق تباعاً نابع من كونهما لا تتناولان قضايا تواكب ما يعيشه الناس، لا هنا ولا هناك، حاولتُ عدة مرات أن أحفزه للتعبير عن القضايا التي تدور في محيطه: "الكتابة عن الكويت تجعل منك كويتياً". ومن منطلق اعترافه السابق الذي يشي باعتباره كاتباً سياسياً بالأصل، فإن البيئة هنا تحدوها أجواء من الحرية النسبية، الطبيعة الاجتماعية المتداخلة، وشكل من أشكال المشاركة بالحكم: "لم أجد بَعد المشاعر التي تدفعني لفعل ذلك". أفكر أحياناً أن الطفولة ربّة الخيالات الخصبة، ربما تتوالد أخرى إذا ما بقيتَ في مكان مدة زمنية مضاعفة عمّا رأيته في السنوات البكر.

***

خرجت صابرين من المستشفى، وعادت مرة أخرى، وتكرر هذا على مدى شهور، تمرض وتطيب، حتى تأزم أسامة وساءت أحواله، وبدا عصبيّ الطبع والمزاج كأنه فقد بصره للتو. يظل مستيقظاً حتى وقت متأخر من الليل، لا يتحدث إلا لطلب الحاجات، لا يخرج إلى مقهى أو زيارة الأصدقاء. يجلس في حوش البيت بمقربة من حوض النخلة، على أريكة خشبية مغطاة بديباج من السدو، يستلقي أحياناً ثم يعتدل ليسكب له بعض الشاي من إبريقه المعدني، يجرع ما بكأسه، فاتراً أو ساخناً، ثم يعود إلى قيلولته، وإن اشتعل قرص الشمس في وقت الظهيرة، لا يهتم، لا يستجيب إلى طلب أبنائه بالدخول إلى غرفته، لا يريد أن يستريح تحت طنين جهاز التكييف البارد. زوجته رغم حالتها الصحية البائسة، تحاول بإصرار القيام بواجباتها المنزلية، تغضب منها سميرة أحياناً، تنهاها عن بذل أي مجهود: "الدكتور أوصى وحذّر" تردّ أمها وهي تنحني إلى قِدرها الجاثي على موقد في الأرض: "لا تقلقي، يوماً ما سأموت وأتوقف".
غنيمة وضعت مولودها الأول.

ولداً أطلقت عليه اسم أسامة مثل جده، مكثت في بيت عائلتها أربعين يوماً، وعندما عادت إلى شقتها فَرِح إسماعيل الذي أصبح يافعاً وتغيّرت ملامحه مع أخته رقيّة بأخيهما الجديد، تأمل طرفة حال زوجته وهي تقول: "حرام، والدك يقاسي حاله، حفيد باسمه قد يخفف عنه" بعد فترة قصيرة، بدأ البهاق يملأ جلده، دون أن يشعر بذلك، فقط يحس ببعض التخشن في تغضنات ذراعه ورقبته، كذلك حكّة حول فمه. أسامة رجل صلب وصامد، وإذا ما انكفأ إلى نفسه يعترف بأخطائه، سرعان ما يتخلى عن عناده ويركن إلى عقله، أعطى طرفة مفتاح خزنة حديدية تبرك بالقرب من سريره، قال له: "ستجد في الرف السفلي، طقم ذهب، وظرفاً فيه مبلغ من المال، هاتهما" وعندما أحضرهما، أخذ يلمسهما، ثم قال: "هذه هدية غنيمة".

***

بعد عام، شعر فارع حسين أن طرفة قد صرف النظر عن روايته الموعودة، في حين ما زال الآخر يتابع كل ما يُكتب حول أعماله الأدبية، يرد على بعض المقالات المنشورة مع نفسه، في ورق الصحيفة، يكتب تعليقاته العارضة، أو يكتفي بوضع علامات الاستفهام والتعجب، وعلى نفس الوتيرة الزمنية، صدرت روايته الرابعة التي حسب قوله هي تتمة لما جاء قبلها من نقصان، وأنا لم أفهم مقصده هذا. لكنه يواصل بإصرار الكتابة دون أن يمنح نفسه إجازة. انتهى من تصحيحاته النهائية لروايته الرابعة، تحوّل مجدداً إلى رواية "الوضع العربي" التي بدأها في مصر، وراح يزحزحها كلما اعترضته فكرة جديدة، كانت غنيمة تساهم بإيجاب في منحه مساحة للتركيز على مشاريعه الأدبية، وفي أحد الأيام، جاء موعد زيارة والديها ظهراً على وجبة الغداء، دخلت على طرفة في غرفة النوم تحمل طفلها أسامة، قالت له: "أنا جاهزة" كان يضع أوراقه على السرير، يبحلق في سطر وبيده قلم رصاص، ودون أن ينظر نحوها: "فقط أحتاج خمس دقائق أحاول معالجة جملة" أغلقت غنيمة الباب بغية توفير الهدوء الذي يبتغيه، فيما اجترّت الكلمات بعضها، بعد قليل سمع طفله يبكي خارج الغرفة، وفي لحظة راح صوته يتخافت تدريجياً، صنع فرجة في الباب

أطلّ منها، وجد غنيمة قد وضعت الطفل على صدرها، اطمأن إلى توافر دقائق أخرى لمواصلة الكتابة، كل صفحة تسحب التي تليها، حتى أحس بعد وقت بأنّه يحتاج أن يدخن سيجارة، فتح النافذة كي يهوّي الغرفة، انتبه لحظتها فقط أن الوقت قد أصبح ليلاً.

***

في السنة عينها، قررت مصر وسوريا، أن تشنا هجوماً مزدوجاً على إسرائيل، استرداداً لما سقط في هزيمة عبد الناصر، وقد تأهب العرب جميعاً لهذا الحدث.

كلّ ما توارد إلى ذهن طرفة، ألا ننهزم مجدداً، رغم وجود سابقة جيّدة غيّبها الزمن، معركة الكرامة الأردنية ضمن حرب الاستنزاف التي لحقت النكسة، لكنها لم تكن الرد الطَموح بعد أسطورة تشي بأن العرب سيقذفون عدوهم في البحر. رغم كل التداعيات التي سبقت الهجمة، والأخبار التي لمّحت بقرب جولة طاحنة جديدة، فإن لحظة الهجوم كانت مفاجأة لم يتوقعها العدو، والتفّ الناس حول التلفاز والمذياع في المقاهي التي على غير عادتها، فتحت أبوابها وقت نهار رمضان فقط من أجل متابعة الأخبار والنقاش حول جهوزية الجيوش العربية، وإمكانية فعل ما عجزنا عنه قبل ست سنوات. استمرت الغارات المتبادلة بين الجبهتين، تقدم وتقهقر متناوب، أميركا شاركت بإمداد العدو بكل العتاد ودون توقف، الاتحاد السوفيتي ساند الجانب العربي. امتدت المعارك قرابة عشرين يوماً، كنّا يومياً نلتقي في مقهى شارع أحمد الجابر، مع مجموعة كبيرة فيها طرفة وفارع حسين، نمضي الليل كله حتى أذان الفجر، ينزوي الرسام بعض الوقت في طاولة بعيدة عنّا يجهّز لوحة الجريدة للعدد القادم، طرفة يذهب إلى عمله بعد أن ينام ساعتين فقط، يكملها بعد أن يعود فترة الظهر. شحبت ملامحه وتدلى جفناه مثل كل مرة تحتدم فيها الأحداث السياسية. توقفت الحرب بعد أن أصدر مجلس الأمن قراراً بوقف إطلاق النار، دخل حيّز التنفيذ بعد أربعة أيام تقريباً من قبول الطرفين به.

النتائج كانت إيجابية على الجانب المصري، استعادت أجزاء كبيرة من أراضيها التي سُلبت منها في الحرب الماضية، فيما ظلّت الجولان السورية تحت سيطرة العدو. ورغم ذلك احتفلنا بهذا الانتصار، واطمأن قلب طرفة، وبدا كأنه تَحرَرَ من أغلاله وانطلق يعيش حياته من جديد، حتى إنه في إجازة العيد أحضر لنا تذاكر مسرحية "شياطين ليلة الجمعة" احتفالاً بما آلت إليه الأوضاع عقب الفترة الماضية، وكذلك لأنه، كما قال موجهاً كلامه لكلينا، أنا وفارع: "لا أفوّت أي عمل يُخرجه صقر الرشود".

***

بعد أن بلغ الطفل أسامة عامه الثاني، حبلت غنيمة مجدداً.

امتزجت مشاعره قليلاً، في بيته ثلاثة أطفال، هناك رابع قادم بعد سبعة شهور تقريباً، هكذا قال لنفسه، واعترف لزوجته: "سواء رزقنا بفتاة أو ولد آخر، سيكون الأخير". في الحقيقة هذا أزعجها، لكنها لم تصرح بذلك، فقط اعترضت وفق طريقتها الخاصة: "هل قصّرت تجاه أي منهم، إسماعيل ورقيّة وأسامة، هل تُعرقلك مسؤولياتهم؟" قالتها بتودد ولهجة قلقة، بذكائها، لم يحسّ أنها ضجرة، على عكس ذلك شعر بأنه يحملها عبء مشاعره السئمة، لكن هذا لم يمنعه من اتخاذ قراره: "سأسافر إلى لبنان من أجل بناء مشروع رواية تم تأجيلها كثيراً إثر توالي مسؤوليات جارفة وطويلة".

صحيفة "السياسة" على مكتب عمل طرفة في قسم الأنشطة، فارع حسين رسم صباح اليوم سلكاً شائكاً تنبت منه سنبلة، يحاول الطفل حدجة برأسه الكبير أن يمد ذراعه ليلتقطها. نحن في نهاية شهر مارس. وزارة التربية لا تمنح موظفيها عطلة في مثل هذا الوقت، أخبره أحد الزملاء أن بمقدوره طلب إجازة غير مدفوعة الأجر، في اليوم التالي سعى للحصول عليها من خلال مسؤوله، تمت الموافقة بصفة عاجلة، لكن فارع قال له بانفعال بعد أن عرف الخبر: "أين أنت من سنتين؟! ما هذا التوقيت؟" لم يفهم طرفة مرمى صاحبه، أبدى استغرابه، تساءل عن سبب غضبه، وضح الآخر: "الأخبار الآتية من لبنان ليست جيّدة" شرد طرفة قليلاً، وضع سيجارته على المنفضة: "هي رحلة

قصيرة، لن تستغرق أكثر من أسبوعين“ وأخرج له الورقة التي تحوي الأسماء والأرقام، كان ما يزال يحتفظ بها: ”فقط تأكد من صحة المعلومات ووجود هؤلاء الأشخاص في مثل هذا الوقت“.

***

على عكس ما حدث في المرة الأولى، لم يدفعه فارع حسين للسفر، من جانب آخر كان طرفة يدحض أي مخاوف تعتري صاحبه.

طارت طائرته، وطارت به لبنان. هذه زيارته الثانية، أو الثالثة ربما، وكان أول ما يفعله في المرات الماضية، زيارة مكتبات شارع الحمرا، ومكتب الناشر الذي يصدّر رواياته، هذه المرة أخذ الهاتف بعد أن وضع أمتعته في الغرفة، وراح يتصل على كل الأرقام التي زوده بها الرسام.

لم يلاحظ أية اضطرابات في الشوارع، على عكس من ذلك كان هناك سواح خليجيون يتجولون بسياراتهم على كورنيش الروشة، ذهاباً وجيئة، بعضهم يشغل موسيقى صاخبة، دون مراعاة لأوضاع خاصة أو توترات أمنية. قضى طرفة مصلحته رفقة اثنين من أصدقاء فارع، زار مدناً جنوبية مجاورة لمناطق حدودية، بعضها وعرة يصعب التنقل فيها، جبلية غير آمنة، لم تكن هناك تضاريس مناسبة للتخييم أو البقاء ليلة واحدة على الأقل كما كان يخطط أن يفعل، لكنه أخذ يرتحل من مكان لآخر، عرْض الشريط الممتد والمطل على فلسطين، كانت الحالة الجغرافية متشابهة بإمكانه أن يستمد منها ما يعينه على التخيّل والبناء، يحمل معه دفتراً يسجل فيه كل ما يجول في ذهنه لحظة بلحظة، كل ما يحسه، يستنشقه، كل حجارة كادت أن تعرقله، وتُدحرجه على منحدر. كان مرافقوه يتبدلون بعض الأحيان، يغيب أحدهم لطارئ، ينضم إليهم آخر جديد يعرف مناطق وطرقاً وقرى، طرفة يتخفى إذا اضطر بغطاء صحافي كويتي مبعوث من أجل عمل تحقيق لمصلحة جريدة السياسة، حتى أتم خمسة أيام تقريباً ثم عاد إلى بيروت.

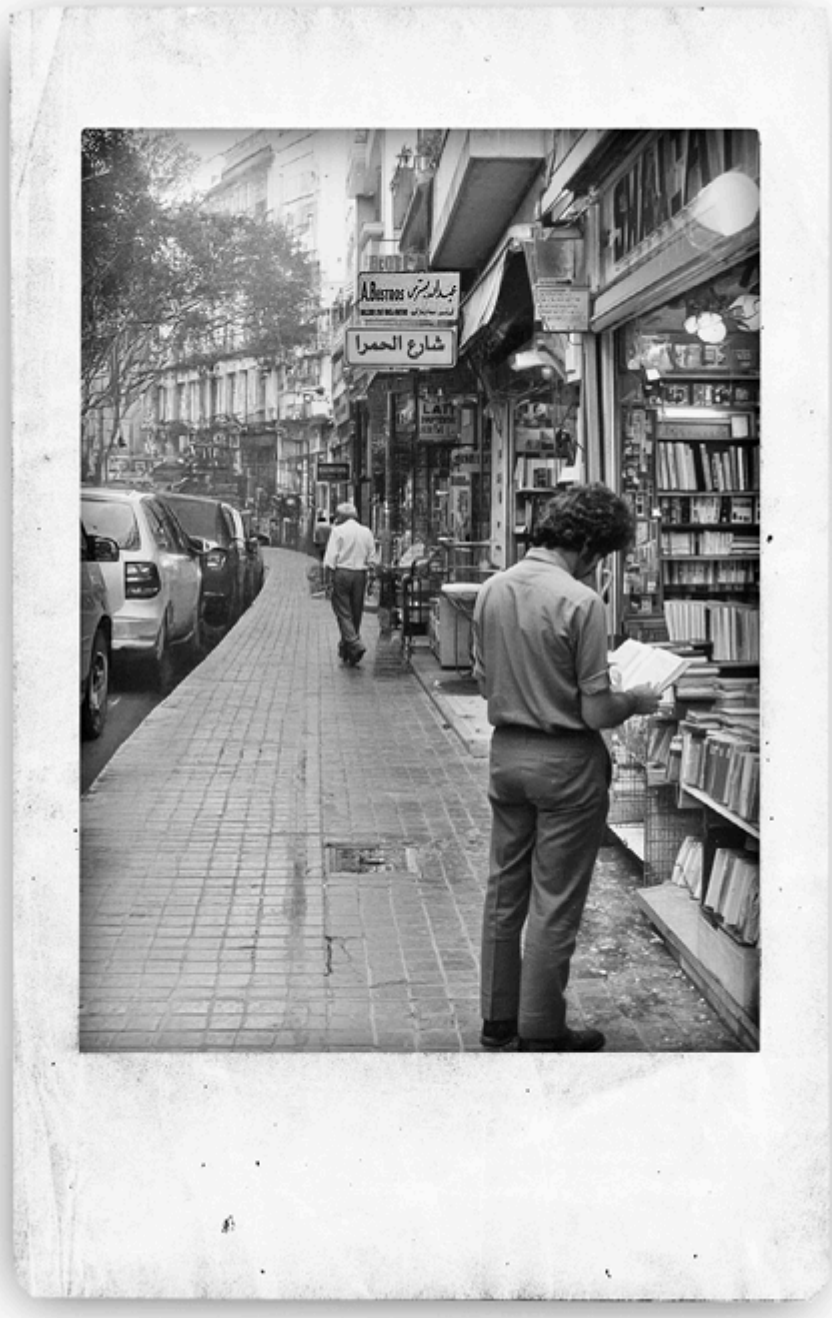

يقضي النهار بطوله يستطلع أحياء ومناطق العاصمة، يتجول بها سيراً على قدميه، صعوداً نزولاً حسب طبيعة شوارع بلاد الشام قاطبة، لبنان على وجه الخصوص كلما سلكت فيها زقاقاً أو ممراً تتكشف لك مناظر جديدة خلابة، تصنعها الطبيعة والأبنية المرصوفة من بحص جبليّ ساحر، يضيف صلابة وجمالاً إلى وجه المشهد، وعند كل درب متحدر يجد زرقة البحر تراقب الناس، تحتوي

المدينة، تضمها، تؤمنها، وعلى نحو آخر، كما يقول طرفة، ربما لا تبالي بما يحدث في الداخل. في المساء، تطيب له الكتابة، في أحد المقاهي القريبة من شاطئ الرملة البيضاء. وردت آنذاك أخبار تشي بمحاولة اغتيال أحد زعماء الأحزاب الكبيرة في لبنان، زعزعة الأوضاع لا تؤثر في طرفة، كان يستمتع بوقته، يفكر أنه إذا عاد إلى الكويت لن يسافر قبل وقت بعيد، حالة أبويه، وضع زوجته غنيمة، كان يطيل سهره، وإذا نام استيقظ بعد وقت لا يزيد على خمس ساعات.

ثم جرى.

ماذا جرى؟ كان يقطع منطقة الشياح، آتياً من المتحف الوطني، عائداً إلى البحر، تناهى إلى سمعه صوت انفجار من مكان قريب، أكد له ذلك صراخ الناس من حوله، جموع تفرّ تبتعد، تركض بفوضوية، بعض الوجوه هلعة كأنما رأت شيئاً أكثر من حادث عارض، تلا ذلك صوت إطلاق نار، تتابُع الأفعال ينم عن هجمة منظمة موجهة إلى أناس بعينهم، جرى طرفة إلى أيّ مكان آمن تأخذه إليه ساقاه، تصاعد الغبار، صوت انفجار آخر، تزاحم السيارات يُغلق منافذ العبور، بعض الناس تخلت عن مركباتها تركتها في منتصف الطريق، تدريجياً تكاثرت السيارات التي تعترض الشوارع دون وجود من يقودها. احتمى طرفة داخل باحة أحد المباني، بعد عشر دقائق تقريباً، بدا أن جماعة أخرى مضادة تأتي من الناحية المقابلة، ترد على الهجوم الأول، دويّ اشتباك ناريّ. أحدهم يطل من باب في أقصى البناية، راح ينادي طرفة: "أنت هناك... تعال" التفت إليه، كان شاباً قريباً من عمره، يلوح بيده، يطلب منه الانضمام إليه، يختبئ في مكانه، استجاب طرفة بحذر، أصوات تبادل إطلاق النار بدأت تقترب من موقعه، الشاب يعاجله يحثه أن يسرع، أن يركض.

***

كان الباب يخفي وراءه سلّماً يقود إلى سرداب، أوصدوه بالمفتاح، والترباس، والسلاسل، والدعامات.

هذا الشاب يسكن في المبنى نفسه، معه بعض العوائل التي أحضرت مؤونتها، ومذياعاً لمتابعة الأحداث.

كان من الواضح أنهم تأهبوا لحدث يبدو أنه كان متوقعاً، وجود طرفة في ساحة المبنى قد يلفت انتباه أحد الجبهتين، فيما لو اكتشف أمره. ماذا يجري أصلاً؟ تداعى إلى طرفة وجه فارع حسين، استياؤه من توقيت السفر إلى لبنان. زعيم الحزب الذي حاولوا اغتياله البارحة يتَّهم منظمة التحرير الفلسطينية، في اليوم والمكان نفسه، منطقة عين الرمانة، هوجمت حافلة متوجهة إلى مخيم تل الزعتر تحمل أفراداً فلسطينيين، موقع الحادثة ليس بعيداً عن الشياح، تتوالى المناوشات على نطاق أوسع.

"الأخ عراقي؟" سأله أحدهم. طبيعة لهجة طرفة التي يستمدها من مسقط رأسه، عنَّ له أن يقول: "كويتي من العراق" لكنه اكتفى بهزّ رأسه. صوت المذياع: "جميع المنافذ المؤدية إلى بيروت غير آمنة، وغير سالكة، القناصون ينتشرون فوق أسطح البنايات، وخلف النوافذ". صمْت الحضور، ظلمة السرداب، مناغاة رضيع تحاول أمه هدهدته وإسكاته، يواصل المذياع: "الاشتباكات تطال مناطق عين الرمانة، المسلخ، فرن الشباك، الشياح، سن الفيل، الطيونة، والقائمة آخذة بالاتساع، على المواطنين كافة ملازمة منازلهم وملاجئهم وعدم مغادرتها إطلاقاً حتى في الحالات الطارئة، إلى حين تهدأ الأوضاع ويتم إحكام الأمن في المنطقة".

مع مرور الوقت، التقط طرفة أسماء مجاوريه، بولص، زينب، أسعد، ميشيل، حسين، جوليا...

***

اليوم التالي. في النهار ظلمة، حزام ضوئي نحيل يجتاز فرجة نافذة صغيرة وضعوا على زجاجها لاصقاً على شكل الحرف إكس، كي تتماسك إثر جلجلة القصف العشوائي في الجوار. تساءلوا عن مدى استمرار حصار منطقتهم، وقلقوا من احتمالية نقص المواد الأساسية، الماء والرغيف والدواء. الهواء ثقيل، أحدهم أصيب بهيستيريا اختناق، المُرضعة تشتكي من عدم قدرتها على

إطعام طفلها، تحتاج إلى غذاء جيد ونوم كافٍ حتى يستجيب جسدها. أحدهم يقول: "حتماً لن يطول الأمر".

يوم آخر، يقال إن هدنة تشي بتوقف الهجمات في النهار، لكن إحساساً بعدم الأمان يعم المجموعة، اضطر أحدهم أن يخاطر بالخروج، يجمع ما تحتويه ثلاجات شققهم من مؤونة، يخرج بحذر من السرداب ويتوجه فوراً إلى الطوابق العليا من العمارة. نجح بفعلته، تكرر الأمر، اثنتان وثلاثة، لا خطورة ممكنة في المسافة التي يقطعها الفرد حتى يصل إلى السلالم التي تقوده إلى الأعلى، بعد غروب الشمس خرج شاب وعاد بعد دقيقتين مصاباً في كتفه، تلاحق الجميع، طرفة معهم يحاولون تضميد جرحه، ليس معهم شاش طبي، تطوع صديقه ومزق قميصه، لا يملكون شيئاً لتطهير إصابته سوى زجاجة خمر يحتفظ بها أحدهم، الأوضاع آخذة بالتعقيد، الأزمة ليست بسيطة كما ساد الظن في البدء.

خيّم شعور بالخوف من المخاطرة والخروج مجدداً، بعد يومين ما كانوا يملكون حيلة. ضرورة تطوع أحدهم، طرفة بكونه الغريب بينهم لم يكن يستطيع المساهمة في هذه المهمة، جهله بالمكان، إضافة إلى أنه غير مخوّل بدخول شقق لا يعرف أصحابها، لكنه تقدم وطلب المشاركة في الإسناد خلف أي متطوع، كانت فكرة جيّدة، لكن لسوء حظهم لم يعد هناك طعام متبقٍّ صالح للأكل، النهار هدنة، هذا المفترض، سأل طرفة زميله عن وجود سوبرماركت قريب، هزّ الآخر رأسه، مشيا بحذر يختبئان وراء السيارات والحواجز، كانت المدينة قد شُوّهت في غضون بضعة أيام، آثار القصف والرصاص، الحطام والرماد، شعرا باطمئنان عندما وجدا أناساً آخرين يسيرون مثلهما في الخارج. حين بلغا السوبرماركت كان الزبائن يلمون ما يقدرون من حاجيات، أسرع طرفة وزميله، أكثرا من المعلبات، قناني الماء وحليب الأطفال، سألا عن الرغيف، مد البائع كيساً واحداً لكل منهما، اعتذر لعدم استطاعته إعطاءهما أكثر، يشارف الخبز على النفاد وشركة التموين عاجزة عن الوصول إليهم منذ بدء الأحداث، اعترض طرفة: "لكننا أكثر من عشرة أشخاص في الملجأ بيننا مُرضعة" زفر البائع والتفت من حوله مرتين، ثم مرر

لهما أربعة أكياس إضافية. في طريق عودتهما، سمعا طلقاً نارياً من مكان بعيد أشبه بسلاح قناصة، بدا أن الهدنة قابلة للكسر ربما في حالات معينة، أعادوا الأمر بعد يومين، تطوّع شخصان مختلفان، الأيام تسير بوتيرة بطيئة، لقد مرّ أكثر من أسبوع منذ بدء الأزمة، نشرات الأخبار تكرر مضمونها، لا شيء ينم عن انفراجة قريبة. في الليل يدركون أزيز سقوط الصواريخ، يترقبون دويّ الانفجار فيغلقون آذانهم، يتناهى إليهم صراخ مجند مصاب، ركض مجموعة في مكان ما، الأعيرة النارية بلا توقف، ذات مرة بدا القصف قريباً جداً، عندما تشتد حدة الصوت، هذا مؤشر على اقتراب القذيفة، الجميع يصلي وفق عقيدته، الجميع يغمض عينيه ويغلق أذنيه، الجميع يبتلع شهقته الأخيرة. انفجار هائل، زلزال، أخذت الأرض تطاوحهم يمنة ويسرة، أجسادهم ترجرجت دون توقف، بنايتهم تعرضت للقصف، غبار كثيف، تهدج السقف، تهدَّم السرداب فوق رؤوسهم.

***

شعر طرفة بجسم خرسانيّ قرب كتفه. حرّك لسانه، ابتلع ريقه، أحس بطعم دماء مخلوط بالتراب.

أنفاسه بدت ثقيلة، جسده منهك مثل شخص تعرّض للتعذيب. تذكر حلم المرايات، وجهاز التنفس الذي يغطي أنفه وفمه، جاءته خاطرة، قال لنفسه: "حرب ليس لي ناقة فيها..." تزحزح قليلاً، حصيات صغيرة بعضها حاد من جرّاء نثار حطام الحجارة والأسمنت، تَخِزه كلّما تحرّك، وبعضها تركت سحجات على ذراعه وظهره. بنايتهم قُصفت كأي مبنى آخر، ليست حالة طارئة، لن تأتي إسعافات تنتشلهم من تحت الأنقاض. صوت أنين من مكان ما، منذ استيقظ كان يسمع صوتاً آخر يزنّ في أذنه، استوعب بعدئذ أنه صياح الطفل، واتاه اطمئنان إثر ذلك. بعد وقت، ربما غفا مرة أخرى، واستيقظ مجدداً، فتح عينيه جيداً هذه المرة، لقد دخل النهار، لم يخرّ السرداب بعد، عمودان فقدا ثلثي متانتهما، ما زالا قادرين على الثبات رغم هبوط جزء من السقف، يتدلى جسر خرسانيّ من جهة أخرى. لن يصمد طويلاً، ربما لو بقوا ساعات إضافية

ستهرسهم الطوابق العليا. كأنما أتته صحوة مفاجئة، نهض متثاقلاً. رأى أحد الشبان يهز مجاوريه، آخر كذلك يحاول حمل رجل كبير بالسن، ذهب طرفة من فوره إلى باب الخروج، تأكد أنه بالإمكان فتحه، ثم هرع يحمل المُسن مع الشاب.

وضعوا الجميع في باحة العمارة، كلهم تعرضوا لإصابات متفاوتة الخطورة، لم يسلم أيٌّ منهم، بعضهم كان بمقدوره الحركة، صاحوا طلباً للنجدة، كانت سيارات الإسعاف تواجه صعوبة في الوصول إلى مواقع الاشتباكات، تساهم إحدى الجبهتين أحياناً، بواسطة رجالها المناوبين نهاراً، في إخراج المدنيين المصابين إلى المناطق الخضراء، حسب ما سمعه طرفة من وصف أحدهم. مضت عشرة أيام تقريباً على الأحداث، اختبائهم في الملجأ، تجنُّب الموت في حرب غير مفهومة القواعد والأسباب، طرفة الذي يُعد نفسه مطلعاً على السياسة العربية، لم يفهم هذا النزاع الغريب، وأسباب اصطفاف هذا مع ذاك، وهجوم أولئك على هؤلاء. كان طرفة يرى على مبعدة منه رجلاً مسلّحاً يصف لسائق باص صغير الطريق الذي يقود إلى خارج بيروت دون أن يعترضه عائق. كل ما يفكر فيه طرفة آنذاك، أوراقه التي أعدها لكتابة الرواية، كلها في الفندق، كل الملاحظات واللقاءات والمعلومات التي جمعها. بعد ساعة تقريباً، وصلوا إلى نقطة أمنية، نزلوا جميعاً، وأخذ أحدهم يجمع بيانات الركاب، تفرّق الجمع، بعد أن تلقوا الإسعافات اللازمة. قال أحد الضباط: "الكويتي يُرسل إلى حدود سوريا".

***

من مطار دمشق الدولي، سافر طرفة إلى الكويت بعد ثلاثة أيام من بلوغه سوريا.

قال: "كنت ذاهباً بمشروع رواية، أصبحتا اثنتين".

اتصل الشاعر الهلالي عدّة مرات يطمئن على أخبار طرفة، لا نعرف كيف عَلم بوجوده في بيروت لحظة اندلاع الأحداث، أظنه وصاحبه لم يتوقفا عن التراسل والاتصال، ربما عرف الخال عن خططه ومشاريعه. في كلّ مرة

كانت تجيب غنيمة على الهاتف، وتشتكي من تهوّر زوجها وعدم إدراكه لمسؤولياته بعد أن أصبح لديه ثلاثة أطفال والرابع في طريقه إلى الحياة، كانت مستاءة جداً حتى قبل أن يعود إلى الكويت، وكلَّما حار الهلالي في تهدئتها يناول سماعة الهاتف إلى زوجته كي تتولى أمرها.

ما زال طرفة يعالج إصابة في ظهره لم يشعر بها وقتذاك، كان جرحاً غائراً مثل شظية استقرت في الجزء العلوي قرب كتفه، يراجع المستشفى الأميري كل يومين تقريباً، ينظفون الجرح ويعقمونه ويحوطونه ببعض الدهانات، ثم يبدلون الضمادات. في جريدة "السياسة"، أجري حوار صحافي خاص مع طرفة حول تجربته ومشاهداته في الحصار، كان يقوم بذلك – على غير العادة – الفنان فارع حسين، في مكتبه الذي يعج بالرسومات، وأقلام رصاص فائضة عن الحاجة. بدت روحه مرحة وهو يسجل إجابات طرفة، هذا الجانب منه لا يَظهر إلا نادراً، وبعكس الأيام الماضية، حين كان يترقب أخبار عودته بقلق وتوتر غير مسبوق، ربما كان يحمّل نفسه ذنب ما قد يتعرّض له طرفه، بدا هذا واضحاً من اهتمامه البالغ بإصابته، يأخذه بنفسه كل مرة إلى المستشفى، ويذكره بمواعيد الأدوية والمسكنات. عندما نُشر الحوار، تضمن على جانب منه رسمة فارع التي احتوت جداراً محطماً على شكل قلب حب، تطلُّ منه امرأة حسناء حزينة، بينما يقف حدجة على قذيفة ويناولها وردة، وعلى جانب الجدار كُتب: "صباح الخير يا بيروت".

***

"بالله عليك يا طرفة ما هذا؟!".

كنت أقرأ لقاء آخر نُشر له في جريدة لبنانية، جزء منه يتعلق بأحداث بيروت، وآخر حول تجربته الأدبية، كان العنوان في صدر الصفحة على لسان طرفة: "لقد عجزنا عن كتابة الحرب والسلام".

يقول المحرر في حيثيات الحوار إن الكاتب الكويتي لا يدخن، ويشرب الحليب بدل القهوة بسبب قرحة المعدة التي أصابته في الأسابيع الأخيرة، ولكن الصحيفة نَشَرَت له صورة كبيرة ينظر فيها إلى الكاميرا بعينين ناعستين

وسيجارة مشتعلة بين إصبعيه. ضحك طرفة بصوت عالٍ ومتواصل: ”قلت ذلك على سبيل المزاح، انتهزت فرصة مغادرة الصحافي بعد مجيء المصور، أصررت أن يأخذ لقطاته مع السيجارة“ ثم عاد ليضحك بجنون.

بدأت علاقات طرفة العربية تتسع أكثر، العراقية الكويتية المصرية، والفلسطينية مؤخراً بعدما رأت جموع المثقفين المقيمين في الكويت بالذات مدى ارتباط فارع حسين به. إضافة إلى ذلك، فقد توالت المقالات في الأيام الأخيرة حول تجربته الأدبية التي قوامها حتى اللحظة أربع روايات ومجموعة قصصية وحيدة. لقد تخلى عن كتابة القصة والشعر، عامداً أم منجرفاً وراء الروايات لا أعرف، حتى عندما انتقدته على ذلك قال: ”نحن نعيش عصر الرواية“ ولست متأكداً إن كان يعني ذلك أم يناكف في رده فقط. وكأن النقّاد التفتوا إليه فجأة ومجدداً بعدما غيّبوه مدة ثلاث سنوات، كل شهر تقريباً تصله أخبار قراءة أو تحقيق أو تناول عام لشخصه، ومن العجيب أن إحداها كانت باللغة الإنجليزية لصحيفة تصدر في بغداد. لكن بعض العبارات التي كُتبت عنه كانت مبالغة كبيرة (طرفة أسامة يزعزع جداراً ضخماً اسمه الرواية العربية) شخصياً أكره الإفراط في المديح، وأخشى عليه أن يصاب بالغرور، أو يُضعف حماسته وتحديه لذاته. بدا مشتتاً تلك الأيام. الشروع بكتابة ثلاثة أعمال دون التركيز على واحد وإتمامه، حياته بدت فوضوية أكثر من المعتاد. في إحدى المرّات أجرى حواراً رباعياً بحضور مثقفين آخرين في جريدة ”القبس“، حول تبعات الهجمة العربية ضد الكيان المحتل عام ٧٣ وتأثيرها على الواقع المعاصر، لم يتحدثوا في ذلك اللقاء ولو بكلمة واحدة عن الأدب. استفزني هذا الأمر، وصارحته بذلك: ”يجب ألا تنسى نفسك، أنت كاتب، أديب وروائي“ وبدا أنه تقبل استيائي، وكان يرد عليّ دون أن ينظر في عينيّ، وبما ليس له رابط مباشر بحديثنا: ”الأدب ليس انعكاساً فورياً للحدث“.

***

ما زال يمارس هوايته، يسير على طول شارع الخليج حتى يصل إلى نخلته التي تربض في ناصية الشارع القريب من فندق الشيراتون. يشاطرنا الآن

فارع حسين، كان أطولنا وأسرعنا في قطف الرطب. ”ظلال هذه النخلة تذكرني بظلّ سور بيتنا عندما كنت أجلس بالقرب من والدي أقرأ له بعض الكتب“. كان بادياً على وجه طرفة الحزن، والألم، لقد شعر أنه كبر فجأة، وبنفس الوقت ما زالت بداخله روح المغامرة والعنفوان، كانت فترة مضطربة من حياته، وربما كان يشعر بأن الأمور لا تسير كما يحب، رغم الأضواء التي أصبحت تحيط به من جديد.

أصبح يزور بيت العائلة في منطقة الروضة كل يوم تقريباً، يأخذ معه كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، يلقي التحية ويُقبّل رأس والده أسامة الذي لا يبرح كرسيه في حوش البيت، وحوض النخلة التي تتوسط المكان، ثم يبدأ بقراءة بعض الصفحات دون أن يخبره بنيّته في فعل ذلك. صفاء صوت طرفة في هدوء العصر، والإحساس بحركة بضع عصافير الزرزور التي تحط على أرضية الحوش، تلتقط فتات الخبز الذي ينثره أسامة بالقرب منه، يُشعره ببعض الدفء الداخليّ الذي يدركه طرفة، رغم ملامح والده الصماء، التي لا تنقل للآخر أي انطباع، لكن جسده يستجيب ويسترخي. مخارج الحروف عند طرفة واضحة، يستمتع بها أيّما استمتاع، يود ألا يتوقف أبداً، يستعيد قوته من هكذا حال، ينقصه فقط صوت قعقعة الأواني في المطبخ، ونداء صابرين لسميرة، أو ابنتها الصغيرة ريم، أو حتى طليبة التي رحلت دون أن توافيهم بأخبارها، صابرين التي أصبحت زائرة مستمرة للأطباء والمستشفيات، صابرين التي توعدها الموت أكثر من مرة، دون أن تعبأ أو تهتم، وأصرّت أن تواصل الحياة بكل ما فيها من مشقة وهموم تمنحها الوجود، الموت القميء الذي يواظب في أداء عمله، وما ينفك عن الوفاء بوعوده. الموت وصوت صابرين في بيت أسامة.

١٩

نوفمبر، عام ٢٠١٥

من المحتمل أن يموت أحدهم، دون أن تُزهق روحه.

في واحدة من أيام السبت، أخرج طرفة من دُرج مكتبه جهاز آيباد، ارتدى نظارته وراح يضغط على الشاشة، ثم أخذ يُطلعني على صور لمبنى قيد الإنشاء، قلتُ: "هذا سكن الطالبات؟" هزّ رأسه ثم أشار بقلم رصاص إلى أرض فضاء، ورَسَم حولها دائرة: "هنا سأبني بيتي". أخبرني منذ مدة أنه يخطط إذا وصل عمر الثمانين، سيشد رحاله إلى إندونيسيا، ويعيش بقيّة حياته في بيت سيبنيه ضمن مساحة أرض أشتراها منذ فترة وتبرع بها لبناء سكن مجاور لإحدى الجامعات؛ بغرض إيواء الطالبات غير المقتدرات على دفع تكاليف الإقامة، وتُساعده في تنفيذ خطته فتاة عملت خادمة في منزله منذ زمن مضى، تُشْرف على متابعة العمل وتنفيذه، واختارت مكان المُعتزَل الذي سيبعده عن كل العالم الذي عرفه طوال حياته.

عنَّ لي الاعتراض حيال قراره ذاك، لكنني آثرت الاحتفاظ بكل ما توارد لخاطري إلى حين آخر. كان ما يزال هناك أربع أو خمس سنوات حتى يبلغ العمر الذي يستهدفه: "أواجه مصاعب مادية هذه الأيام تُعرقل تمويل المشروع" وددتُ لحظتها أن أبوح له برجائي الخالص أن تعطله العقبات عن فكرة الرحيل: "كم يُكلفك هذا المشروع؟" انتبهتُ إلى نفسي، طرْح سؤال كهذا قد يحرجه أو ينتهك خصوصيته. طرفة يمنح الآخرين حق الدخول في أدق تفاصيل حياته، لكنه في بعض الأحيان يأخذ خطوة إلى الخلف، يجيب بما لا يسمح للآخر المضي في توغله: "ليس كثيراً" جواب مقتضب يخلو من أية معلومات، لكن إيماءاته تنم عن رغبته في تغيير شكل الحوار، أُحاول من جهتي، درءاً لأي إحراج: "أراك قد استبدلت قلم الرصاص بالآيباد". يبتسم من جهته يقول بما معناه، في لحظة شعر بأنّه متخلف عن ركب التطور

والتكنولوجيا، رغم أنه لم يُدخل على حياته أي جهاز كمبيوتر من قبل، ولم يستبدل القلم والورق بالكتابة على لوحة مفاتيح تقليدية: "سأطلعك على شيء" ثم أدار الآيباد نحوي، وجدته قد دوَّن في برنامج الملاحظات سرْداً مسهباً متواصلاً، يحرك الشاشة للأسفل بلا توقف، الفقرات متصلة ومستمرة، فُصول مرصوفة بإحكام، قلت باندهاش: "ما هذا؟!" توقف، ثم أطفأ الجهاز: "منذ أتقنت استخدامه، على الفور بدأت بكتابة رواية جديدة، لكنني توقفت في لحظة وتساءلت عن الطريقة التي سأنقل فيها النص بأكمله إلى اللابتوب".

***

منذ البداية، طرفة لا يستخدم غير قلم الرصاص وأوراق الفولسكاب المسطّرة، ثم تحوّل للكتابة على أوراق الطابعات حجم "أي ٤" يسرد فقراته دون أن تميل كلمة عن حدود الخط الوهمي. دائماً، على طاولته ممحاة تتصاغر يومياً حتى تختفي في غضون شهرين، لتدخل ممحاة جديدة في الخدمة. تقريباً أكثر من خمسين عاماً يمارس الكتابة على هذا النحو المتواصل، الآن يتخلى عن كل هذا، ويبدأ الكتابة باستخدام جهاز لوحي لا أستطيع شخصياً، أنا الذي أظنني أجيد استخدام الأجهزة الإلكترونية، أن أعتمد عليه في كتابة رواية كاملة.

انتهى كلٌّ منا، أنا وطرفة، من إتمام روايته الجديدة، بالتزامن مع إيصال التيار الكهربائي إلى البيت، وبدء العد التنازلي للتخلي عن شقة منطقة الشهداء التي شهدت ولادة طفلي الثاني الذي سمّيتُه خالد. كان روتيناً متواتراً مستمراً ما بين الكتابة الليلية والسعي الذي لا يتوقف طوال النهار مهما كانت الظروف، وكيفما تغيّر المناخ، من صقيع إلى لهيب أو غبار وسيول، بكل الأحوال كنتُ عازماً على إتمام المهمة في أسرع وقت ممكن، وربما بسبب ذلك اللهاث المتلاحق، وصلت إلى خط النهاية في مدة قياسية نوعاً ما. الروايتان صدرتا عن دار "فيستا للنشر والتوزيع" بعدما أصبح طرفة يمنح الناشرين الناشئين نصوصه القديمة، فقد حلّفته أن أنشر له نتاجاته الجديدة، في الوقت الذي راح يكتب بسرعة وانضباط أكبر من أي وقت سابق. أتذكر

ذات مرة، حين كنّا نبحث في رفوف مكتبته عن إحدى نسخ رواياته الضالة، المختفية بين الكتب الكبيرة والمجلدات والسلاسل، رواية صغيرة الحجم من الطبعات القديمة، والتي ربما لا تسع مساحة الكعب لكتابة اسمه أو العنوان بشكل واضح، قال: "في السابق كنتُ أتهم بأن كل رواياتي صغيرة" مثل حجة من لا حجة له، أولئك الذين يرغبون في تصغيره وتحجيمه، يقول: "الكلمة محسوبة، لكن وزنها يخف إذا كثرت وتسلسلت بتوافق وميزان تتساوى فيه كفة المعنى والإحساس".

رواية "طائر السجون" كانت من القطع السردي الكبير والمغلق الذي لا ينكسر بالمشاهِد والحوارات، طريقة مغايرة لكل ما كتبه من قبل، ربما تهزّ القارئ أو تتحداه بالتقنيات المتعددة والمتداخلة التي استخدمها في هذا النص بالذات. لقد استلهمت من مزاج طرفة هذا، أسلوب رواية الحجل التي قيل عنها مملة وغير مفهومة. لكن طرفة في ذلك الوقت كان يحظى باهتمام جماهيري ممتاز، خصوصاً بعدما تكاثر الناشرون وعلى نحو غير مفهوم، وتوافق هذا التوالد وانسحب على نمو الكتّاب وأندية القراءة والمكتبات. كان طرفة رمزاً للشباب الذين يسيرون خلفه في معارض الكتب يبتغون سماع نصيحة أو رأي أو إمضاء على نسخة من كتبه. أصبحت نصوصه نموذجاً للكمال الفني، ومباركته لموهبة ما، صكّاً يخوله بأن يحظى بالمقروئية اللازمة، وهذا سهّل من قبول الشباب ورغبتهم في اقتناء أعماله الجديدة. إضافة إلى ذلك كانت آراء طرفة تشكل صدمة عند البعض، أو الأغلبية، وسط سخط النقاد والصحافيين مما يُنشر من غث كان يرى عكس ذلك، فهو يشجع كل كتابة، أيّاً كان شكلها ونوعها وموضوعها.

***

فبراير، عام ٢٠١٦

"أشعر بأنك تخصني بالنقد القاسي".

لم أتفوه بهذا الكلام علناً، وربما لم أقله قطّ. اخترتُ عنوان "ثلاث درجات في السماء" ولم أكن مقتنعاً تمام الاقتناع به، ربما لو تحليت ببعض الصبر سأخلص إلى آخر أجمل. كان موضوعها الموت، وما يحيط به أو يترتب عليه، وتوقعت لها أن تتعرض للمنع بسبب خوضها، ربما، في بعض المسائل العقائدية، ولم يحصل أيٌّ من هذا.

مجدداً، قال طرفة بعد أن نُشرت الرواية، إنه كان عليّ أن أفعل كذا وكذا. لم أبدِ أية ردة فعل، كذلك، لم يكن السكوت خياراً مناسباً في موقف كهذا، سواء كان قصده إيجابياً أم سلبياً. في وقت مضى، تقدمت للمشاركة في مجموعة المنبر القصصية لإحدى الجوائز المحلية، وكان هو من دفعني للقيام بهذه الخطوة. وفي أحد الأيام، اتصل بي صديقه جواد: "نود لو تأتي إلى المكتب، تلفزيون الكويت يجري تقريراً وثائقياً حول طرفة وأنت أحد الأشخاص المقربين..". وجدت يومها عبد العزيز سالم ومجموعة أخرى كانت بينهم مسؤولة الجائزة. تحيّن طرفة الفرصة وقال لها على مسمع مني: "أنصحكِ أن تمنحي الجائزة لمجموعة إسماعيل القصصية". شعرت بالإحراج، ولو قيلت على لسانه من قبيل مزاح مبيّت الغاية، لأن الأخرى بدت أنها لا تؤيّد رأيه.

***

ثم تقدمنا للمشاركة بجائزة عربية، أنا عن فئة مختلفة عنه بسبب فارق العمر، وأفصحت له عن رغبتي في المشاركة بالمسابقة المحلية الكبرى، وهو أبدى كذلك: "سأفعل أنا أيضاً، لعلّي أفك العائق المادي الذي يعطل بناء سكن الطالبات". شعرتُ أن فرصتي في الفوز غدت مستحيلة: "إذن سأؤجلها للعام المقبل". وما إن سمع جوابي، حتى بدت عليه الدهشة: "لماذا!؟" بادلته العجب: "أمن المعقول أن يفوّزني محكم في جائزة أنت تشارك بها! مستحيل" لم يكن مقتنعاً بحجتي، هزّ رأسه، وبدت على شفته ابتسامة مفتعلة، ربما محاولة منه كي يردّ عني الفكرة، ثم ضرب بكفه طاولة المكتب: "اسمع، إذا فزتُ سأتقاسم معك مبلغ الجائزة، أما إذا فعلتها أنت فلك كل شيء" لم

تنجح محاولته، قلت: "ليس الفوز بمعناه المادي..." ثم أحسست أنني خلقت ورطة، حاولت تدارك الأمر: "وإن فزت أنا، سنتقاسم المبلغ" سعل مرتين، بطريقته المعتادة، وقبل أن يجيب سبقته، تراجعتُ عن فكرتي: "تعرف، دعنا ندخل هذه المنافسة" قلتُ عن غير اقتناع، ربما لامسه هذا: "لا، لن أفعل، لكنني قبلتُ باقتراحك الأخير".

ما جرى بعدئذ، خسرتُ المسابقة المحلية الكبرى، أو بالأحرى خسرنا. ابتسم بطريقة مؤازرة: "من يدري، ربما كنّا نتقاسم مبلغ الجائزة الآن لو شاركنا نحن الاثنَين".

***

كنتُ في العمل صباحاً وسط جلبة الأشغال حين اتصل أحد الكتّاب الأصدقاء، مهنئاً: "مبروك" لم أفهم، أجبت مباركته، وقلت: "لكن بأي شأن؟" أدرك الآخر أنني لست على دراية بالأمر: "لقد تأهلتْ روايتك، ثلاث درجات في السماء، إلى المرحلة الثانية في الجائزة العربية..." كانت مفاجأة مبهجة سارّة، تأملتُها بعد أن أغلقت المكالمة وتفقدتُ الخبر في وسائل التواصل الاجتماعي، بلغني إحساس جديد، وتساءلت إذا ما كانت هذه مرحلة جديدة من سيرة منتظرة موعودة، تذكرت طرفة مباشرة حين قال لي عند أول لقاء في مكتبه: "إذا ثابرت سيكون بمقدورك أن تصبح كاتباً كبيراً" اتصلتُ به مباشرة كي أطلعه على الخبر، وجدته يبارك فور إجابته الاتصال، قررتُ زيارته عصر اليوم نفسه والاحتفاء سوية. كان أول ما قاله: "هل صدَّقت الآن؟" كان يشير إلى الشكوك الكثيرة التي كانت وما زالت تؤرق ثقتي، وإجابة عن سؤال أبدي مفاده: "هل أكتب بشكل جيّد؟".

٢٠

من الممكن أن نموت أكثر من ميتة في حياة واحدة، إلّا صابرين، موتة واحدة وأكثر من حياة.

مالت نخلة الحوش بعد وقت من غيابها، وجفّت مياه فروع النهر في السيبة، وأقاموا العزاء لامرأة القرية الخضراء. كان طرفة شديد الحرص والحذر في التعامل مع والده آنذاك، الذي بدأت أيام حزنه منذ تأزم صحة زوجته، وكأنه استعد لحالة الفقد والفراغ الشاسع، لكنه قال لابنه بعد صمت تام طال عشرة أيام : "لا تقلق عليّ، لطالما كان بمقدوري التقلّب بين التربة الرطبة والناعمة، أما أمك فقد قطعنا جذورها بعد قرابة خمسين عاماً، لم تبرح أرضها ولم تتوقف عن خدمة بيتها والآخرين، لقد رحلت لأنها أضاعت دورها في الحياة". وفور انتهاء أيام العزاء في الكويت، ذهب إلى العراق لأيام أخرى في غمرة ذكرياتها وعبق أراضيها.

***

"القارئ العربي يبحث عن الرموز...".

كانت أياماً ثقيلة رتيبة وخالية من الأحداث، وربما مناسبة لحال طرفة الذي احتاجها وسط كومة المشاريع الروائية المعطلة، لكنه عوضاً عن استكمالها، راح يكتب مقالات متنوعة، عن استغلال واستنقاص المرأة في المجتمعات العربية، من وحي مشاهدته مؤخراً لمسرحية (حفلة على الخازوق) ومواضيع اجتماعية أخرى. نشط لفترة مؤقتة في هذا المجال.

العبث يناسب رجلاً تملأ قلبه مشاعر مغايرة من الحزن تحتاج إلى صنف مواساة لا يشبهها أو يسعى في محاولات من الإلهاء والتشتيت. أخذ ينقل دون دراية تامة أو وعي ما يختلجه من ألم في كتابة قصة المؤذن الفلسطيني الذي تعرّض للقهر والظلم، وضع نفسه والآخر تحت مظلّة متشابهة من التخلي، تذكّر حالته بعد حادثة ٦٧ العربية، ومزجها بحال المؤذن وكأنهما ملف واحد.

كان يتردد كثيراً على أصدقائه في البصرة، أحياناً يرافقه فارع ونادراً ما تفعل غنيمة التي وضعت مولودها الجديد، فتاة أسمتها لولوة. طرفة الذي كان يشعر بأن الوقت سريع قصير، أصبحت أيامه طويلة وخالية من أية أفعال ذات أهمية أو جدوى، يكتب ببطء، ويهمل عناية أسرته والقيام بواجباته تجاه أبنائه الأربعة الذين ضاقت شقته بهم، ولم تعد هناك صابرين تجمعهم وتحفّهم برعايتها، حتى غنيمة بدأت تشعر أن إرسال الأولاد إلى بيت العائلة قد يثقل على جدهم أساه وآلامه، رغم إلحاح سميرة التي تؤكد عكس ذلك.

***

تتوالى السنوات على نحو مستقر، وكأنها حياة لا يعيشها طرفة.

ترقبه لأحداث سياسية كويتية، شؤون محلية نشطة متعلقة بالبرلمان، يتزامن ونتاجاته التي تتعاقب من عام لآخر، عناوينه بدت أكثر مباشرة من كتاباته السابقة (القضية رقم ٤٨) ورواية (الرملة البيضاء). مواصلته الكتابة في مشروعه الكبير الذي أطلق عليه مبدئياً اسم (الوضع العربي) تعقبه للخط الزمني الذي قاد الأمة إلى الحال الراهن. كان يفعل ما يفعله بجلافة وسكون، ينعكس ذلك على كتاباته التي ربما كانت مواضيعها تحتاج إلى هذا السلوك، رغم ظهور أخبار تشي بنيّة أحد المنتجين تحويل روايتيه (ضياء الوحل، والقضية رقم ٤٨) إلى أفلام من بطولة نجوم لامعين في السينما المصرية، فإنه لا يحتفي بهذا الانتقال الجديد، كذلك رواية (الرملة البيضاء) أراد أحدهم أن يخلق منها لوحات مسرحية، نمط الكتابة لدى طرفة يؤهله إلى ذلك، لكنه لا يؤكد الأخبار ولا ينفيها.

لم أعد أشاهده في المقاهي أو على السيف مقابل المستشفى الأمريكاني، وفي مرّاته القليلة تلك قال: "تعرف يا إسماعيل، سأقدم استقالتي من الوظيفة، أنا رجل لا تناسبه الإملاءات" وكان هذا محط خلاف كبير بينه وغنيمة، التي شعرت أن قراره ذلك ليس إلا استهتاراً بمصير عائلته وأمانهم المادي: "أنت تتلقى إملاءاتك من الكتابة، لا يجوز التخلي عن الحياة من أجل الروايات"

يقول لي: ”لا جدوى، مهما شرحت لها أسبابي لن تصدق، لن أبذل جهداً آخر، كل ما أفعله أن أهزّ رأسي، ثم أفعل ما بداخله“.

***

ها نحن على مشارف انتهاء عقد السبعينيات.

وما زالت رواية (قبل اغتراب السماء) تحظى بالاهتمام لدى القرّاء والنقاد على حد سواء، حتى بعد مرور كل هذه السنوات وتعاقب الكتب: ”صيت هذه الرواية كاد أن يقضي عليّ“ هكذا قال لي طرفة حين سألته عن تفاعل الناس مع إنتاجاته الأخيرة: ”لطالما كابدتُ الانجراف وراء مشاعر الشهرة والأضواء، لكن لا جدوى“ يقول كمن يتحدث إلى نفسه.

”لهاث الحياة ومسؤولياتها خلقت مني شخصاً آخر، أشعر بأني مخنوق“.

على حد وصفه، كان منزله في البصرة محط زيارة الأصدقاء ومكان ضيافة مفتوحاً طوال الأسبوع، الآن صار يستقبل الكوابيس في مضجعه كل ليلة، بدأ يشعر بالملل، يود أن يعيد زمن عشريناته، ما زال هناك متسع: ”أليس كذلك يا إسماعيل؟“ يسألني كل مرة وكأنه يبحث عن تأكيدات على أنه ما زال بإمكانه العودة لممارسة كل ما اختاره لنفسه لا ما أجبرته عليه الحياة: ”أليس كذلك يا إسماعيل؟“ وبعد وقت جاء ليخبرني أنه قدّم استقالته بالفعل، كان بين كل جملة وأخرى يزفر بقوة وكأن ثقلاً جسيماً قد برح عن صدره: ”غنيمة لا تعرف بعد، سأجد طريقة لأخبرها بالأمر“. قرر تأسيس شركة عائلية بعد مشاورة إخوته على أن يترأس إدارتها تُعنى بالتجارة العامة والمقاولات، بعد أن وطّد علاقته مع مقاول الوزارة الذي شارفت خدمته على الانتهاء. عيّنه مديراً ميدانياً على المشاريع في الشركة، وهكذا سيجد طرفة وقتاً أكبر للكتابة والقراءة، وربما ينغمس أكثر في العمل الحزبي السياسي الذي لطالما تخيّل أنه سيجد لنفسه موضعاً في هذه الأجواء، أو هكذا ظنَّ ما سيكون نتيجة قراره هذا.

”الكويتيون يميلون إلى الانتماء القومي، وأغلبهم من الطبقة البرجوازية...“.

طرفة يقدم نفسه باعتباره شيوعياً مناصراً للفئة العمالية الكادحة، قلت له: ”ألا ترى أن تأسيس شركة مقاولات تعتمد أساساً على شدة الفرد وجلده

يناقض المفهوم؟“ يعترض: ”هناك التباس في إدراك الحقوق والعمل، مناصرة العامل لا تعني إلغاء وظيفته“. تزامنت تلك الأيام مع ورود أخبار وفاة المخرج المسرحي صقر الرشود في دولة الإمارات إثر حادث مروري، لم أكن أتوقع مدى تأثير ذلك على طرفة، لم تكن تجمعه والآخر علاقة شخصية أبداً، لكنه، ربما، كان يرى أنهما متشابهان إلى حد ما، مثل فارع حسين والخال الهلالي.

لم تكن غنيمة قادرة على وضع المزيد من الأعذار في طريق زوجها، كلّما أتى دور العائلة حلّت مصيبة مكان أخرى، طرفة يعترف بذلك: ”لقد أصبحتُ زوجاً بجسدي فقط، أما روحي فقد غدت مشتتة“ ولم يتأخر السؤال المعروف الذي يواجه طريق الاثنين، والذي ليس له إلا إجابة واحدة: ”أنا أم الكتابة؟“.

***

”تعجلتَ باتخاذ قرار الطلاق“

”إنه ليس قراري، هي من اختارت وأصرّت“

رحل الطفلان أسامة ولولوة مع أمهما، أما إسماعيل ورقيّة فلم يعودا صغيرين، الولد التحق بالجامعة مؤخراً، والبنت في المرحلة الثانوية، يا لهذه السنوات العجيبة، كيف تَرَكنا الزمن يجرفنا حتى أصبح أطفالنا أكبر منّا!؟ كان طرفة يوجه حديثه لابنه إسماعيل: ”في مثل سنك وأقل، كنت أجوب قرى أبو الخصيب عبر دراجة هوائية حتى أبلغ البصرة...“ هذا رده إزاء اعتراض الولد على المكوث في بيت العائلة رفقة أخته، لا يقول له إنك غدوت رجلاً، ولا يعلمه تولي مسؤولياته تجاه جده الذي انصرف عنه أغلب أبنائه إثر وظائفهم وزواجاتهم، لكنه يلقيه للتجارب لا أكثر: ”إن لم تُعلمه الظروف، لن يتعلم أبداً“ يختصر على نفسه أموره، أناكفه، أتهمه بالإهمال، لكنه لا يكف ينفي ويدافع: ”أنا موجود متى احتاج مشورة أو مساعدة، فقط“ وظلَّ طرفة في شقته، يعيد تشكيلها كما يحب دائماً، داراً ومحطة لالتقاء الأصدقاء. أما غنيمة فقد ودّت أن تأخذ كل الأبناء معها، مع هذا واظبت على زيارتهم، ولم تتغيّر علاقتها مع سميرة أو أي من أفراد العائلة بما فيهم طرفة: ”من الجيّد أن الانفصال جرى في مثل هذا الوقت“ أظنه في هذه يهذي بترهات أو عبث جديد، بدا أنه يخلق

المبررات لفشل زيجته التي راهن على استمرارها، لكنه يؤكد في ظل الظروف السياسية الكويتية الراهنة، تعليق البرلمان ووفاة الأمير صباح السالم، أصبح هو الآخر مراقباً أمنياً بسبب انتمائه إلى حزب نسبت إليه أعمال تخريبية منذ الستينيات. "الشيوعيون غير مرحب بهم إطلاقاً، وهذا ما جعلني أطرد نفسي من رابطة الأدباء الكويتيين قبل أن يقوموا بذلك". كان يربط أكثر من أمر في أحاديثه، كل حالة بحاجة إلى تفسير وحلحلة خيوطها كي تتضح مقاصده.

عجينة الأحداث هذه أخذتنا من عبث إلى آخر.

***

أصبح آنذاك ينفر من لقاءاتنا المنفردة. اعتراضاتي المستمرة، ربما مواجهته بقراراته، لاحظتُ ذلك عندما توقّفَ عن سؤاله المتكرر: "أليس كذلك يا إسماعيل؟" ربما استبدل اسمي بفارع حسين أو أي شخص آخر، الأوضاع السياسية في العراق عادت إلى طورها المتوتر، نزوح أحمد البكر، وتولي صدام حسين مقاليد الحكم، خطابه الشهير في قاعة الخُلد، كان قد بدأ بتصفية رفاقه في حزب البعث، بدأ المعارضون الذين هم على رأس قائمة رجال الاستخبارات بالهروب، كان طرفة يستقبل بعضهم ويجعل من شقته محل إقامة مؤقتاً حتى يتيسر لهم الحال، قلت له: "العين عليك، احذر" لم يكن يأبه، أحياناً يرد بشدة: "تتوقع أتخلى عنهم؟!" في مرّات أخرى يقول بثقة عالية: "ليحدث ما يحدث، لن أموت الآن اطمئن".

طبيعة طرفة حين يشغله شاغل، يلقي وافر تركيزه عليه. شركة العائلة تواجه بعض المشكلات، مديرها أَدرج في ملفهم عمالاً أكبر من العدد المسموح، لم يكن يردّه طرفة، هذا محتاج وذاك لديه ظروف خاصة تنقذه الوظيفة، وأولئك إذا عادوا إلى بلدهم سيتعرضون إلى كذا وكذا، ثم أوقف عمل شركتهم: "العين عليك، احذر" ينفي أو يكابر: "لا تخلط هذا بذاك" أشعرُ أحياناً أن البعض يتقصده شخصياً، أقول له: "أنت شيوعي مُتعب، غير مرحب بك حتى من أبناء حزبك" يضحك، يقهقه، يقول: "اسمع أنا تاجر، والتجارة

ليست سُبة“ أخبرني ذات مرة أنه وصل إلى قناعاته بمشقة، فترة الستينيات أخذ يخبط بأفكاره يمنة ويسرة، حتى رواياته الأولى، كان واضحاً أنه يبحث عن أيدولوجيته الخاصة، شيء ما يمثله دون الآخرين، مصيبة الأفكار الإنسانية أنها تؤخذ بعلاّتها أو تُترك كاملة بمزاياها.

***

”اسمع، أسرّ إليك بأمر، لا تخبر به أحداً أبداً“. ثم انتظر قليلاً قبل أن يخفّض صوته: ”أقوم برحلات داخلية كل ليلة، أسرّ إليك لأنك الوحيد الذي يعرف أنني مجنون، ولا ضير أن أؤكد لك الخبر، أما الآخرون فقد يشككون برجاحة عقلي“.

منذ انفصاله عن غنيمة، وهو يقوم بتجارب غريبة خاصة، أو يَدعي ذلك، يسميها الغوص أو السفر إلى الداخل، العزلة وفرت له الهدوء والقدرة على التأمل ساعات طويلة. التأمل على وجه الخصوص، كان زاده الأساسي في التوصل والخلاص إلى نتائجه من هذه المحاولات: ”إذا أرخيت جسدك في فراش مريح، أول ما تقوم به هو التخلص التام من كل المشاعر السلبية، كل الأحقاد، الغضب، الضيق، الإحباط والكرْه، التخلص منها بمعنى زوالها النهائي، التسامح مع مسبباتها...“ كان يستغرق في حديثه حول هذا الموضوع دون غيره، شخصياً لا أصدق غرائبياته التي لم تتغير منذ صباه، أفكاره المغايرة التي يصرح بجزء ضئيل منها، كانت أخته سميرة تقول له كلما طرح عليها فلسفة جديدة: ”ربما، إذا بلغت الأربعين ستغدو نبيّاً“ أتذكر حديثها هذا في الأثناء الذي يسرّ لي: ”لقد تمكنتُ في إحدى الليالي من رؤية الخلية، كانت تسبحُ أمامي ببطء“ وأخذ يصفها بدقة، شكلها ولونها وحركتها. لا أعلم إذا كان لهذا علاقة بنبوءة أخته، لكنني على سبيل المزاح كنت سأقول له: ”ها قد بلغت سن الأنبياء، أين رسالتك يا طرفة؟“ لكنه ينجرف ويسهب دون توقف: ”لن تصدقني لو قلت لك إنني أصبحت أتصل جسدياً مع مصادر الطاقة من حولي وأؤثر عليها جزئياً، كل ليلة أسمع بوضوح صوت تكتكات موصلات الكهرباء على مادة الجبس في سقف الغرفة...“. طبعاً لا أصدقك يا طرفة، لكنني لم أقل له هذا بعد.

***

لا يزال يمارس عمله في مكتبهم الكائن بمنطقة حولي، رغم إيقاف ملفهم وتعثر نشاطه الأساسي، فإنه افتتح رخصة مؤسسة جديدة بعيداً عن العائلة، متعلقة بالإنتاج الفني والبرامجي، بدأَتْ عملها باستحياء رفقة بعض الشخصيات التي تقربت منه، باعتباره روائياً معروفاً ومن الممكن تحويل نصوصه إلى أعمال فنيّة، كما أشيعت تلك الأخبار من قبل على المستوى العربي، وقيل كذلك أن تلك الاتفاقات تعثرت لأسباب إدارية لا أكثر. توصّل إلى الشكل النهائي لرواية (الوضع العربي) التي أطلق عليها اسم (الأنهار تحلّق عموداً)، وجعل من رأيه الذي انتهى إليه في قراءاته للتاريخ، والذي أفصح للهلالي عنه حين اعتبر الحملة الفرنسية مكمن هزائمنا أو آخر محاولاتنا في استعادة أمجادنا.

جعل عصر غزو نابليون لمصر بداية لانطلاقة روايته الضخمة، والتي طمح لها في سريرته أن تتحول إلى عمل درامي، أو سينمائي، كما يحدث مع نجيب محفوظ. لم تكن مصر مقصداً للانتشار، ليس هكذا صديقي طرفة، لكنه هوجم وفق هذا المعنى، رغم احتفاء مجموعة من نخبة الأدباء المصريين بعمله ذاك. كان الخال قد اقترح عليه أن ينشر روايته هذه بالذات، في مكتبة أو دار نشر مصرية، لأن معظم أحداثها تدور حول النيل. سيكون لذلك الفعل قدرته على إقناع القارئ، ربما، وتقبله لكاتب كويتي يسجل رواية تخاطب تاريخهم وبلدهم. لكن صاحبنا لم يتخل عن موقع انطلاقته وشهرته الأولى، ولأنه يرى كذلك أن العمل يُعنى بالشأن العربي قاطبة؛ وكان لإصراره ذاك نتائجه.

***

الأمر الذي أبعده آنذاك عن تتبع ما يُكتب من نقد حول روايته الجديدة في الصحف، وصول دعوة من وزارة الإسكان لحضور قرعة توزيع منازل منطقة بيان، أخيراً سيتحصل طرفة على بيت. في الأثناء ورد إلى ذهني تساؤل: "أليس من المفترض أن يكون نصفه لغنيمة؟" هزّ رأسه، فكّر قليلاً: "نعم،

بيوت الحكومة من طابقين، هي تسكن واحداً وأنا الآخر". لكنه لا يقول أو يفصح عن مفارقة الحدث، لقد جاءت حصتهم في السكن بعد أن صادقوا على قرار الانفصال. وبعيداً عن وضعه الأسري يحكي عمّا جرى في لجنة الإسكان: "وقع اسمي ضمن الدفعة الأولى، وكان برفقتنا الفنان عبد الحسين عبد الرضا، أول مرة في حياتي أشعر أنني ذو أهمية" وعليه اختار موقعاً مميزاً يوفر له مساحة خارجية كافية يزرع بها قدر ما يمكن من أشجار النخيل. كان هذا حلمه منذ أن فارق السيبة، وأول ما بحث عنه في خارطة المنطقة حين عرضها الموظف وأشار إلى المواقع المخصصة لدفعتهم، أسبل طرفة قليلاً، مرَّ بعينيه على الخيارات، حاول الموظف مساعدته: "هذا الموقع ممتاز بالقرب من الخدمات، مسجد ومدرسة وجمعية تعاونية" لكن طرفة تجاهل عرضه، وطرح سؤاله دون أن ينظر إليه: "أيهم الأكبر من حيث الارتداد الخارجي؟" وقد ظفر بحلمه دون أن يكترث بمساحة المنزل نفسه.

رافقناه، أنا وفارع حسين، إلى موقع منزله، سلكنا عشرين منعطفاً حتى وصلنا إلى مقصدنا، لم يكن طرفة يحفظ طُرق المدن الحديثة بعكس أزقة القرى وعلامات الأشجار في المساحات الخضراء الشاسعة. تفاجأنا أنه بدأ بحرث حديقته قبل أن يتسلم مفاتيح المنزل، قلت: "لو الحكومة صرفت لك مزرعة في العبدلي..". لم يعتبر ما قُلته مزحة، كانت إجابته: "ليت هذا يحدث". ذرع فارع واجهة البيت ذهاباً وجيئة دون أن يعلّق سوى بلوحة رسمها لاحقاً، تحوي نخلة كبيرة، جذعها باب وأغصانها شبابيك يجلس حدجة في جريدها ومن حولها تالات وأصص بها زهور وأشياء تشبه البذور والفسائل، أرسلها إلى مكتب طرفة في اليوم التالي. الأخير فعل كما اللوحة، هيأ أرضه واستقامت نخلاته الباسقة التي أنفق عليها كل مدخراته قبل أن يؤثث منزله، يشير إليها بفخر: "هذه خلاص، وتلك بِرحيّة، وبجانبها سعمران، وهناك سُكرية". دعا أبناءه للسكن معه، وخصص لكل منهم غرفة بحالها بمن فيهم زوجته التي أراد لهذا الحدث أن يعيد علاقتهما مرة أخرى، كان إسماعيل ورقيّة الأكثر سعادة، خصوصاً عندما وجدا غنيمة تتفقد الغُرف والمرافق، لكن الأمور سارت بعكس

ما يرغب صاحبنا، قالت غنيمة: ”هذا بيت للأبناء، أما أنا فلا مانع عندي من زيارتهم كل يوم“.

***

ولأن غنيمة لم تسكن البيت، ظلّ طرفة وحده، يقرفص صباح كل يوم عند حوض إحدى النخلات، يمسك بخرطوم الماء، ويضع كأس شاي بالقرب منه، وباليد الأخرى يقرأ من كتاب.

لا أخبار تشدّه هذه الأيام سوى احتدام توتر الأوضاع العراقية الإيرانية وبدء إعلان الحرب. أصبح يحمل معه مذياعاً أينما ارتحل. الأصدقاء في البصرة يتوافدون إليه ينقلون صورة عن امتلاء مدينتهم بالجنود والآليات العسكرية. ترحيل سكّان القرى والمناطق القريبة من الجبهة إلى نواحٍ أخرى في الداخل

العراقي، غابات النخيل التي تقع في الضفة الأخرى من لسان الشط الذي يشق مدينة البصرة، والمقابلة لمدينة عبادان، جزّت بالكامل بأمر من الرئيس، هذه أولى خسارات العراق حتى قبل بدء الحرب، جذوعها تتكدس على جانب من اليابسة، تحل محلها الدبابات وحاملات القذائف، وقواعد أسلحة، ورشاشات آلية، وخنادق.

كان الأسى يملأ روح طرفة، يفكر بمدة الانقطاع المحتملة عن زيارة البصرة، عن فكرة تسوية الأراضي والدمار الذي قد يمسح آثار ذكرياتهم. حين بدأت أفعال الحرب، كان دوي الانفجارات يصل مداها إلى مدينة الكويت في بعض الأحيان، ينقبض قلب طرفة كلما تناهى إلى سمعه صوت، أو استشعر دون غيره اهتزازاً تحمله موجة إلى ضفة الخليج العربي، يغمض عينيه، يقول: "يا رب".

***

تمضي الأيام عنوة، يعتاد، وكل الناس بمن فيهم أهل البصرة الذين بقوا أو أولئك الذين تم ترحيلهم، على نمط حياة مغايرة، نحن والعدو الجديد، وأخبار قتلى من الجنود أو المدنيين الذين لم يبرحوا مواقع الخطر، أناس يعرفونهم أو يعرفون أقرباءهم. فلان ابن فلان، عمه جارنا أو خاله قريبنا، استشهد أو تم أسره. تبادل إطلاق نار متسلسل دون نهاية، وسائل الإعلام ما زالت تمارس دورها وفق توجيهات القيادات، صور الرئيس تتصدر الصحف العراقية والكويتية على حد سواء، زيارات دبلوماسية رفيعة بين البلدان العربية لمناقشة أحوال الحرب العاصفة. وما الذي بمقدوره أن يطفئ نيران السياسة المشتعلة في رأس طرفة؟ يحاول ممارسة بعض اللهو بحذر، محاولة انتقالية نحو كتابة الدراما التلفزيونية، نتج عنها سهرتان تلفزيونيتان من كتابته، كذلك، تزامن هذا والتحاقه بالمعهد العالي للفنون المسرحية، طرفة وجد فسحة للحصول على شهادة أكاديمية فنيّة، تقربه من الأجواء أو الأضواء التي يعمل في حقلها مؤخراً، يعيد إلى نفسه حلم اقتناء كاميرا، أو تصوير فيلم سينمائي. من يدري. كنت متأكداً أن ما يجول في رأسه ليس بعيداً عن هذا، ابتعاده عن

مسؤولياته الأسرية، عودته مرة أخرى، بشكل أو بآخر إلى حياة عزوبية تجتاحها فراغات شاسعة يبحث عن ملئها، بكل ما يستطيع، أو يظن ذلك.

***

مكتب عمله في شارع ابن خلدون، ليس بعيداً عن شقة فارع حسين الذي كلّما استيقظ من نومه متبرماً، وفي رأسه مئات الأسئلة والأفكار، يرفع سماعة الهاتف ويضغط أرقام مؤسسة طرفة بنصف عين، أو دون أن ينظر إلى الأزرار أحياناً، وما إن يجيب الطرف الآخر، يخبره الأول: "عشر دقائق وأكون عندك". انتظرَ دخوله ذات يوم، بطريقته المعتادة، يدق الباب ثم يفتحه دون انتظار إجابة، هذه المرة لم تنفرج درفة المكتب، ظلت مغلقة بعد طرقات ثلاث ووقت جاوز عشر ثوان، نظر طرفة إلى الباب، عاود الطرق: "تفضل" ظهر أحد الأصدقاء العراقيين المقيمين في الكويت، برفقته شاب عشريني: "أهلاً" نهض طرفة، رحّب بطريقته المضيافة، قال الآخر: "الأخ جواد من مدينة القاسم" نظر إليه، استدعته ذاكرته على الفور، قال: "ألم يأت معك الموسيقار الكبير؟" تعجب الطرفان على حد سواء، رد الآخر: "أنا متزوج بكويتية".

قصد جواد أن يدلل على استقلاليته الحالية حين أخبر طرفة بإفادته الأخيرة، لم تعد تحركاته مرتبطة بصهره الموسيقار الكبير الذي رآه بصحبته أول مرة مطلع العقد الماضي ببغداد، أيام زياراته المتواصلة. الموسيقار صديق مقرب منه بحكم تنوع علاقاته واتساعها، ولأن طرفة عضو حزب في الكويت كذلك، كان يعرف بخروج جواد من العراق هرباً من أفراد السلطة الحاكمة، وكان على علم بأنه يعيش في جوار قريب منه، وبرر ذلك بقوله: "لأن العين عليّ، لم أبحث عنك أو أتقصى أوضاعك، ذلك من شأنه أن يضعك تحت دائرة المراقبة كذلك".

جواد شاب متطلع، تغمره الحماسة ورغبة في الكفاح، عَمِل في محل صرافة، قبل أن يترك سلك التعليم في العراق، ثم غامر في سوق الأوراق المالية، لكنه كما طرفة ربما، تعرض لشكل من أشكال الاستغلال وخسر بعض

أمواله. تطوع الصديق المرافق، بصفته وسيطاً مفترضاً للعلاقة بين الاثنين: "نأتيك بغرض طرح مشروع تجاري متعلق باستيراد وتصدير مواد غذائية" علاقة الأخير بأصدقاء في بلغاريا عندهم القدرة على التوصل إلى اتفاقات بشأن امتلاك وكالات ممثلة في الشرق الأوسط عن شركات كبيرة، لم يدخر طرفة وقتاً طويلاً حتى يقرر موافقته: "لا مانع..." في ذلك اليوم بالذات، غيّر فارع حسين، وبشكل مفاجئ، وجهته إلى الجريدة، بدل أن يذهب إلى مكتب طرفة.

***

ضمن ما قالته غنيمة، حول أيامها الأخيرة قبل أن تتخذ قرار الانفصال، أن ما بدا عليه زوجها مختلف تماماً عن أي وقت آخر. لفّت حياته حالة من الغموض وعلى نحو مبالغ به وغير معتاد، يزوره غرباء في أوقات متأخرة من الليل، لا تعرفهم ولم ترهم قط، يطرقون باب شقتهم، إذا ما أجابت غنيمة: "من؟" يأتي صوت الآخر: "طرفة موجود؟" وما إن يظهر لهم بثيابه المنزلية أو بيجاما النوم، تتهلل أساريرهم: "أهلاً رفيق..." يبادلهم بترحيبه الحار، ثم يعود إلى الداخل يرتدي ملابسه بسرعة ويغيب معهم ساعات حتى يعود في وقت متأخر من الفجر. تُبادر فتسأله في يومها التالي عن الزوار، لا يبدو عليه التوتر أو القلق، يجيب من فوره، فلان صديق من أيام الدراسة، أو منتج تلفزيوني، وسيط تجاري، فنان صاعد، أناس بحاجة إلى مساعدة، ثم يستطرد يحكي قصصاً حولهم، ربما بقصد تبديد الشكوك وتأكيداً على صدق إجاباته، لكنها محاولات ليس إلا، لا تقتنع بها غنيمة. ذات ليلة على السرير مال ناحيتها، قرّب ذراعه منها، التفتت إليه وإذا به غاص بنومه، أدركت أنه لا يتصرف بوعيه، أشاحت عنه، لكنه أخذ يهذي وينطق باسم ما، لم تتبيّن ما راود سمعها، لكنها تدرك تمام الإدراك أنه اسم أنثوي، ما لبث أن سكت، وظلّت غنيمة في حيرتها وانتظارها معاودة حديث أحلامه حتى طلع الصباح.

يا طرفة احذر: "مازالت العين عليك..." الكُل يعرف مدى علاقاته المتنوعة، بالنسبة له هذا أمر يريحه، وربما يخدمه ككاتب، إضافة إلى كونه يجيد استغلال

وقته، يمنح نفسه عزلة خاصة، يختلي بها ويمارس القراءة والكتابة، ويعطي للآخرين ساعات من السمر والأحاديث والسفر إن سنحت الفُرص. بعد انفصاله عن غنيمة قرر ألا يتزوج مرة أخرى، ثلاث مرات كافية لرجل بمثل مزاجه. كاتب يحب أن يعيش مغامراته، تزوج أول مرة بوكالة والده، لم تدم أكثر من يوم واحد، زواج ثانٍ باختيار والدته نتج عنه طفلان ومعاناة في مزاوجة عقلين أكثر من جسدين، زيجة ثالثة عن إعجاب وحب وتفاهم متوائم لم يصمد أكثر من عشر سنوات تقريباً، "العلّة هنا" يشير طرفة إلى نفسه يعترف على مسمع من الآخرين.

لكن قلبه لم يصفرّ بعد. يتوهم أن بإمكانه مقاومة تجربة جديدة تتوشح بطابع الديمومة أمام نفسه والناس، مازلتَ تُحب يا طرفة، أنت تدعي عكس ذلك فقط حتى لا تقع بمشاكل التجارب السابقة، كانت امرأة تشاطره أفكاره السياسية، ربما كانت تنتمي إلى ذات الحزب، تصغره سناً لكنها لا تكف عن مراوحة خيالاته كل ليلة، حين ينفرد بسريره الخالي، يمارس طقوس التأمل يتحكم بالطاقة ويرى الأعضاء البشرية الدقيقة تسبح في هلام لزج شفاف محمرّ، يظهر وجه الفتاة إياها، وجه الحب الذي لا بد أن يعترض حياته كل مرة.

***

منذ افتتاح أبراج الكويت، قبل أربع سنوات تقريباً، لم تسنح له فرصة الصعود إلى قمتها، كان يُفضل، ومنذ زمن، أن يسير فوق رمل الشاطئ وقت مد البحر الأعلى، يغمر رجليه العاريتين بالماء ويغمسهما في التراب، ويمعن في دوائر الأبراج المهيبة التي تواجهه بصمود وصمت آسر. هذه المرة تَلقى دعوة عشاء على شرف أحد كبار أعضاء الحركة النضالية العربية، أو شيء من هذا القبيل، في مطعم الأبراج، كانت الفتاة ذاتها تجلس على مقربة منه، مسافة تسمح له بتبادل أحاديثه معها، أو يحاول افتعال ذلك، قالت إن اسمها "بروين". سألها بافتتان عن معنى الاسم اللافت، ردّت بحماسة: "كلمة فارسية تعني الشيء المشرق" أبدى طرفة دهشته، حين يرفع حاجبيه تبدو ملامحه معجبة بانجذاب: "لقد أحسن من سمّاك"، ابتسامتها نمت عن خجل فاضح، كانت لا تتوقف عن

قول كلمة أستاذ، عند كل جُملة تشاركها طرفة، ودّ الأخير أن يردها عن خلق حواجز تقليدية: "لا يوجد أستاذ بيننا" ابتسمت، أوضحت أنها تقرأ رواياته بانتظام، تحرص على اقتنائها كلما صدر عمل جديد، إضافة إلى ذلك، كان أخوها أحد طلابه في مدرسة المتنبي. ابتسم بتحفظ هذه المرة، بدا أن المعلومة السالفة لم تعجبه: "لكنني تركت مهنة التدريس منذ ما يقرب عشر سنوات". انتهى عشاء الليلة لحظة تبادَل الاثنان أرقام هاتفيهما: "أنا رجل متفرغ أعيش وحيداً، يمكنك الاتصال في أي وقت".

***

بالتأكيد، الإشارة إلى علاقة عاطفية في حياة طرفة، لها نهاية واحدة معروفة، لكنه هذه المرة لا يبادر، ولا يود فعل ذلك، من ناحيتها، بروين لا تتطلع إلى ارتباط بقصد العبث، يقول طرفة بقصد إخلاء مسؤوليته: "أنا رجل مطلق ثلاث مرات" يبالغ في كل مرة عندما يدلل على زواجاته بالثلاث، في الحقيقة هما اثنتان، الأولى لا تحتسب، ترد عليه: "أنا امرأة أخرى" تقصد: "أنا امرأة مختلفة عن السابقات" يفكر مجدداً، تهزه ذكريات الشعور بالذنب، تقصيره وإهماله وانجرافه وراء اهتمامات خاصة تُزحم رأسه: "أنا مكتفٍ بأربعة أبناء" يحاول أن يجعل من الأمر أكثر صعوبة، توافق على مضض: "لا أطفال..." وعود البدايات، الاندفاع بمعنى التوق لتحقيق رغبة، الحلم، كل تلك ليست سوى خبرات سبق تجربتها، إنه يخشى ما يخشاه، أن يحصل أمر مثل كل مرة لم يخطط له، أو يتوقع حصوله: "شرط أخير" تتطلع إليه، يبدو في حالة تردد أو ترقب لردة فعله، فيقول: "العصمة بيدكِ" دهشة الطلب، أو بالأحرى التنازل، ثم تابع بإصرار: "إذا رغبت التخلي عني، في أية لحظة..." جديته خلقت نوعاً من إعجاب مختلف، لا يفعل هذا رجل عادي، وكأن مطالبه تراوح في ظاهرها الرفض وفي باطنها القبول.

***

لن تنتهي حرب مجهولة الأسباب والأهداف.

يقول طرفة: ”كنتُ على يقين من انتشار رجال المباحث يوم العشاء الذي أقيم في أبراج الكويت“ بدا على الأمن توجس حدوث أخطار قريبة إثر موقف السلطة من الحرب الراهنة، أفراد موالون للجبهة الإيرانية موجودون في البلد منذ أمد قد يتحينون فرصة الهجوم أو التخريب، أعضاء الحزب المدعو لتناول عشاء تلك الليلة ليسوا بمنأى عن دائرة الاتهام بسبب خلافهم مع الحزب الحاكم في العراق. بعد أيام قليلة حدث ما خُشيَ حدوثه. تفجيرات في عدة مواقع استهدفت السفارة الأميركية والفرنسية وبرج مراقبة المطار الدولي، وأكبر مصفاة نفطية. محاولات نتج عنها أضرار مادية هيّنة، ولكنها أسفرت عن خسائر بشرية.

يراقب طرفة الأحداث، في حين يتابع مع صديقه جواد مساعيه التجارية، استيراد مواد غذائية وتوزيعها على الجمعيات التعاونية، في جهة أخرى كذلك استخرج رخصة فرعية للدعاية والإعلان بمعونة خطاطين وفنيين، ربما بفعل الفراغ، وكذلك تعثر مشروعه الأول المتعلق بالمقاولات، يتخبط هنا وهناك، هدفه الأساسي يرتكز على مسألة التفرغ التام للكتابة والقراءة، يرى أن التجارة ستسير يوماً ما من تلقاء نفسها، من المهم أن يمتلئ جيبه نهاية الشهر بما يسد احتياجاته الأساسية. ”لكن عليك التركيز في عمل إن سارت أموره تتجه لآخر“. أحياناً ينظر طرفة إلى المسائل بعاطفية مفرطة، حتى إذا حضر موقع نقل وتحميل أراه يتقدم للمشاركة والمساعدة، أود أن أقول له: ”يا صديقي اترك هذا، فقط غِب في عزلتك واخرج لنا برواية جديدة“.

***

كتابة. تجارة. سياسة. حب.

تتوالى سنوات من الحرب، وأحداث الكويت من جهة أخرى. أُلقي القبض على منفذي التفجيرات السالفة، وكانت هذه دوامة جديدة لم تدركها السلطة بعد. على إثرها خُطفت طائرة كويتية متجهة إلى كراتشي في العام التالي بعد مفاوضات لإطلاق سراح المعتقلين. لم يسفر هذا الفعل عن أية نتائج سوى تأجيل إعدام من ثبُت تورطه. بروين بطبيعة الحال عاشت مع طرفة في منزل

منطقة بيان، غنيمة لا تُبدي أية ردة فعل، لا تكنُّ العداء للزوجة الجديدة، مارست حياتها باعتيادية وديّة. زوجته الجديدة تحب مرافقته في المناسبات واللقاءات الأدبية، هذا يناسب طرفة خصوصاً في مثل هذا الوقت، مع تزايد ظهوره في الإعلام والصحافة، اقترانه بالفنانين والمسرحيين، بروين ترى مدى انجذاب العديد من الفتيات ناحيته، يتوددن ويرغبن بالتحدث إليه عن قرب، كلما تقدم به العُمر يزداد ألق حديثه وسحره، يتساءلن عمّا يضمره، بعضهن تتمادى ربما تمد يدها تلمسه من قبيل العفوية، تحت أنظار زوجته، ليلتهُ تغدو قاتمة يُحاسب عن فعل لم يرتكبه، في مرّاتها الأولى كانت تقول بأنها اختارت عدم إبداء ردة فعل تقديراً لوضع زوجها، طرفة يستميلها يمتدح رجاحة عقلها، لكنها تؤنبه: "عليك بمنعهنّ".

الكويت تعيش أوضاعاً سياسية صعبة، قوى برلمانية نجحت في الانتخابات الأخيرة تشكل ضغطاً داخلياً آخر، الحكومة تفقد جزءاً من سيطرتها على الأوضاع، القوى الخارجية ما زالت تمارس فعلها للإفراج عن المعتقلين المتورطين بالتفجيرات، المسألة العراقية الإيرانية تدخل مرحلة من التعقيد، والنيران ما زالت مشتعلة، طرفة لم يكن قادراً على إتمام كتابة روائية، يكتب ويشطب ويرمي في الأدراج أو سلة المهملات، تُنازعه كل الأحوال من حوله، قلق وتوتر ومخاوف على أصدقائه في البصرة، على طفولته، على أشجار النخيل، يدخل في جدالات عديدة مع القوميين العرب الكويتيين الذين يناصرون حزب البعث العراقي، يتمادى بعضهم يقول: "لأن زوجتك ذات أصول فارسية...". لا يُخفي طرفة غمّه وضيقه لفارع حسين، لم يكن يُظهر لي هذا، كنتُ أصرح له عن خطورة تصدير الثورة الإيرانية، أفعالهم الأخيرة لا تنم عن نظام مسالم، بل سلوك عصابات لا تنوي خيراً.

بروين أعلنت عن خبر حملها، غضب زوجها، ردّه كان غياباً كاملاً عن المنزل مدة أسبوع، صمتاً تاماً لم يتحدث إليها، لم يبارك لها، لقد أخلَّت بالاتفاق، ربما فعلت ما فعلت بسبب خوفها من فقدها طرفة، المعجبات، العلاقات، المناسبات، طرفة فكّر جدياً في وسيلة تُوقف إنجاب الأطفال، الانفصال قرار في يد الزوجة هذه المرة، ولو كان معه فلن يُقدم عليه ما لم يطلبه الطرف

الآخر. حدث جديد جلل في شارع الخليج العربي، على بُعد مسافة منظورة من بداية قصر السيف، انفجرت سيارة مفخخة بعد محاولتها الاقتراب من موكب أمير دولة الكويت، وعلى إثر هذا اصطدمت بها مركبة الحرس بقصد إبعادها، ثم حدث ما حدث، نتج عن الأمر وفاة حارسيْ أمن، ونُقل الأمير إلى المستشفى إثر تعرضه لإصابات ولتلقي الإسعافات اللازمة، كانت عملية انتحارية بقصد الردّ على موقف الكويت من الحرب الراهنة.

بعد تسعة شهور وضعت بروين مولودها، لم تكن الأيام الماضية سهلة أبداً على الطرفين، ولم يلن طرفة بعد كل هذه المدة، كان قد اتخذ قراره: "كل طفل جديد يعني وثاقاً آخر من المسؤوليات" قلت له: "كُفَّ عن هذا يا صديقي، أنت لا تولي أمر التربية اهتمامك". كان مولوده ذكراً أطلق عليه اسم بدر، يخلق من هذا حالة أدبية خاصة، بدر ابن بروين، المعنى المبيت في رأسه، قمر مكتمل ومشرق، يتطيّر وسط أخبار تعيسة متوالية، فارع حسين يتلقى تهديدات هو الآخر إثر مواصلته انتقاد سلوك منظمة التحرير الفلسطينية التي نشأت بالأصل في الكويت، انتقل وقتذاك إلى جريدة القبس التي احتفت بانضمامه عن طريق إقامة معرض فني خاص يحوي لوحاته، حين حضره طرفة تذكر حلمه الذي رآه في بداية تعارفهما، المرايات والسقف المسيّج بالأسلاك الشائكة، دهمه بعض الخوف، التوجس من سوء ينتظره، لكنه كتم مشاعره لم يفصح عنها لأحد، كان فارع حسين يوقع أول كتاب له يحوي مجموعة كبيرة من لوحاته، صُمِّم الكتاب بقياس أفقي، غلافه أسود تمام السواد يَظهر فيه حدجة يتسلق مكاناً من أجل تثبيت علم لبنان مكان علم الكيان المحتل، عناصر اللوحة بكاملها تتشكل في عيون ناظرها، للوهلة الأولى، ذراع عملاقة قوية مرفوعة للأعلى. قام فارع من مكانه حين جاء طرفة يبتغي توقيع صديقه، عانقه كما لو لم يلتقه منذ زمن، ثم وقَّع نسخته وكتب: "لا شيء يستحق".

غادر طرفة أيامها إلى بلغاريا رفقة جواد صديقه وشريكه، حجة وحاجة إلى ترتيبات تخص توسعة العمل وافتتاح مكتب خاص في أوروبا يدير مسألة متابعة التجهيز والتطوير ونقل المنتجات إلى الكويت. التخطيط لعمل خط إنتاج

محلي للمواد الغذائية، مكتب حولي ما عاد ملائماً، وجد جواد مكاناً آخر في منطقة الصالحية، رَحباً وتدخله أشعة الشمس من كل جانب، يعيبه أمر واحد، إطلالته على مقبرة، كان تعليق طرفة: "هذا نذير شؤم" بحثاً عن آخر في الناحية المواجهة للبحر، وجدا ضالتهما هناك، أفضل من الأول، على مرأى من الساحل، تتدحرج المراكب فوق أمواج المشهد: "هكذا، أصبح بإمكاننا استغلال المكان للعمل والأدب". في الفترة المسائية تتحوّل المؤسسة كل ثلاثاء إلى محل لقاء ثقافي يتجمع فيه الكتّاب ويُدعى له الضيوف، طرفة أوشك على الوصول إلى مبتغاه.

بروين لم تعد تحتمل، إهمال زوجها أو تجاهله زاد عن حده، ربما كانت تتوقع منه أن يهجرها مدة أسبوعين، شهرين، لقد بلغنا السنة الثانية تقريباً منذ إبلاغه خبر حملها، حضوره في منزله لا يتعدى محدودية أداء الواجبات، مشاعره ميّتة باهتة، صمته رائن، يبحلق بعينيه في كل زاوية سوى تلك التي تجلس فيها زوجته، لا يُسمع له صوت إلا عند زيارة أصدقاء أو يتمتم ببعض الكلمات وقت مجالسة أشجاره في حديقة منزله.

البرلمان الكويتي تسبب العام الماضي في استقالة وزير العدل، يتقدم الآن بأربعة استجوابات دفعة واحدة، الحكومة تدخل أزمة جديدة في تعاطيها مع أعضاء مجلس الأمة، أدى هذا إلى قرار صادر من أمير البلاد بحل مجلس الأمة وتعليق العمل ببعض مواد الدستور. توتر الأوضاع الداخلية ينبئ بأزمة محتملة، تَرقُّب وسائل الإعلام، سيارات الشرطة منتشرة في الطرقات على مدار الساعة، فرض قوانين جديدة تتمثل في رقابة مسبقة لما يُكتب وينشر في الصحف، في الوقت نفسه، ضغوطات أخرى طالبت بترحيل فارع حسين عن الكويت، شخصيات رفيعة ذات أهمية كبيرة في الأنظمة العربية ما عادت تحتمل جرأة الرسام وشجاعته، تذكر طرفة ما كتبه في إهدائه: "لا شيء يستحق" يا فارع ليس لأجل أي شيء سوى أطفالك، اقترح رئيس تحرير جريدة القبس أن يرحل إلى لندن حيث مكتب صحيفتهم الخاص بالعدد الدولي. بعد بضعة شهور، خبر اغتيال فارع حسين يملأ الدنيا.

غيبوبة تامة مدة شهر وبضعة أيام، ثم فارق الحياة.

غمٌّ عمَّ قلب طرفة. ”يا للغرابة“. لم يقلها أحد، وقالها كل الناس.

***

بعد قرابة تسعة شهور، قامت جهات باختطاف طائرة كويتية عائدة من بانكوك، وطالبت بالإفراج عن المعتقلين المتورطين بالتفجيرات، صداع جديد يعترض الحكومة التي لم تبد استجابتها، فاوضت وماطلت إلى حد تنقل الطائرة من دولة إلى أخرى مدة أسبوعين حتى غدت واحدة من أطول رحلات الاختطاف في التاريخ، أسفر الأمر عن مقتل اثنين من الرهائن، ولم يتحقق غرض العملية.

انتهت الحرب العراقية الإيرانية، أخيراً فرجة من السلام، في الأثناء قررت بروين إنهاء علاقتها مع طرفة، لكنه طلب منها البقاء في المنزل كما اقترح على غنيمة، هي تعيش في طابق وهو في الآخر.

***

مضت سنتان بتمامهما وكمالهما من الهدوء.

في صباح باكر من صيف أحد الأيام، دُق جرس البيت، فتح طرفة ببيجاما ونصف عين، كان والد بروين في الخارج، ملامحه بدت غاضبة أو خائفة، لم يتمكن من فهم موقفه، قال شيئاً فور أن شرع الباب، تساءل طرفة: ”ماذا!؟“ رد الآخر بصوت أعلى: ”قوات عسكرية تجتاح البلاد“.

٢١

صيف عام ٢٠١٦

ذات يوم، في إحدى زيارات مكتَبِه رفقة عبد العزيز سالم.

كان طرفة يتحدث عن أصدقائه الذين غادروا الحياة. يلتفت جهة النافذة المطلة على المقبرة عند استحضار الأسماء تواليا، تهبط على رأسه صور حالمة من الأحداث. كان يتحدث عن فلان وفلان حتى بلغ الشاعر فايق عبد الجليل، نشوء علاقتهما بشكل غريب، مصادفة مفتعلة، اندهاشه من مُنجزه المغاير، جرأته في التعامل مع النص الشعري، يجعل الكلمة العربية مطواعة فتستحيل عاميّة قريبة من الناس، قدرته على كتابة نص غنائي طرِب يحيل من يتأمله إلى أبعاد فلسفية. يقول طرفة إن إحساساً غريباً دهمه بعد مدة قصيرة من لقاءاتهم في المقهى، شيء ما قال له: "عُمر هذا الرجل قصير" يوم أهداه ديوانه الشعري الأول، كتب: "إلى صديق رحلة الحروف، الشاعر والروائي المبدع طرفة أسامة، أُهديكَ بداية البداية" الغريب أنه لم يذيّل رسالته باسمه، اكتفى بكتابة: "أخوك المؤلف" وكأنه أي شخص لا يعنيه هذا الزخم العاطفي الكبير. ثم نَظَر باتجاه النافذة، قبل أن يتذكر أمراً ما: "لديه طريقة عجيبة إذا غصّ في بيت شعري..". نهض وخرج من وراء مكتبه، ثم وقف في مساحة من أمامنا، فجلس على أربع ومدّ إحدى ساقيه وترك الأخرى مثنية، وجعل إحدى ذراعيه بين رجليه وقال: "يرمي دفتر الكتابة على الأرض، ويكتب بيد ويُسند جسده بالأخرى". لم أكن متأكداً إن كانت هذه وسيلته الحقيقية في استدعاء الأفكار أم قصة غرائبية أخرى مثل مسدسه الذهبي! تحدثت وعبد العزيز سالم فيما بعد، لم نكن مندهشين من بدعة فايق عبد الجليل بقدر فعل طرفة الذي قلّده أمامنا وكأنه شاب في سن العشرين يتصرف بأريحية بين أصدقائه المقربين جداً.

”هناك صديق واحد، لا أعرف له أرضاً ولا سماء“ لم يكن ينظر باتجاه النافذة هذه المرة: ”هو غريب، مثل شبح، يغيب عندما أختار أن أغيّبه، لكنه يظهر في أوقات محددة دون مسوّغ، وكأنه يعرف أن لحظته حانت، ومنذ هاجرت إلى...“ ثم التفت باتجاهي وفي عينيه نظرات مريبة، شككت أن صاحبه يحوم فوق رأسي، لكنه وبحركة مفاجئة مال برأسه وقال: ”لا أعرف“ ثم لمعت عيناه.

***

وقت كتابة رواية ”ثلاث درجات في السماء“ اتصل بي رئيس نادي الخان للقراءة، الذي دعاني من قبل لمناقشة رواية الحجل. طرح بعض الأسئلة المتعلقة بنشر الكتب، ثم أخذَته استفساراته الكثيرة إلى طلب لقاء قريب، لم يكن بوسعي آنذاك سوى دعوته إلى المقهى القريب من شقتي في الوقت المخصص للكتابة. حضر يوم موعدنا ومعه شاب أسمر ممتلئ البُنية، ملامحه مألوفة، كنت أتعقبهما من وراء الزجاج يسيران باتجاه المقهى، في حين يأخذ صاحبه أنفاساً متلاحقة من سيجارته، قبل أن يلقي ما تبقّى منها قرب الرصيف. أخذ اجتماعنا هذا سلسلة أخرى من الاجتماعات اللاحقة، كانا قد عرضا عليّ شراكة في مشروع مطبعة ديجيتال، بصفتي أحد ملّاك دار فيستا للنشر والتوزيع، بمقدوري أن أكون زبوناً جاهزاً يختصر عناء مصاريف دعائية أولية وربما شهوراً من الإيجارات والرواتب التي تأكل من الميزانية. جهّزا كامل أوراقهما وخططهما، وبسطا لي إجابات لكل الأسئلة المتوقعة، المكان والأجهزة والرخصة وقيمة رأس المال. كنت وقتذاك في قتال من أجل الانتقال إلى البيت، أخوض جولاته الأخيرة، أجري عمليات حسابية متواصلة لا تتوقف حتى إذا أويت إلى مخدعي، يعمل دماغي إلى أن ينطفئ من تلقاء نفسه وينام. كان عرضهما مميزاً لكنه أتى في وقت حرج جداً، يشبه حال تأسيس دار النشر حين وضعني سؤال شريكي أمام أحد خيارين، إما الآن أو نصرف النظر، وكان جوابي هذه المرة يشبه الأولى، وسط بنائين كبيرين يشيّدان بتزامن وإصرار، نبدأ بحفر أساس البناء الثالث، وليحدث ما سيحدث.

***

مكتب طرفة، مكان لقائنا المعتاد، يخص شركة الشحن الخاصة به.

في يوم زيارة عرضية غير منتظمة، وجدته يجتمع بأحد عملائهم من ممثلي شركات الطيران، وكانا يسوّيان خلافاً أو ترتيبات تخص عملهما. كان النقاش محتدماً عندما دخلت المكتب، فنظر إليّ وأشار بحزم وصوت آمر: "اجلس هناك" قَصَدَ الأريكة البعيدة، كان انفعاله جديداً عليّ، بدا أنه منزعج. وجدتني أُنفذ دون أن أنبس بكلمة، وعينايَ تتربصان سلوكه وردود أفعاله، لم أفهم أيّاً مما يقولانه، ثم بدا وكأنه رمقني لوهلة، ربما بانت على وجهي الدهشة، لم يبدد وقته في حواره هذا، سرعان ما صرف ضيفه، ثم انتقل إليّ: "اقترب، أطلعنا على جديدك" كان ينتظر مني أن أهدِئه بنص قصصيّ أو مشهد روائي فارق، لكنني قلت له: "ما رأيك لو أقمت مشروع مطبعة خاصة؟" تحوّلت ملامحه فجأة، ثم ابتسم وقال: " يبدو أننا بحاجة إلى كأسي شاي".

سرتُ خلفه إلى ركن المطبخ: "أنا محتار ومتخوّف كذلك" صوت زر الغلاية أعقب انتهاء جُملتي، بقبقة غليان الماء السريعة تشي بأنه كان ساخناً بالأساس. "بالنسبة لي، إذا أوشك أمر ما أن يحدث، أتركه يحدث" لم يكن جوابه مختلفاً عمّا قلته لنفسي، كانت نبرته تدفع بي لخوض المغامرة: "الحياة تجارب، وأنت بحاجة إلى خبرة جديدة، والتطور الطبيعي لدار النشر هو امتلاك مطبعة خاصة..". عندما عدنا إلى مواقعنا في المكتب، أخرج من خزانة قريبة منه رزمة أوراق، أخذ يصفُّها، يضم عرضها بطولها، ثم أتى بمشبكه الأسود الخاص بالمسوّدات وقبض به على الأوراق، قرأتُ على صدرها عنوان: "السيبة" قال: "هذه رواية صغيرة جاهزة، أجريت عليها مراجعاتي النهائية، خذها اقرأها وعُدْ لي برأيك". سعل مرتين، ثم أخرج جهاز الآيباد وأطلعني على صورة: "فنان عراقي رسم لوحة وطلب مني أن تكون غلاف كتابي القادم" ثم ابتسم ونظر إليّ بحماسة: "دعنا ننجز روايتنا هذه في مطبعتك". ما لفت انتباهي في قوله ذاك، استخدام صيغة الجمع في لفظ: "روايتنا".

***

بعد صدور رواية "ثلاث درجات إلى السماء" وإيصال تيار البيت الكهربائي، بدأت تنمو المطبعة التي وجدنا لها محلاً في منطقة أسواق القرين. شريكنا الثالث، الشاب الأسمر ممتلئ البنية هو من تولى الشؤون الإدارية وبعض الأمور الفنية المتعلقة بنوعية الأجهزة وكفاءتها، كان متفرغاً للمشروع، وقد أجرى دراساته سلفاً قبل انضمامي لهم. بالنسبة لي، كنت أتولى المسائل الإنتاجية، النوعية والكيفية، وكذلك الأمور التسويقية، أما مدير نادي الخان فكان يوفق بين الأدوار كلّها، ويوجه عمّال المطبعة. سار العمل بوتيرة أسرع مما توقعت، وأجرينا تجاربنا العديدة، وكنتُ أرسل إلى طرفة مقاطع فيديو لبعض العيّنات وآليات تنفيذها، كررنا العمليات حتى أفضينا إلى نتائج مذهلة، وأجرينا حساباتنا لنكتشف أنه بإمكاننا، في دار فيستا، طباعة كتبنا بتكاليف مخفضة، وهذا سينعكس على أسعار البيع لبقية العملاء كذلك، وتحديد الكميات بطريقة محدودة تعطي الزبون خيارات التوفير. أرسلنا منشوراتنا في البداية، وشاركنا في المعارض، وانتظرنا ملاحظات المكتبات والقرّاء. لم نتلق أية شكاوى، حتى بعد انتظار مدة طويلة وكافية. أصبح بمقدورنا الدخول إلى السوق بثقة عالية. ما يعيبنا هو عدم قدرتنا على إنتاج كميات كبيرة في وقت قصير، لكننا كنّا نقدم أنفسنا بصفتنا جهة بمقدورها طباعة ولو نسخة واحدة فقط وبتكلفة معقولة. كانت أولى التجارب التي أكسبتنا شُهرة جيدة عندما وَقع أحد الناشرين الصاعدين في ورطة، حين قرر إقامة حفل توقيع لأحد الكتّاب الجماهيريين في معرض الكويت للكتاب، لكنّ شحنة كتابه تأخرت وخشيَ ألا تصل في الموعد. استطعنا تأمين مئتي نسخة بجودة عالية في ظرف يوم واحد.

سبتمبر، عام ٢٠١٦

"إسماعيل كاتب وتاجر مثابر...".

هذا ما تذكرته عندما جئته بطبعة روايتنا "السيبة". أخذ طرفة يقدمني إلى جموع من المشاركين في ورشة للكتابة يديرها بنفسه، وتهدف إلى إنتاج

أعمال روائية قصيرة، وكان مناسبة ذلك أن دار فيستا تعهدت بنشر ثلاثة أعمال فائزة.

قلت له: "سنشارك بها في مسابقة الجائزة العربية" أخذ يتفحص الكتاب، يعاين حوافه، يتلمس الورق، يقرأ جملة عشوائية، يمرر أصابعه على الغلاف، ثم أخرج هاتفه والتقط له صورة، وقال إنه سيرسلها إلى صاحب اللوحة. الرواية تتحدث عن امرأة بقيت في قرية السيبة إبان الحرب العراقية الإيرانية، وأخذت على عاتقها إحياء المكان بعدما أفسده العسكر. يقول إنها قصة سيدة حقيقية تدعى أم قاسم، ربما هناك امرأة بهذا الاسم، لكنني أعلم جيّداً أن الشخصية التي لعبت دور البطولة في الأحداث كانت أمه صابرين.

بعد فترة قصيرة، وردتنا أخبار حول اجتياز رواية "السيبة" مرحلة الجائزة التأهيلية، وقد بلغت الآن مراحلها النهائية.

٢٢

لم تكن آخر سنتين من عقد الثمانينيات مستقرة كما أسلفت.

كنتُ أود تجاوز بعض المسائل التي قد تشغل القارئ عن تتبع حياة طرفة، واعتبرتُ المشاكل الداخلية الكويتية أقل همّاً من التهديدات الخارجية، لكن الحدث الواقع يحتم علينا ذِكر الحراك الشعبي الذي مثلته اتحادات القوى السياسية حيال قضية تعليق عمل البرلمان بشكل خاص، والحريات بشكل عام. الأمر الذي أدى إلى مواجهات شرسة بين مختلف الأحزاب ورجال الأمن. كان لطرفة انحيازه المعارض للممارسات الحكومية، مثل أغلب الآراء السائدة، لكن الجدالات والصراعات بلغت مبلغاً من الشدة، وتطورت كثيراً حتى أقصى نفسه عن أية نشاطات حزبية، واتخذ قراره لنفسه والمقربين من حوله: "سأعتزل العمل السياسي". وكان هذا الاعتزال شبيهاً بقرار توقفه عن الكتابة.

التفكير بجدوى الأفعال لا يعني التخلي عنها نهائياً.

قال والد بروين على الفور، ومن دون إبداء تحية: "قوات عسكرية تجتاح البلاد" لم يفهم طرفة، شعر أن مشكلة ما وقعت له، خرج إليه بدل أن يدعوه للدخول: "ماذا حلَّ بكم؟" لمَح أفراد أسرة بروين في سيارة والدها الذي أخذ يوضح: "الجنود العراقيون ينتشرون في البلاد!" حيرة طرفة، ملامحه الصارخة: "معقول!" لكنه لم يتفوه بحرف، فأضاف مُحدثه: "يفرغون العمارات الواقعة على الشريط الساحلي من قاطنيها" بدأ عقله يدرك الموقف، قال بعد ثوانٍ صامتة: "ادخلوا...". الساعة تشير إلى وقت مبكر من الصباح، ذهوله يشي بتساؤل منطقي: "متى جرى كلّ هذا؟" المباغتة لا تجسد مكر الآخر بقدر ما تبعث مشاعر الخيبة وانهيار عزوة العروبة. صعد بتثاقل إلى الطابق العلوي، كانت زوجته ما تزال تغط في نومها، طرق باب غرفتها بقصد إيقاظها: "أسرتك ينتظرونك في الأسفل". فزع الأخرى محمَّل بتساؤلاتها، ترك لوالدها مهمة شرح أسباب قدومهم في مثل هذا التوقيت، فيما راح يعاين الراديو يبحث بين

إذاعاته عن أنباء علّها تبدد شيئاً من هول الحدث: ”أيها الشعب الكويتي الأبي“ حواس طرفة تستنفر، صوت المذيع كما لو أنه يلهث وراء كلماته: ”حان وقت التضحية والفداء، دافع عن وطنك ووجودك...“ خطاب استنجاد عاجل موجه إلى الشعب: ”أشهر سلاحك في وجه الغزاة البرابرة“ الشعب كلمة تشير إلى صفة مدنية بالضرورة. تزاحُم الأخبار، طرفة لا يستعين عادة بالتلفاز. بعد دقائق رنَّ جرس هاتفه، الاتصال من أحد موظفي مؤسسته الخاصة بالمواد الغذائية، يحذره الخروج من منزله، ويخبره باضطراره إقفال مكتبهم. أخذ طرفة يفكر بوالده وإخوته وأبنائه. إسماعيل يقطن الآن في منطقة الأندلس، ليست من المناطق المجاورة لمنطقة بيان، غنيمة وأبناؤها ضمن دائرة المسؤولية. خرج مرة أخرى إلى الشارع، دون حيلة أو سبب، يحاول فهم شيء منطقيّ مما يجري، لاحظ أن أذنه لا تلتقط تخاطف السيارات في طريق الدائري الخامس القريب. لا معلومات يمكن استقاؤها من الخارج، عاد إلى الداخل، اتصال آخر، هذه المرة من ممثل عراقي مقيم في الكويت: ”ما رأيك بالمتغيرات؟“ الصوت المنتشي لا يقيم وزناً لفحوى السؤال، استُفزّ طرفة إثر المعنى المُبيت من اختيار الممثل للتحدث إليه بالذات في أولى ساعات الحدث، يحاول التماسك، يسايره بلهجة محايدة: ”متغيرات؟“ يصرّ الآخر يتابع: ”المتغيرات الطارئة اليوم على الساحة الكويتية“ دماء طرفة تتدافع إلى رأسه، بان هذا في رده: ”ما زلنا نراقب، لعلها حالة مؤقتة وتزول“ ندت عن الآخر ضحكة خافتة، أجاب كمن فهم موقف محدثه: ”طيب...“ ثم أقفل السماعة.

***

لا بد لهذا أن يكون كابوساً عابراً، أزمة مؤقتة. طرفة منفعل، مشتعل، بداخله تيار حارق من الأسئلة مجهولة الإجابات، ابنه بدر في حجر أمه، يفرك عينيه، يراقب والده الذي يذرع البيت من الصالة إلى المطبخ إلى النافذة، يقترب من الراديو، خطابات لا تُشبع فضوله، يتصل على بيت ابنه إسماعيل، لا رد، ابنته رقيّة، ذات النتيجة، بيت والده أسامة، لا مُجيب. قلقه يبلغ مبلغه، قرر في

لحظة حاسمة الخروج واستطلاع الأمر بنفسه، ذهب إلى غرفته ليحضر مفاتيح سيارته، في لحظة اقترابه من باب المنزل، فوجئ بابنته رقيّة تطرق الباب.

سؤال طرفة في عينيه: "ما الذي أخرجكِ من بيتك!؟" زوجها يعمل مضيفاً في الخطوط الجوية الكويتية، ربما، بل من المؤكد هو خارج البلاد، رقيّة فتاة عفوية حد السذاجة لكنها شجاعة وجريئة، قالت بأنها ذهبت إلى بيت أخيها، لم تجده فقررت القدوم إلى هنا، فكّر طرفة، ابنته تسكن في منطقة القادسية، ابنه في الأندلس، هو في بيان، لقد أخذت جولة مكوكية بين عدة مناطق في البلاد، عجباً لهذه الفتاة! ثم راحت تقول بأن الجنود يمارسون سطوة فجّة، نقاط سيطرة، وعرقلة للمرور في الشوارع الرئيسية، بعضهم اشتبك مع شباب كويتيين، رأتهم يطلقون الرصاص نحوهم، ربما قتلوا، ورأت في مكان آخر مجموعة تحرق شاحنة عسكرية. أوقفها طرفة عن مواصلة حديثها، أمرها: "ابقي مكانك..." ثم فكر قليلاً: "هاتي مفاتيح سيارتك" الاستغراب على محيّاها، تُسلمه مفاتيحها. ثم قال: "سأذهب إلى بيت أبي".

***

في السنتين الماضيتين، جرى في أوساط المقيمين المعارضين للسلطة العراقية، تداول أسماء على سبيل التحذير منها باعتبارها عيوناً للنظام في الكويت، يمارسون عملاً استخباراتياً، لم يكن الممثل إياه من بينها، ولكنه كان يتردد على أولئك الأشخاص بكثرة، مقرّباً منهم على نحو يثير التساؤل. الحذر، سمة توجسية ملازمة لمن يمارس أي فعل سياسي، نظامياً كان أم فوضوياً. طرفة في طريقه إلى منطقة الروضة حيث بيت والده، شاهَد في طريقه رتلاً عسكرياً يسير بتوافق، وباصاً متفحماً على منعطف، بدت نيرانه تتخامد. كان الشباب في منطقة الروضة يفككون اللوحات الإرشادية، أرقام قطع المنطقة وأسماء الشوارع، أثارته فطنتهم السريعة، التعامل مع العدو بهذه الآلية من قِبل أفراد مدنيين تنم عن مشاركة عسكريين على وعي بما يتوجب القيام به كي يحدّوا من تحقيق أهداف المحتل. لاحت كلمة المحتل في ذهن طرفة، أخذ

يعالجها ويقلّبها، صفة لفاعل الاحتلال، غريبة وطارئة على سمعه، هزّ رأسه، فكر بتوافد مفردات جديدة ربما ستكون مألوفة في قادم الأيام.

فوجئ طرفة بوجود سيارتي أخيه صالح وابنه إسماعيل خارج منزل والده، شعر ببعض الارتياح، لكنه ذُهل حين وجد كل إخوته، مجتمعين في ديوان والده. "ما هذا!" عيون البقية باتجاهه، يبادلونه الدهشة، غضب طرفة إزاء عدم تلقيه دعوة لهذا الاجتماع، عاتبهم بحدّة، فبرر أحدهم، قال: "لم نكن نرغب في إحراجك" العذر أقبح من الذنب، فَهمَ على نحو آخر، بصفته معارضاً حكومياً، ولأنه توقف عن تعاطي السياسة، ودَّ طرفة أن يهد المكان بمن فيه، الحالة الراهنة ليست مؤهلة لهذه الاعتبارات السخيفة، حاول آخر أن يقول، بصراحة، فكرنا بالدخول في صدام مسلح، ربما ستسخر من خطوتنا هذه. العائلة تشكل فرقة مقاومة، ابنه إسماعيل من ضمنهم، أخوه صالح بحكم عمله في سلك القضاء، لديه علاقات مقربة مع أفراد في السلطة، البقية، رباح، رامي، عدنان، مطر وصباح يجندون أنفسهم لأي مهامّ توكل إليهم. لم يستغرق وقتاً طويلاً، تركهم بسخطه وذهب إلى والده في غرفته، كان يستمع إلى الراديو وبجانبه وعاء صغير يحوي حبات تمر، اقترب منه وقبله في رأسه، ودون أن يتفوه بكلمة، قال أسامة: "هؤلاء إخوتك يخجلون من اللجوء إليك عند كل حادث، لكنهم يتوقون دائماً لنصائحك".

***

كانت سيارات البقية مركونة في أماكن متفرقة حول بيت الروضة حتى لا تثير أنظار الجنود.

في طريق عودته إلى البيت لاحظ آثار إطلاق نار على حوائط وزجاج نوافذ مركز شرطة المنطقة. أوقفته نقطة تفتيش عند مخرج طريق المغرب السريع، نَظَر إليه العسكري بتفحص، سأله عن وجهته، أجاب طرفة: "منطقة بيان..." كان الآخر ينظر إلى المقعد الخلفي الخاوي. تابع طرفة: "منزلي يقع في منطقة بيان" انتبه العسكري، ربما لهجة طرفة كانت سبباً في ذلك: "الأخ عراقي؟!" هزّ الأول رأسه نافياً: "كويتي..." لم يكتف الآخر، طلب أوراقه

الثبوتية، ثم أخذ يمعن في صورته حتى أعادها إليه: "الله وياك". استشعر طرفة أن النظام يشن حملة اعتقالات على المقيمين العراقيين، المعارضين على وجه التحديد.

حين وصل إلى بيته، كان في انتظاره صاحبه جواد، الهارب أصلاً من نظام صدام حسين. "حمداً لله" قالها في سرّه، وراح يعانقه ويضغط على ذراعه: "اسمك قد يكون ضمن المطلوبين، حاذر" أبرز جواد بطاقة ثبوتية من جيبه: "أصبحت كويتياً الآن" كانت بطاقة مزيفة عكفت مجموعة على تنفيذها منذ ساعات الاحتلال الأولى، بغرض حماية المطلوبين من الكويتيين وغيرهم، العسكريين، أبناء الأسرة الحاكمة وأصحاب المناصب. قال جواد: "جئتك بغرض إجراء مهمة أولى عاجلة" تطلع إليه صاحبه: "علينا جلب مخزوننا من المواد الغذائية، ما استطعنا، نقلها وحفظها في بيتك، أو أي مكان تقترحه". هز طرفة رأسه: "الكمية كبيرة، يجب توزيعها على بيوت الآخرين، مشاركة منهم وخدمة لهم". لم يتوان جواد، كان قد أحضر شاحنة تحميل كبيرة، برفقته أنسباؤه الذين عاونوه في تنفيذ مهمتهم. يسابقون العدو يتخذون تدابيرهم، احتمالية نقص في المواد الغذائية واردة.

حين دخل إلى بيته، وجد التلفاز يعمل على قناة الكويت الأولى التي تعرض، على نحو يثير السخط، مسرحية باي باي لندن. المحتل لا يفعل فعلاً اعتباطياً، تساءل طرفة عن شعور الفنان عبد الحسين عبد الرضا بطل المسرحية. في الأثناء، اتصل ابنه إسماعيل، يخبره أولاً على نحو آسف باستشهاد الشيخ فهد الأحمد في مواجهة مباشرة مع جنود عراقيين، تأثر طرفة إثر اعتزازه بشخصية الشيخ القوية، ثم أخذ يبرر فعل أعمامه قبل أن يغلق المكالمة، يرجوه أن يتجاوز عن الموضوع. إسماعيل ابنه، ربما ذكّره بشكل ما بإسماعيل آخر، كان قد اتصل يطمئن، وأخذ يقصّ لي ما حدث معه منذ بداية فجيعة اليوم.

***

يرى طرفة حادثة استشهاد الشيخ فهد الأحمد على نحو حالم، كما يرى الخلية والأجسام الدقيقة التي تشعُّ في تأملاته، مشهد تبادل إطلاق النار عند بوابة

قصر دسمان، دفاعاً عن الشرعية الكويتية، لم يكن يعرف أن أمير دولة الكويت قد غادر البلاد، بلغه الأمر عند اقترابه من القصر، أحد ضباط المواجهة طلب منه المغادرة، لكنه أصرّ على خوض الاشتباك. يتذكر طرفة، سبق وتطوع الشيخ في معركة تحرير الفاو إبان الحرب العراقية الإيرانية. على نحو مقيت، تدور دوائر الدنيا، وينال المقدام الكفء ما لا يستحقه.

عبارات اعتراضية تملأ الحوائط والأسوار، جنود الاحتلال يقتحمون المنازل لأي شبهة محتملة، الإعلام العراقي يلعب دوراً فاعلاً في تشتيت الرأي العام وتوجيه العالم لتأييده، يدَّعون أن ما يحدث ليس سوى ثورة داخلية كويتية قام النظام العراقي بنصرتها. يتذرعون بالحراك الشعبي المعارض للحكومة قبل سنتين، يضلعون الأحداث، يحولونها لصالحهم. يعلق طرفة لنفسه: "معارضة النظام في الكويت جزء من النظام ذاته" بودّه لو يُسمع إخوته تعليقه هذا. رغم الأحداث، يظل الظن السائد حتى اللحظة أن ما يجري أزمة عابرة، سرعان ما يبدده صدى إطلاق الرصاص من أماكن متفرقة بعيدة.

يختلي طرفة بنفسه ليلاً أمام باب منزله، يتصدر مجلس نخلاته، يتذكر زيارته بغداد عقب انتهاء الحرب نهاية العقد الماضي، ذهب للمشاركة في فعالية ثقافية ولقاء أصدقاء انقطعوا منذ زمن، ثم نال على إثرها درعاً وشهادة موقعة من الرئيس صدام حسين، يلتفت إلى بيته، وكأن شبح التكريم يطل عليه من العليّة. بعد بضعة أيام، اتصل صديق فلسطيني، ينقل له اعتزام فصائل من جاليتهم تنظيم فريق مقاومة، يبدون ردة فعل إزاء موقف منظمة التحرير. طلب منه طرفة، وعلى الفور، ترتيب لقاء مع هذه الجماعة. منذ صبيحة الفجيعة وهو يلف حول نفسه، يبحث عن فرصة إبداء ردة فعل حقيقية. تواردت أخبار وقتها عن قيام مظاهرة كويتية حاشدة تبيّن للعالم رفض الشعب للاحتلال وتأييدهم لحكّامهم. كذلك، تم تداول أخبار أخرى عن توالد مستمر لوحدات مقاومة في مناطق مختلفة.

بعد أيام أخرى تحقق اللقاء، جانب كويتي ممثل بطرفة وبصحبته جواد، جانب آخر ممثل بمجموعة فلسطينية، لحظتها، خطرت في باله فكرة: "الكويت الآن فلسطين أخرى". كان أحد قادتهم يؤكد على طرفة بضرورة استعجاله في

تشكيل جماعته الخاصة، يذكّره: "الاستشهاد وارد، الإصابة واردة، الاعتقال والتحقيق والتعذيب..". هذه مسائل ليست بعيدة عن حياة طرفة، رفع جواد يده آنذاك يبدي مداخلته: "أنا في خدمة المقاومة في كل أمر، إلا أن أرفع السلاح في وجه أبناء بلدي".

***

كل مرة، يقرر أحد ما الانتقال بسيارته من منطقة إلى أخرى، يكون بصدد الإقدام على مغامرة مجهولة المخاطر. إشاعات تشي بانسحاب الجيش العراقي من الكويت، طرفة وفق خبرته يقول: "خبث إعلام النظام البعثي ليس إلا..." المقاومة تثير قلق الغزاة. الكثرة والعتاد لا تمنح الشجاعة، الأسباب فقط، الدافع هو من يفعل ذلك. هاتفني طرفة: "بالأمس التقيت بجماعة فلسطينية..." حتى وصل إلى مبتغاه: "أعرض عليك الانضمام إلى..." تداخلتُ بكلامه: "أنا لك، من ذراعك اليمنى حتى اليسرى". صدرت عنه كلمة من وراء نحنحة: "بوركت". الكويتيون يتناقلون صحفاً سرية بقصد عرض وقائع ما يحدث فعلياً لناس الداخل، كفعل مقاومة للإعلام المزيّف، يحثّ الشعب على التماسك والصمود.

حضرتُ أول اجتماع مع طرفة وجواد وشخصين آخرين، الفريق لم يكتمل بعد، الأطراف الفلسطينية موجودة كذلك. الحوار الماثل يدور حول اختيار أفراد يحملون صفات خاصة قادرين على تلبية مهام الفصيل، كان قائدهم مفوهاً إذا قبض على كلماته يحررها بسلاسة وجديّة: "يجب أن تفهم عدوك، سلوكه وأفكاره، عدته وقدراته، كي تغنم سلاحك من بين يديه، تقتله بسكين من أجل بندقيته، تطلق عليه رصاصة مسدس من أجل سلب رشاشه. المقاومة تعني تَقبُّل الموت، عليك ألا تتعامل مع عدوك باعتباره ساذجاً أو غبياً، حتى لو دلت تصرفاته على ذلك".

طرفة منشغل بتأسيس حركة المقاومة الخاصة به، يجري اتصالات مشفرة ولقاءات سريّة متواصلة، استأذن منّا أن يسميها "وحدة أبو الفهود" تيمناً بالشيخ فهد الأحمد. في الوقت ذاته كان جواد وأنسباؤه يوزّعون المؤن

الغذائية على الناس وفق خطتهم الخاصة. لم يمض وقت طويل حتى بانت آثار الدمار على الشوارع والمباني، أكوام نفايات وكراتين فارغة، مقبرة سيارات عشوائية مسلوبة الإطارات والمحركات والأبواب والمرايات والإضاءات في وسط العاصمة، طمسوا أي دلالة على ملكية عامة للدولة، أي جملة تحوي اسم الكويت شطبوها بصباغ أسود، واجهة محال شارع فهد السالم مشرعة ومهشمة، يبدو جلياً تعرضها للسلب والنهب، مجمعات تجارية أخرى وعديدة كذلك. يعلق طرفة بعد أن وضع جنود الاحتلال أيديهم على مكتب عمله بسبب طبيعة موقعه المطل على البحر: "حولوا الجيش العراقي إلى عصابات ولصوص وقطاع طرق".

***

تذكر طرفة كلمات والده: "إخوتك يخجلون من اللجوء إليك، لكنهم يتوقون لسماع نصائحك".

يزورهم في الأسبوع مرتين، يراجع معهم ترتيبات فريقهم، يُبدي نصيحة أو تعليقاً حيال أي خطوة يرسمون لها. أسرّ لأخيه صالح عن اسم وحدته: "أبو الفهود" أعجبه الآخر، قال على ذكر ذلك: "رتبت موعداً مع أحد أفراد الأسرة الحاكمة". تناهى لخاطر طرفة: "الأسرة الحاكمة مستهدفة!" يوضح صالح بعد أن بدت الدهشة والفزع على وجه أخيه، يبرر ذلك بحاجتهم للتزود بالأسلحة، أحد الشيوخ مسؤول في أمن الدولة، يعرف ما لا يعرفه غيره، لديه معلومات كافية لتستفيد منه حركة مقاومتهم، الجنود العراقيون لا يعرفون المسؤولين من ملامحهم، الحذر شريعة العمل المقاوم بكل الأحوال. طرفة يقتنع بكلام أخيه إلى حد ما، رغم يقينه بأن دعوة مثل هذه ستعرض العائلة للخطر. يعكف بقية أخوته، أثناء حديثه مع أخيه صالح، على استحداث مخابئ سرية لإخفاء الأسلحة والمنشورات في حال واتتهم أخبار مداهمات قريبة، قال طرفة قبل أن يرحل: "اكتملت وحدتنا، ونزمع القيام بأولى مهامنا". خرج صالح مع طرفة إلى الحوش مقابل باب البيت، ثم سحب من جيبه مسدساً ووضعه في يد طرفة: "أعده إليّ إذا تحررت الكويت". عندما صعد إلى سيارته، أخرجه كي

يخفيه في جيب سرية بين المقعدين، نظر إليه ثوانيَ، كان مسدساً فاحم السواد بقبضة مصبوغة باللون الذهبي.

***

منطقة بيان، بيت طرفة، مقر إقامة وحدة أبو الفهود.

لديه ديوانية جانبية، داخل الحديقة بين النخيل، بابها متوارٍ معزول عن باقي البيت، إضافة إلى طبيعة وجود عائلة تمارس حياتها باعتياديتها، أمر يبدد الشكوك حول فرضية مزاولة عمل عسكري في الداخل. حتى اللحظة تشكلت المجموعة من أحد عشر فرداً كويتياً، أغلبهم من الشباب، أعمارهم ما بين العشرين وأوائل الثلاثينات. ذات يوم بينما كنّا نحاول رسم خطة لعملية أولى جاءنا أحد شباب الوحدة، يحمل معه بعض الأخبار: "عسكري عراقي غير بعيد عن موقعنا، أعلى أحد جسور الطرق السريعة، هناك" عدم استحضاره لاسم الشارع على وجه الخصوص، ينم عن حماسة وتوتر في آن: "العسكري يتسلح برشاش كلاشنكوف، يستوقف سيارات كويتية، يسلبها ممتلكاتها" واتتنا الفكرة جميعاً، وبشكل واضح، إشارة إلى أن خبر صاحبنا يدفعنا لأن تكون هذه هي مهمتنا الأولى. طرفة أخذ يستجوبه: "هل ذلك العسكري وحده؟" يقاطعه الشاب: "جماعته أسفل الجسر، هو أعلاه وحيداً" أخذ يسأله بتفصيل أكثر عن المكان المعني. الساعة الآن العاشرة مساءً، الغزاة يفرضون منع التجول في الأوقات المتأخرة من اليوم، لا يلتزم الناس بتنفيذه عادة، لكنْ الكويتيون عامة يتجنبون الخروج ليلاً. هذا الأمر الذي يجعل من طرفة يعجّل في حسم المسألة: "تعالوا نستطلع الوضع من بعيد" الأمور كما وضحها عضو المجموعة، العسكري بفعل واثق، يدير نقطة سيطرة وحده، ربما بسبب رغبته في السطو على أملاك المارة، الخطة لا تتمثل فقط في قتله، يتوجب رسم طريق عودة ملائم، متوارٍ، سريع، لا يتيح لمجموعته رصد الفاعل. الثقة أولاً، يُكتسب هذا بالممارسة، ثانية، خبرة إطلاق النار باتجاه عدو، اعتياد القتل بصيغة أصح. يسأل طرفة المجموعة: "من منكم يتبرع؟" يتقدم أحدهم، فيناوله طرفة مسدساً بحجم كف اليد تقريباً، يوكله بحسم المهمة. يطلب متبرعاً آخر، وجوب

وجود عنصر إضافي لأي طارئ، تقدمتُ أنا، أما طرفة فسيتولى قيادة السيارة وفق خط السير الذي رسم له.

الالتفاف من مسافة قصوى، يخيّل للهدف أننا قادمون من منطقة بعيدة، وكأننا لم نتوقع وجود نقطة سيطرة في مكان كهذا، السير بدون توتر أو تردد، بدون تراجع، العسكري يعرّض نفسه لأفراد المقاومة، نحن أو غيرنا، صيد سهل لن نفوت فرصة الظفر بمساهمة أولى في زعزعة جيش العدو. الهدف يقف وحده دون إسناد، يقيننا يتحقق أكثر، لا كمين محتمل، وفق عتمة الليل، وعتمة كبينة السيارة، الحذر واجب لكن الموقف الماثل يقول أن المخاطرة والتجربة واجبة كذلك، طرفة يؤهب صاحبنا: "جهز سلاحك...". نقترب أكثر، طرفة يدوس على الفرامل بشكل مفتعل عند محاذاة العسكري الذي يعلّق سلاحه على كتفه، اعتمادنا الكلّي على عنصر المباغتة، صاحبنا يُظهر ذراعه، يمدها بجرأة باتجاه وجه الآخر، فزعه، مفاجأته، الفوهة بين عينيه، الطلقة تنفلت باتجاه العسكري، يسقط الآخر من فوره، ينازع على الأرض، طرفة لا ينطلق، ينظر نحوي: "ماذا تفعل، اهرب" يرد بإصرار: "انزل خذ سلاحه..." لم أُبلّغ بهذا قبل تنفيذ... استجبت بآلية، دون إبداء اعتراض، الوقت، يجب ألا نستهلك وقتاً إضافياً. وضعتُ قدمي على الأرض، لم أشعر بها، كانت خدرة، سحبت السلاح بقوة، أحسست أن أحدهم يوجه أنظاره نحوي، كررت الفعل، سحبته مرة واثنتين وثلاثاً حتى خرج من ذراعه، جسدي ارتمى داخل السيارة، انطلقنا وإحدى ساقيَّ ما زالت في الخارج.

***

مهمة أولى.

من موقعي في المقعد الخلفي، استطعت رصد رعدة في ركبة طرفة التي بالكاد تضغط على دواسة البنزين. صمت يعمّنا، تركيزنا منصب على الوصول إلى مقرّنا، أتلفتُ من ورائي، لا أحد، أطمئنهم: "لا أحد وراءنا" لا أحد يرد. وجه العسكري المهشم، رأيته بوضوح، الطلقة تفجرت بين عينيه، رأسه يتدلى كلّما سحبت السلاح، منظره مقزز، مشوه، عسانا نصل دون لفت انتباه. تفوّه زميلنا وكأنه يتحدث إلى نفسه: "لا أظنني سأرقد الليلة" يقينه بتوفر فرصة سانحة للنوم، رغم عدم بلوغنا المقر بعد. طرفة يعطي أمراً حاسماً: "سنوقف السيارة في مكان بعيد... ونفض تجمعنا تدريجياً الليلة".

***

استنفار عام. علمنا فيما بعد أن العسكري رجل استخبارات.

أفلتنا، وما تأكدنا من ذلك إلا بعد مرور يومين على الأقل. كان طرفة قد اعتاد النوم في الديوانية، دهمته بعد تلك الليلة منامات خانقة يهيمن عليها خطر ماحق. أيام أخرى، عادت الوحدة إلى عملها من جديد، بدأت تخطط لتنفيذ مهمة ثانية وثالثة، تتقفى أخبار العدو، تلاحق خطواته تراقبه تتنبأ بما ينوي فعله. عيون المقاومة أوسع من المحتل، يسع أفرادها تمييز المعتاد من الدخيل. أخذت وحدة أبو الفهود تضع علامات في الحديقة خارج الديوانية، لأماكن إخفاء داخل الأرض وفي أجواف النخيل، الأسلحة والنقود والخطابات، لا شيء على سطح المكان سوى كراسي خشبية وطاولات عليها أقداح الشاي والقهوة وورق اللعب. الاحتراز شريعة المقاومين. تتوالى الأيام، الزمن جسد مبتور الأطراف يزحف على صدره. طرفة منذ بدء الاحتلال، لم يفطن إلى مسألة جوهرية، فجيعة أولى من نوعها، بلد عربي يحتل بلداً عربياً آخر، الغزاة نظام مُجرم يقوده رئيس ديكتاتور، هذا رأيه منذ الحرب العراقية الإيرانية، الحادثة على مرأى العالم، العراق تحتل الكويت، طرفة يشعر برعشة في جسده، وطنه يرتكب جريمة في بلده، هو نصف من كلا الطرفين، مشاعر قميئة اختلجت جسده لحظتها، الأكثر بؤساً هو نجاحه في كتمانها، يقول لنفسه: "الآن، أشعر أنني كويتي أكثر من أي وقت مضى".

أخبره صالح أن الشيوخ حذروه من إبقاء مقر وحدتهم في منطقة الروضة، يقال إنهم عثروا على جثث لثلاثة جنود مُلقَين في مدرسة تتوسط المنطقة، بعد يومين من الحادثة قامت القوات العراقية بقصف ستة بيوت مجاورة للمدرسة بقذائف آر بي جي أمهلوا أصحابها خمس دقائق لإخلائها. تم تطويق المنطقة فيما بعد، زادت نقاط السيطرة والتفتيش، مداهمات عشوائية للمنازل. أبناء أسامة أخلوا مقرهم من أية ممنوعات، ومن دون نقاش قرر طرفة في اجتماع عائلي أن تندمج الوحدتان في مقر واحد، بيته في منطقة بيان.

كانت البلد تعيش حالة انقطاعات متكررة للكهرباء، سمعنا أخباراً حول احتمالية توقف محطات تحلية المياه أو ربما تدميرها، الناس بدأت توفر مخزوناً وافراً من مياه الشرب، وتصنع الثلج لحفظ المواد الغذائية عند انقطاع

التيار، البعض أصبح يربي الدجاج والماعز ويزرع ما يمكن زراعته تحسباً للمستقبل، البلد تعود بالزمن ستة عقود على الأقل. جواد يصارح طرفة: "لو انتهى الاحتلال، من سيعوضك قيمة بضاعتك؟" يهز رأسه الآخر: "يحلها رب العالمين". بلَغ وحدة أبو الفهود أنباء إزاء محاولة النظام العراقي توطين شعبه في الكويت، سيارات أجرة كثيرة آتية من الحدود البرية تحمل معها مدنيين عراقيين، تترصدهم المقاومة تتابعهم، يقررون القيام بعمليات تستهدف سيارات الأجرة نفسها: "رأس مال السائق مركبته" إحراقها تكسيرها. ينجحون في تنفيذها دون عراقيل، يكتشفون مع مرور الأيام أن بعضاً من أصحابها عناصر عسكرية متقاعدة.

***

رغم مرور ثلاثة شهور تقريباً على حادثة العملية الأولى، فإنني أتذكرها بين وقت وآخر، تخطر في الذاكرة أو تدهم مناماً. أرى العسكري وقد وضع يده على سلاحه حين أشهر صاحبنا مسدسه بين عينيه، لكن، لا زمن يفصل بين الفعل والإدراك. طرفة أعلنها بعد أسبوعين من الحادثة: "لن أطلق الرصاص، سلاحي هذا وذاك" وكان يشير إلى رأسه أولاً والقلم على مسافة منه.

الجنود عند نقاط السيطرة متفاوتون، بعضهم يتعسف في استخدام صلاحياته، الإنسان إذا منحته سلطة فجائية قد يتحول إلى وحش مجنون. البعض الآخر يقف موقف الحياد، تعرف من تعامله رأيه في الاحتلال، أتذكر ذات مرة اعتذر لنا جندي بعد أن ألقى نظرة داخل السيارة، لا مبرر لاعتذاره سوى رفضه لفعل النظام. من جانب آخر أصبح الممثل العراقي جزءاً يستخدمه العدو إعلامياً، يظهر على الشاشة أحياناً يلقي خطابات، يدل الجنود على بيوت الفنانين والإعلاميين الكويتيين. الممثل على رادار المقاومة، أصبح من المؤكد أنه لا يفعل فعله بالإكراه. الكويت لن تكون أرضاً آمنة للغزاة، تخطيطات مستمرة لردع أفعال تتسم في ظاهرها أو باطنها بالتعاون مع المحتل، طرفة يطوّر يوماً بعد آخر من آلية نظام عمله، يعيد ترتيب صفوف جماعته، في المقابل، النظام العراقي يكثّف من عملياته الباطشة، يصعّب من

تحركاتنا، يقوم بجملة اعتقالات عشوائية، لم يسلم طرفة من أحدها، كانت عبر نقطة تفتيش برفقته أحد أفراد الوحدة، الجنود كانوا يفتشون السيارات بدقة، عثروا بطريقة ما على غلاف رصاصة تحت مقعد السائق، على الفور اقتيدا إلى أقرب مركز شرطة.

كان جواد، مع تقادم أيام الاحتلال، قد وطد علاقته مع ضابط ينتمي إلى مسقط رأسه في العراق، تربطهما علاقة مصاهرة، اعترف له بانتسابه إلى حزب البعث شكلياً كي يذر الرماد في عيون السلطة، لم يكن جواد يسلّم له تمام التسليم، علاقتهما بالأساس تبادل منفعة، خدمات لها مقابل. كان له الدور الأكبر في هذه الحادثة بعد أيام من التحقيقات المتواصلة مع طرفة وصاحبه، تعذيب متدرج حتى ينتزعوا منهما اعترافات، كاد أحدهما أن يضحي للآخر يتحمل مسؤولية الخطأ، هكذا كانت الخطة لولا تدخل صديق جواد الذي توسط وأفرج عنهما بطريقته.

***

التمت بروين على طرفة بعد عودته من الاعتقال.

لم تكن أسرتها تعرف بأمر انفصالهما آنذاك، جميع من في المنزل يظن أنهما ما زالا متزوجين، لولا ظرف الاحتلال لكانا يقضيان في غرفة واحدة. يزداد طرفة ضموراً على عوده النحيل، عظام وجهه بدت بارزة وكأنها على وشك أن تشق وجنتيه. يقول في اجتماع أول بعد حبسه: "رغم كل ما فعلوه بنا، شعرتُ في لحظة أن المحقق ضعيف لا يملك من أمره شيئاً" كان يحاول أن يمدنا بالقوة، أعرفه، يجيد استخدام الكلمات، كما يجيد تجسيد الأدوار. يتماهى مجدداً في القيام بواجباته، يبدأ في تنسيق عمليات جديدة بالتعاون مع الجماعة الفلسطينية، بعض المهام تشترك فيها أكثر من وحدة مقاومة. بالنسبة إلى أبي الفهود، فقد توَزَع أفرادها على مناطق محددة، تتفرع منها مجموعات صغيرة تضع خططها من تلقاء نفسها، تركز على منطقتها، تستقي أخبارها وتراقب أوضاعها. المقاومة أجناس متجانسة من الأطياف، كل الفئات المقيمة على الكويت، سواء يحمل جنسيتها أو لا.

تتداعى لطرفة ذكرياته حين يستمع إلى الراديو: "نذيع عليكم بياناً هاماً صادراً من مجلس قيادة... هنا بغداد عاصمة الثورة... وليخسأ الخاسئون". تهبط صور القرى، الأنهار، الفضاءات الخضراء التي توغل في الأفق، أول مرة يركب قطاراً، أول مرة يدخل مكتبة، أول مرة يشاهد فيلماً في السينما، أول بيت شعر حاول كتابته، أول نخلة يزرعها، أول مسيرة احتجاج، أول لكمة في زنزانة. في وقت ما، نسي تماماً أنه وُلد وتعلم وعاش في العراق. يعود إلى واقعه، هنا، الكويتيون يحتجون يرفضون بشتى الطرق، يصعدون إلى الأسطح ليلاً، يكبّرون بتواصل في ظلمة السماء، الله أكبر، صوت جماعي يربك العساكر، يوماً بعد آخر يبدأ هذا الفعل البسيط باستفزازهم، حملة اعتقالات عشوائية جديدة.

الكويت، تعيش حالة انقطاع تام عن العالم.

***

المقاومة آخذة في التنامي، والضراوة.

رداً على الأفعال الفاجرة، إحدى وحدات المقاومة تقصف بسلاح آر بي جي شاحنة عسكرية محملة بقذائف صاروخية، على مرأى الشهود، حدث انفجار هائل، بالتزامن مع ذلك، جرت ترتيبات لقصف طائرة خدمات عراقية تحط يومياً في الكويت، يقول طرفة إن المقاومة نجحت في إصابتها لحظة إقلاعها عائدة إلى العراق، ثم سقطت في منطقة صحراوية، جواد يخالفه الرأي، حسب معلوماته أن القذيفة جانبتها، وإلا كنّا قد سمعنا أخبارها على نطاق واسع. الفعل بحد ذاته، سواء حقق هدفه أو فشل، يعتبر ضربة قاسية في صدر الغزاة. عمليات تعذيب المعتقلين تزداد سوءاً، وصلت إلى حد القتل ولو كان الغرض انتزاع معلومة، عديد المعتقلين جرى إعدامهم أمام بيوتهم، على مرأى من أسرهم. الاستخبارات العراقية نجحت باختراق بعض وحدات المقاومة، تتناقل المعلومات وتحبط العمليات قبل تنفيذها، مع مرور الوقت أصبحت وحدات المقاومة تتعامل بحذر بعضها مع بعض، تفشت حالة من الشك، هذا الأمر يؤدي بالضرورة إلى إجراءات احترازية جديدة ومراوغات مستمرة.

يتطلب منّا الهدوء، والتوقف عن استخدام السلاح أحياناً، التوجه إلى تولّي شؤون الرعايا اليومية، توفير الاحتياجات والماديات، تناقل الأخبار والرسائل، المقاومة تقوم مقام الحكومة في الداخل، جواد يخبر طرفة بقرب نفاد موادهم الغذائية.

صالح ينقل إلى الشيوخ ما استغله أخوه من مخزون بضائع مؤسستهم، قيمة بضائعهم السوقية عالية جداً، يتعهد أحدهم بتعويضه حال عودة البلاد، الإيمان بانتهاء الأزمة، الوقوف إلى جانب الاحتلال رهان على حصان خاسر. فرض حصار دولي على العراق، محاولات مستمرة للضغط على النظام مؤشر إلى حل وشيك.

***

توالي الأيام، توالي الأخبار، توالي وابل من الأحداث.

مقاومة أبي الفهود تعتمد في عملياتها القادمة على تفخيخ السيارات وتفجيرها حول تجمعات عسكرية مرصودة ومدروسة بعناية. إخوة طرفة يشاركون في تنفيذ الخطط مباشرة، رباح، رامي، عدنان، مطر، صباح. صالح يختار الأهداف ويحدد وقت تنفيذها، طرفة من جهته يشرف وينسق مهام أفراد الوحدة. كان رامي يعرف كيف يصنع عجينة متفجرة لكونه مهندساً ميكانيكياً. كانت أول عملية عند نقطة سيطرة بين منطقتي اليرموك والخالدية، استخدمت الوحدة مركبة نقل بترول لضمان نجاح الانفجار، أوقفوها في منطقة رملية بالقرب من رصيف نقطة السيطرة التي تمارس عملها مساءً، وقاموا بتغطية الجزء الخلفي الخاص بخزان البترول، بدت وكأنها مسروقة أو مهملة. عندما حانت اللحظة، انفجار كبير أضاء الليل أودى بكل جنود وضباط السيطرة. النجاح يؤدي إلى الجرأة والتكرار، الإقدام، اللجوء إلى الخدعة أكثر فاعلية من المواجهة المباشرة، نشطت المجموعات في تنفيذ عمليات أخرى، وجوب ترك مدة زمنية بين مهمة وأخرى، تغيير أماكن الأهداف على نحو يباغت العدو. بعضها ألغي بسبب توافد أفراد مدنيين في المنطقة، بعضها الآخر فشل لأن العجينة لم تعمل، وبعد عملية تفجير في منطقة ركاب خاصة بنقل العسكر

إلى البصرة، حدد صالح وطرفة هدفاً أخيراً، في مهمة يتولى تنفيذها أخوهما عدنان، تعتمد على قيادته للسيارة المفخخة بسرعة تسمح له القفز منها، على أن تكون هناك سيارة أخرى بالقرب منه، تقله وتهرب به سريعاً قبل لحظة من الانفجار. ما جرى يومها، وقبل اللحظة الحاسمة، أن تماساً كهربائياً أدى إلى خروج دخان من جانبي غطاء الماكينة، أربك عدنان، لم يكن على مسافة قريبة من الهدف، لكن تكاثف الدخان أدى إلى لفت أنظار العساكر، اضطر أن يتوقف ويهرب، أصبح على مرأى من العدو، اضطر الآخر أن يغادر موقع المهمة، أصبح عدنان مطارداً، مرصوداً، لم يستغرق في مراوغتهم وقتاً حتى أصبح في قبضتهم!

***

لا أخبار حول عدنان.

لم يتمكن صاحب جواد، ولا أية طريقة من استقاء معلومة واحدة حول مصيره. بدا طرفة شاحباً، يشعر بالمسؤولية الكاملة حيال مصير أخيه، لكن لا مناص من المواصلة، القتال، العمل بإصرار. كان طرفة قد توقف عن القراءة والكتابة كليّاً منذ بدء الاحتلال، تحوّلت أفكاره من رؤى تأملية شاملة، إلى عقلية عسكرية نضالية. مضى أكثر من خمسة شهور، شهرٌ مرَّ على غياب عدنان، بلغتنا أخبار تشي باقتياده مع بقية الأسرى إلى سجون العراق، لم يكن الخبر مؤكداً بعد، الأنباء الصادرة عن الإذاعات العالمية تفضي بتضافر قوات التحالف لبدء التدخل العسكري، النظام العراقي يراوغ، لا يلتزم بمواثيق وغير واضح، كل المؤتمرات التي عقدت خلصت نتائجها وتفاصيلها لمصلحة الكويت، الأمير وولي العهد، وكل القيادة في الطائف، مارست دوراً كبيراً في إقناع دول العالم بوجوب الوقوف مع حق استرداد أراضينا، الشيوخ في الداخل ينقلون الأخبار بالتبادل، ممارسات العدو، احتياجات المواطنين، جهود المقاومين وتباشير بقرب الحرب الجوية.

***

يناير ١٩٩١

قوات التحالف تقصف مواقع تجمعات العدو وقواعده الدفاعية. الخطة، كما تبيَّن لنا، تتمحور حول إرهاق الجيش العراقي، قطع خطوط الاتصال والتموين، التسبب في حالة من الفوضى لدى مراكز قيادتهم، حتى يتاح لعناصرهم الهروب والاستسلام.

الإذاعة الكويتية الخارجية: "الله أكبر، الله أكبر، والحمد لله، أيها الكويتيون الصامدون على ثرى الكويت، لقد آن يوم الانتقام من طاغية بغداد، إن دماء شهدائنا لم تذهب هباء...".

صدام حسين يظهر في خطاب مسجل: "إن قصفهم الجوي المجرم لن يخيف العراق، ولن يفتَّ في عضد أبنائه الميامين، أو يجعلهم يستسلمون راكعين...".

مواصلة وحدات المقاومة عملها، فقدان الموارد الغذائية الأساسية، المياه الصالحة للشرب، الأدوية اللازمة، توفير الملاجئ الكافية لحفظ الأمن العام إثر القصف المتواصل، احتمالية واردة بإصابة أهداف مدنية عن طريق الخطأ، الاعتقالات العشوائية تنشط مجدداً، الناس تحاذر مواجهة الجنود، الكل معرض للاعتقال والأَسْر، القوات العراقية تصاب بالجنون، تفقد اتزانها، أيقنت أنها مهزومة لا محالة، الإعلام العراقي يحاول تضليل الرأي العام، يُظهر معتقلين من جنود قوات التحالف، يدعي إسقاط عدد من الطائرات، فعل يتكرر باختلاف الزمان والمكان.

القيادة في الطائف، ومن خلال شيوخ الداخل، طلبت من المقاومة كتابة بيان تحرير دولة الكويت، وبثه عبر الوسائل المتاحة، بوساطة الإذاعة الداخلية السرية، أو من خلال تناقله بين وحدات المقاومة والمواطنين، وكان لطرفة أن يتصدى لهذه المهمة التي ذيّل آخرها باسم "أبو الفهود".

***

الجيش العراقي لحظة انسحابه أشعل النيران في آبار النفط الكويتية.

سماء الكويت سوداء طافية وقت تعامد أشعة الشمس على أراضيها. يقال، رُصد أكثر من سبعمئة بئر مدمرة. سُحب دخانية ملوثة محملة بالغازات السامة، بالتبعية تلوثت مياه البحر، انعدام البيئة الفطرية، موت الحيوانات على اليابسة وفي الأعماق. الليل طغى على البلاد ستة شهور، وصلت الغيوم السوداء إلى الدول المجاورة، تدريجياً وبجهود فرق الإطفاء، أخيراً هبط النهار، وأشرقت البلاد.

كل الأخبار الآتية مبعث آمال، إلّا عدنان.

٢٣

يناير، عام ٢٠١٧

مساء إحدى ليالي الجمعة، شعّ هاتفي باسم صحافية القسم الثقافي في جريدة القبس: "سمعتُ إشاعات حول بلوغ رواية طرفة المرحلة النهائية من الجائزة". سؤال مباغت سارّ: "يا ليت..." لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يجري، لكن بمجرد إشارتها إلى الخبر أيقنت أن الأمر قد حدث بالفعل. أظنها تحاول العبث معي حتى تحصل على تأكيد أو غطاء يمكّنها من نشر المعلومة.

كنت قد صارحت طرفة بعد مرحلة الجائزة الأولى: "رواية طائر السجون أكثر أهمية وجمالاً منها..." كان حديثاً متهكماً يحمل تساؤلات إثر مشاركة الروايتين في الجائزة نفسها، تفصل الواحدة عن الأخرى مدة زمنية لا تتجاوز ثلاث سنوات تقريباً. يردّ طرفة بابتسامة تضمر موافقة مبطنة: "المهم أن إحداهما وصلت". بعد يومين تقريباً تأكّد الخبر، دار فيستا تحمل روايتنا لبلوغ الجائزة الأكثر شهرة عربيّاً. ست روايات تصل إلى هذه المرحلة، وسأسافر مع طرفة إلى أبو ظبي حيث حفل إعلان الفائز.

***

توالت اللقاءات الإذاعية والتلفزيونية، لكنه لم يكن يلبيها.

يَشترط، بلا تنازل، أن تُجرى الحوارات في مكتبه، أو أي مكان يخصُّه، اعترتني رغبة في معرفة سبب ذلك: "وأنا في هذه السن! لا يناسبني التنقل من قناة إلى أستوديو" لم يكن في مزاج جيّد آنذاك، باله مشغول ويستغرق بضع دقائق حتى يفضي بجملة واحدة، لكنه مُحق، رجل بأهميته الأدبية، تقديراً لمكانته عليهم أن... ثم استجاب أحد مذيعي البرامج المسائية وأتى بطاقمه إلى مكتب طرفة وأجرى لقاءً عامّاً ثم تطرق إلى حيثيات الجائزة. أتذكر أنه رشّح رواية أخرى للفوز حين سُئل عن الأعمال الأخرى المُنتخبة رفقة السيبة،

فوجئ المذيع من ردّه: "أستاذ طرفة أنت تجامل أم..." لم يكن يبدي آراء إيجابية حيال نصوص أدبية من قبيل المجاملة. ورغم الأجواء الجميلة التي أحاطت به فإنه لم يستمتع بأيّ من تفاصيلها، كان شارداً أغلب الوقت، تشغله مسائل أخرى، علمتُ فيما بعد أن شركته تواجه مشكلات مادية، لم يطلعني على أسبابها، ولم يكن يرغب في التحدث عنها، كل ما كنت أعرفه أن موظفة أخلّت ببند متعلق بعقد مع إحدى شركات الطيران، أدى ذلك إلى إلزام مؤسسته بتعويض الطرف الآخر مبلغاً ماليّاً كبيراً من جراء الشرط الجزائي المبرم بينهما.

كان طرفة، ومنذ سنوات، يدّخر مبلغاً يؤمن له الانتقال إلى إندونيسيا، حسب خطته حين يبلغ الثمانين، وبسبب ما حدث مؤخراً اضطر إلى إنفاقه كاملاً للتخلص من ورطته. لا بد لهذا أن يتسبب في إحباطه، رغم اعتياده مكابدة الخسائر، المالية والنفسية، ومنذ طفولته، فإن مشاعر من الخيبة تعتريه، وكأنه ينظر إلى الفرج خلف خط النهاية.

***

قبل سنتين، تعرَّض لإنفلونزا شديدة أرقدته أياماً، لم تكن حرارته تنخفض، عارض غريب ساقه إلى طبيب غير الذي يعرفه، لا خيارات متاحة، طرفة في السبعينيات من العمر، جسده نحيل لا يقاوم بجسارة. كان برفقته ابنه إسماعيل. حارَ الطبيب من أمره، حاول أن يستغيث بخبرته، لا استجابة، ربما بدأ ممارسة مهنته منذ سنتين أو ثلاث، اعترته مخاوفه، المسلك الأمثل أو الأسهل لإنقاذ حالة مركّبة، الاستعانة بجرعة مكثفة من المضاد الحيوي. قال مرافقه: "لو تستشيرون طبيبه المعتاد، هو أدرى بتاريخه المرضي؟" لكنه في إجازة، لا سبيل آخر، إذن لا اعتراض.

من آثار المضاد الحيوي الجانبية، على رَجل في سنّ طرفة، تآكل وتر أخيل في مؤخرة كعب القدم.

قلتُ: "وماذا ستفعل الآن؟" يجيب بتسليم: "لا حول ولا قوة إلا بالله" هافت عنه تنهيدة محبطة، شعرتُ بضيق حياله: "عليك مقاضاة الطبيب" هزّ رأسه:

”لن أفعل“ كان قد تلقى هذا المقترح من سبعة أشخاص غيري. ”استشرت دكتور عظام موثوق رشّحه لي... العلاج سيستغرق مدة طويلة، قد تتجاوز العام، حسب استجابة الجسم“ وبعد أسبوعين، عندما زرته في مكتبه كان يضع دعامة كبيرة لإحدى ساقيه، ويتكئ على عكازين: ”حين تتعافى الأولى، نبدأ علاج الأخرى“.

***

حياته سلسلة من سوء الحظ المتواصل.

هذه مبالغة، ربما ليس إلى هذا الحد، لكن مشاعر آسفة تتعاظم باتجاهه، لقد أمضى سنتين من دعامة إلى جبيرة إلى عكاز حتى شفيَ تماماً من خطأ طبي أركبه معاناة لا يحتملها شاب في عمري. لا بأس، أمامنا فرصة مواتية قد تزيّن الأيام المقبلة. أرجوك طرفة انفض حالة الأسى، عد إلى واقعك. الجائزة قد تكون عوضاً مادياً ونفسياً. يقول لي أحدهم إنه في زمن ما رُشّح للفوز بجائزة مماثلة لما آلت إليها روايتنا، وكان قد اختير فائزاً لكنه تنازل عنها آنذاك لأن منافسه روائي مخضرم يكابد معاناة مالية، وحالته أجدر بتلك الفسحة. تدور الأيام يا طرفة وما فعلته سيعود إليك.

***

أبريل، عام ٢٠١٧

وقت إعلان القائمة النهائية للجائزة، كان طرفة يجري عملية زراعة شعر استنزفت منه يوماً كاملاً.

ما انفكت الرسائل والاتصالات تنهال على هاتفه دون علم منه. وبعد انقضاء اليوم كان مرهقاً نعساً على معدة فارغة وشفتين جافّتين، لم يتناول شيئاً منذ دخوله غرفة العمليات أول اليوم حتى طوى الطبيب أدواته في المساء. ازدرد طعامه على عجلة فور وصوله شقته وارتمى فوق السرير.

كان هاتفه يتلقى الاتصالات والرسائل بلا توقف حتى اليوم التالي. نظر إلى الشاشة بإمعان ودهشة، بعد دقيقة استوعب أن رواية "السيبة" نجحت في بلوغ الخطوة قبل الأخيرة، ابتسم، لكنه لم يستطع أن يجيب كل هذه التبريكات. لم يبرحه صداع عملية البارحة، وشعور طفيف بالوخز في مقدمة رأسه المحاط بشاش ورباط ضاغط، كانت تجربة سيئة على رجل كبير في مثل سنّه، لكنه سيجريها بكل الأحوال ولو عاد به الزمن، لقد بلغ تساقط شعره مبلغاً سيئاً حتى أصبح بين وقت وآخر يمرر أصابعه في رأسه يشد بعض شعراته بلطف يتفقدها إذا ما أصبحت ضعيفة إلى حد يمكن اقتلاعها من جذورها بهذا الفعل. لم أقل له: "لست بحاجة لأن تؤذي نفسك هكذا، الجميع يعرف أنك تجاوزت السبعين" لكنه يقول ويؤكد لنفسه: "لن أصبح كهلاً". ما زال بمقدوره أن يوقع الفتيات في سِحره.

بعد عشرة أيام، أزالوا عن رأسه الشاش والرباط وأطل رأسه المحمر المرقط بحبيبات من بصيلات الشَّعْر، ومنذ ذلك اليوم صار يعتمر قبعة قماشية مسطحة، مَنحتهُ زهواً خاصاً، حتى بعد أن تنامت ناصيته وعاد به الزمن نحو عشرين سنة على الأقل. هكذا ظهر في حفل أبو ظبي، بردائه الرمادي المعهود، القميص والبنطال والقبعة، فقط ألقى على كتفه جاكيتاً غامقاً كي يمنحه حضوراً مغايراً في مناسبة خاصة. جلست خلفه بعد أن التقطنا صوراً قبالة المسرح، كان الروائيون يجلسون متجاورين في المقدمة ومن خلفهم يجلس الناشرون. وبعد ديباجة طويلة تضمنت أفلاماً متعلقة بكل رواية، ظهر طرفة في المقطع الذي يخصه جالساً بين حشائش طويلة ويسير بالقرب من نافذة خشبية مسيّجة باعتبارها مشاهد من السيبة التي جسّدها في روايته، لكن الفيلم قد صوّر في مدينة الكويت بالقرب من المتحف الوطني.

انتبهتُ أن ساقي اليمنى ترتعد دون سيطرة، على عكس طرفة الذي بدا مرتاحاً يتحدث إلى زميليه اللذين يجاورانه. بدأت تتسرب إليّ افتراضات سيئة متعلقة فيما لو خسر الجائزة، خشيت عليه، وخشيت ألا أحسن التصرف مع مشاعر مضاعفة من الإحباط، سيضمرها لا محالة. كانت رئيسة لجنة التحكيم قد اعتلت المسرح كي تلقي البيان الختامي قبل إعلان الفائز. اقتربتْ يدي

نحو كتفه، كدت أضعها عليه لكنني تراجعت. خطف في مخيلتي سيناريوان مختلفان للحالتين. قالت رئيسة لجنة التحكيم إنها ستكشف عن الفائز بطريقة مغايرة، ثم رفعت كتاباً مغطى بقماش أسود: "الرواية المتوَّجة خلف هذا الستار" ثم سحبته بقوة.

***

يقول طرفة إنه شاهَد الخلية في إحدى جلسات التأمل، ويدعي أن باستطاعته التآلف مع طاقة المكان، ويتنبأ بالأحداث السياسية الإقليمية، ويعرف الكاتب الجيّد الذي سيكون له شأنه في المستقبل، ويشير إلى الرواية الفائزة في لقاء تلفزيوني!

لم أبدِ تعليقاً، تمسكت بالصمت وتتبعته بعينيّ، كان أول من اعتلى المنصة، وصافح الفائز بابتسامة عريضة، وربت على ظهره وتحدث إليه بفرح غامر. عنّت لي خاطرة لحظتها، إن ما يجعل من طرفة أن يكون طرفة هو صلابته لحظة تكالب الدنيا عليه. كنتُ حزيناً وانتظرته عند بوابة الخروج، التقفته بعد وقت مع اثنين من مناصريه القرّاء، كان منزعجاً من كاتبة بلغت معهم المرحلة النهائية لأنها توارت ورفضت تهنئة الفائز. أخذته مع مرافقيّ وخرجنا من باب جانبيّ يقودنا إلى حديقة خارجية يركن في جزء منها مطعم مطلٌّ على لسان الخور المائي. لم يطلب أيّنا طبق عشاء، اكتفينا بقائمة المشروبات وتحدثنا بانتقاد حول تنظيم الحفل وأبدى أحدنا سخطه حيال الرواية الفائزة. لم يعلق طرفة، طلب منّا جميعاً أن نتجاوز الأمر ونغيّر الموضوع، ثم ساد صمت نحو عشر ثوان، فأخذ يقول: "ابني إسماعيل أرسل لي نكتة أثناء الحفل، قرأتها وما استطعت الضحك في الأثناء، دعوني أقرؤها لكم...".

٢٤

لم يشهد الخال الهلالي أحداث الاحتلال العراقي دون أن تحرّكه نخوة.

سعى، منذ اليوم الأول للوصول إلى طرفة وتقفي أخباره، حاول الاتصال به، وتعقب أشخاص لهم صلة بآخرين في الكويت، لا نتيجة تُذكر، كلاهما في بُعد مختلف عن الآخر. لم يكن بيده سوى أن ينغمس في كتابة ملحمة شعرية على لسان صديقه. كيف يرقد وماذا يهرف ولمن يُفرغ؟ تحوّلتْ فيما بعد إلى أوبريت غنائي شجي جسّده فنانون كويتيون مقيمون في مصر، كان أمله أن تصل رسائله بأي سبيل في ظل سطوة هذه الظروف الوعثة.

لم يخرج طرفة مع الناس يوم التحرير، ولم يذهب ليُقلّد بأوسمة التكريم إثر أدواره في جهاز المقاومة. لبث في بيته وحيداً، يعاين ذاته، ويعيد حساباته، ويتساءل: "أفرح لمن وأحزن على من؟" كان واثقاً بأنّ هذا اليوم آت مجرجراً معه الويلات، يطرحه في ثقب الفراغ، يدفعه لمواجهة المرآة، يزدرد ذاته ويمضي، وكأنه العدم، ماضٍ مسحوق ولا مستقبل مأمول. قضى الأيام بعدئذ بالقرب من والده الذي لم يبرح نخلته وسط الحوش في كل الظروف. القيظ والصقيع والعتمة والبريق والصحو والعصف، كما في الاحتلال والتحرير. كانا يقضيان وقتهما بأقل قدر من الحديث، يداري طرفة حيوانات أسامة التي جلبتها له رقيّة منذ وقت، حمامهُ ودجاجه وأرانبه وسلاحفه التي تجول من حوله. يصفن العجوز في ذكرياته، يهرش ذراعيه ويمسح بإبهامه وسبابته حول فمه باستمرار، ينطق بعد وقت ساكن طويل، يسأل عن فلان، أو يحاول استحضار حادثة بلا غاية، كأنه يرسم لوحة في رأسه وبدت فاقدة بعضاً من عناصرها، يبادله طرفة باقتضاب، ثوان صامتة بين كلمة وأخرى. كان الشتاء قد انقضى وحلّ رمضان وجاء الصيف، وهكذا هما. حتى إذا أراد أحد أبناء طرفة زيارة والده يذهب إلى بيت الروضة، وغنيمة التي تزورهما بين حين وآخر برفقة أسامة الابن ولولوة. عَلم أهل بروين بعد انقضاء الأزمة أنهما مطلقان،

رحلَتْ الأخرى عن بيت بيان مع ابنها بدر، وظلَت داره مهجورة إلا من الكتب والنخل والأصداء.

”أفكر في الرحيل“ نظر أسامة باتجاه ابنه دون أن يتفوه بكلمة، ثم أعاد أنظاره باتجاه شجرته. طرفة الذي لم ير علاقة في الدنيا أشمل مما يربطه بأبيه، استقى منه الشدة والصبر والجلد، الخِلاف والتسامح والحلم، القَبول والصداقة والإنصات، يلجأ إليه وقت الشتات، يحسُّ أن كليهما، رغم كل الدنيا التي عجّت من حولهما، وحيدان. كان بأمس الحاجة لأن يقول: ”إذا مرَّ أسبوع دون أن تجدني في بيتك، فهذا هو وداعي الآن“.

***

يقول جواد: ”اختار طرفة بلداً استوائياً آسيوياً، لكنه لم يحدد أي وجهة ستكون“.

خلوُّ بيت بيان من قاطنيه، أبناء غنيمة في سن الزواج وعلى مقدرة من تملّك منازل خاصة بهم، إسماعيل ورقيّة لهما حياتهما الخاصة القائمة، بدر ما زال صغيراً رفقة أمه بروين. قراره النهائي بالهجرة، تلاقي الحالتين يدفعه لفعل حتمي، سيعرض منزله للبيع! كانت نخلاته الباقيات اللاتي يحدقن به باستمرار حين يدخل أو يغادر المكان قد ساهمت في تأخير حسمه لقراره، يصعب عليه تركها بعد علاقة طويلة وفيّة دافئة. كان آخر ما قام به أن بعث برسالة خطيّة لكل ممن يعنيهم شأنه. قراران يشيان باختفاء أثر طرفة، لن يبقى هناك رجل مزعج يحمل هذا الاسم بعد الآن.

أنا كذلك. لم ألتق به منذ يوم التحرير، انشغلتُ بترتيبات متعلقة بعودة والدتي وإخوتي الذين سافروا في إجازة صيفية قبيل الاحتلال وعلقوا في الخارج، كنتُ قد بقيت مع والدي، وتوليت رعاية جدتي التي تقطن وحدها مع زوجها الضرير الذي ما عادت ساقاه قادرتين على حمله. استقرت الدنيا وعاودت بنمطيتها المعتادة، حتى لحظة استفاقة وجودية على ذاتي وأصدقائي، كان طرفة آنذاك قد رحل. قال جواد على نحو آسف: ”لا أعرف إذا كنّا سنلتقي به مجدداً...“ ليس قراره ذاك أغرب غرائبياته، فقد رأيت في عينيه جرحاً غائراً

موسوماً بخذلان مغاير، مزّقه إلى نصفين جليين لن يلتئما قبل زمن موغل ممتد، وربما سيظلان جزأين منفصلين إلى الأبد. ربما أراد من هجرته أن يُبعث من جديد في أرض تجهله، ونجهلها.

***

نحن اليوم صنيعة ذكريات البارحة.

لم أعتد غيابه هذا. كأن أحدنا قد قتل الآخر، مثل طلقة نافذة من فوهة تصيب رأسك في جزء من ثانية تطفئ الدنيا، ليتها تصيبني. همستُ لنفسي، ثم أطلقتها: "ليتها تصيبني!" كنتُ كلما التقيت بجواد، أنظر إليه وفي محياي قول يفضحني: "أمن أخبار؟" باستطاعة الآخر معرفة المستجدات بفعل ارتباط تجاري سابق، امتد رغم رحيل طرفة، من خلال أخيه صلاح الذي تولى الإدارة بعده. يداري جواد أساه، يجيب: "لا تقلق..." ثم ينفض عن نفسه الخيبة: "لا بد أن يعود يوماً ما". لم أرغب في التحدث إلى إخوته أو أبنائه، لن يكونوا أفضل مني حالاً إثر هذا التلاشي المفاجئ. بعد سنة من العدم، كانت الحياة تسير على أبطأ ما يكون، لم تدمل جراح ولم تبرح الذاكرة أية لحظة، كل الأشياء حاضرة بحقيقتها، دون ستار، دون مجاملة. كنتُ أبحث عن مكمن القسوة التي تخامرني، ربما عدم مقدرتي اختيار وقت ظهوري ووقت الاختفاء، ربما حين يعلق سؤال فأحتاج إلى إجابة حاسمة، أرفع سماعة الهاتف، ثم لا شيء. سنة أخرى صمّاء، لا مفر من اللجوء إلى رواياته وأشعاره ولقاءات إذاعية مسجلة على أشرطة كاسيت، أعود لأسمع صوته، لحنه المخملي، أستخلص من إجاباته إجابات عن أسئلة أخرى، أقرأ كل ما قرأته من جديد، أبادله حواراً حول سطر، فكرة، حول خطأ مطبعي، حول علامة ترقيم تَخاذَل الطبّاع في وضعها، ألومه على إهماله نفسه، كتاباته، حياته، يُجيب في رأسي، تظهر لازمة من لوازمه، نبرة حادة معروفة، يسلّط عباراته بشدة. أقفل الكتاب، أخرج باتجاه شارع الخليج، تقودني سيارتي إلى مبنى مكتبه، أسير إلى المصعد، أتخيّل أنني على موعد معه، أطرق بابه الخشبي، لا صوت في الجهة الأخرى، أطرق مرة أخرى،

أغلق عينيّ، ينفذ سمعي إلى الداخل، لا إجابة، أطرق بعصبية، بشدة، بقوة. لا "حيّاك" مرة أخرى.

لا أثر لطرفة في الندوات والمهرجانات الثقافية، الكاتب العراقي المقيم في الكويت، الكاتب الكويتي المولود في العراق، لا ضيوف من الخارج يبحثون عن منزله، لا محاولات شبابية تلجأ إلى مكتبه، لا صفحات في مقدمة الروايات تدين بالفضل إلى دعمه وتوجيهاته. لقد اختار أن يُنسى، أو يُزيّف، أن يصبح أسطورة تتناقلها الأفواه، أن ينضوي في صفحات ألف ليلة وليلة، أن يقال والعهدة على القائل إن كاتباً يدعى فلاناً فعل ونشر واشتهر.

طويتُ السنة الثالثة، ليس هناك طرفة.

بلاد آسيا الاستوائية كبيرة، وأنا أكره الترحال. حاولتُ أن أقلده، سأنساه، وأتحول إلى إنسان آخر، حياة أخرى، سأمارس فعل البُعد من الداخل، ربما أفقد الذاكرة، كل ليلة أرتمي على السرير، أتخيّل أن معي قلماً أسود بعرض ساحة، أشطب فيه رؤى الماضي، صوراً متوالية شَهدْتُها، أحداثاً سبق لي سردها، تجارب عديدة خضتها، ألونها بالأسود، أمرر القلم، ثم أكرر الفعل، فوق الأسود أسود، كل ليلة، أنا لست أنا، فعل مُجهد وغريب، سعي متواصل دون تنازل، سأفقد الذاكرة، لم يعد اسمي ينتمي لي، حتى إذا خاطبني الآخر يقول: "يا... هذا..." أنا هو المعني بذاته المجهولة، لا أهل لي ولا أصدقاء، كأنما تشير إلى حجارة، أو تشير إلى ماء في الماء. ربما نجحتُ في تقليده أكثر منه. ذات ليلة كنت أمارس عمل الشطب حتى غفوت بعد إجهاد، وحين صحوت كنت في الرابعة من عمري.

ماذا تعرف من الدنيا؟ دبابتين تركنان مقابل بيت جدتي التي بقيتُ عندها فترة الاحتلال بسبب سفر أمي وإخوتي في إجازتهم الصيفية، وخيمة عسكرية في الساحة الترابية الواقعة بين مبنيين. أنظر إلى هذا المشهد كل يوم وأنا متشبث بسياج النافذة، وصوت جدتي التي تنهر طيشي: "انزل". وماذا تعرف أيضاً؟ جدي الضرير الذي يحفّظني قصار سور القرآن، وإذا تلوت واحدة بإتقان يُخرج من تحت وسادته محفظة يناولني منها عملة معدنية، جدي الذي تُوفيَّ

عندما بلغتُ السادسة، وما كنتُ أعي تماماً ماذا يعني الغياب، وقتها كنتُ ألعب كرة القدم في حوش بيته أيام العزاء.

لقد أصبحت صغيراً، أصبحت شخصاً آخر، أدركت كل هذا فيما بعد، خارج زمن هذا السرد.

***

يخاطبك بصفتك نكرة. ما أنت؟

سؤال يضعك في حيرة من أمرك، أنت تجْهلُكَ، كائن بمقدوره تلقي المعلومات، ذاكرته تراوح زمنين متأرجحين. تعرف أنك كنت هناك في مكان، ربما زمن، أنت عاجز عن استدعاء ما تعتقده. تدرك أنك مخلوق عاقل، تحمل خبرات متراكمة متعاقبة. تناوشك نفسك: "الإدراك غير اليقين".

يفزعك سؤال مباشر: "ما أنت؟".

تعيد طرحه على نفسك، لماذا لا يقول: "من أنت؟". تفطن فجأة أنك تمتلك لغتك، أنت قادر على التمييز بين استخدام كلمة وأخرى، قادر على سماع الأصوات، ما الذي يجعلك صامتاً، فاقداً لقدرة الرد. "هل باستطاعتك النظر إلى من يطرح السؤال؟" سؤال منطقي تطرحهُ عليك، تُجيبكَ بعفويتك: "لا أدري" إذا ما كانت الظُّلمة الماثلة رؤية عين. لحظة! هناك شيء يمثل أمامك، العتمة. تعتقد أنك محاط بجدران شاهقة. تناكفك نفسك مرة أخرى: "الاعتقاد غير الظن" تصمت. صوت طنين آتٍ من مسافة بعيدة، تصيخ إلى مشاعرك، لا حاجة فسيولوجية تدفعك للثورة على واقعك.

يكرر بلا توقف: "ما أنت، ما أنت؟".

ربما ستكون الإجابة: "كائن على وشك الولادة".

***

منتصف ديسمبر من كل عام، حين يصفعنا الشتاء ويردينا في الأسرَّة، تحضرني رؤية في المنام.

أقف على تلّة رملية في حالة لا مرئية، أرى نهراً على ضفته غابة أشجار وفي ناحيته الأخرى منزل يظهر من وراء بابه طفل برفقة مربيته، يبدو المشهد حقيقياً بكل تفاصيله، رذاذ ماء وغيوم سديمية ودرب ترابي طويل. وقبل أن تتشرّب عيناي المنظر وتمتلئ حواسي به، يركض الطفل بتهور، تحاول مرافقته الإمساك به، لكنه يفلت، ثم يسقط في الماء ويغرق.

حالة من اليقين الماثل تؤكد حضوري لهذا المشهد في وقت ما. كنتُ في العاشرة تقريباً لحظة بدء تواتر هذا الحلم سنوياً، في المرّات الأولى كان أشبه بحالة ديجافو، فيما بعد أصبحتْ رؤية أعرفها لمكان آلفه جيداً، وكلما نقترب من نهاية العام أتوجس قدومه حين تطرحني الإنفلونزا، تأتي مرة واحدة مثل مناسبة خاصة، ولسبب ما تمنَّعت عن قول هذا لأي إنسان على الإطلاق. حتى صرتُ في الثانية والثلاثين من عمري، أفصحت لجواد في لحظة انكسار، لم يهزه شيءٌ مما قلت، لكنه اتصل بي بعد بضعة أيام، وسألني عن السنة التي بلغتُ فيها العاشرة، قلت له على نحو عجول: "في الثلث الأخير من التسعينيات".

قال جواد: "توفي أسامة في تلك الفترة، وبطريقة ما علم طرفة بالأمر، واضطر أن يعود إلى الكويت".

***

لم يعُد طرفة بقصد حضور عزاء والده فقط، كانت عودة من أجل استقرار جديد.

وعلى عكس المتوقع، كان متماسكاً صلباً رغم سحنته الشاحبة الحزينة، على نقيض من صحته التي بدت ممتازة. وبعد شهر أخرج رُزماً مهولة من الأوراق خصص لها حقيبة سفر صغيرة حتى يتسنى له نقلها من إقامته السالفة إلى الكويت. قال: "كنتُ في رحلة علاج بالكتابة، وهذه نتيجة التجارب الطويلة للوصول إلى خلاصة من المراهم والعقاقير".

أما عزاء الرجل المُعمر القويّ، أسامة، فقد شهد توافد عدد هائل من الناس، ورسائل حزينة من كل بقاع العالم، لكل الأصدقاء الذين هاجروا وشردوا

واستقروا في بلدان مختلفة. أصبح طرفة الآن، بكونه الابن الأكبر، واجهة العائلة، وفطن إلى توليه مسؤولية ما كانت في حسبانه. زيارات ورسائل واتصالات المعزين امتدت إلى ثلاثة أسابيع، لم يقض يوماً دون أن يطرق باب بيتهم رجل يدعو لأسامة بالرحمة.

***

وكان هذا الظهور الثاني لطرفة.

احتفل أصدقاؤه وتوافدوا إلى مكتبه بعد أن استعاد موقعه المُطل على البحر، وتعهد البعض بتخصيص أمسية في رابطة الأدباء من أجل الحديث عن رزم الأوراق التي اتضح أنها متوالية روائية من سبعة أجزاء كتبها طوال فترة غيابه. لم يفصح عن مكان اختفائه وكان يبرر ذلك بتنقله من مدينة إلى أخرى في دول آسيا الاستوائية، ولم يكن يستقر في مكان حتى يشد رحاله إلى آخر. عمل في تجارة صغيرة أمنت له احتياجاته اليومية فقط. يحب طرفة أحياناً أن يحيط حياته ببعض الغموض، وربما بفعل المتاعب الكثيرة التي تكبدها من جراء شفافيته، عهد لكثير من الأمور أن يسبغ عليها ظلمة، ويظل في زاوية قصية تمنحه بعض الأمان. انشغل بعد وقت قصير في البحث عن سبيل لطباعة مشروعه الروائي الضخم، الذي أطلق عليه أحد حضور ندوة رابطة الأدباء "أكبر رواية عربية". لم يعلّق طرفة، وترك الأمر كيفما تؤطره الأيام، وبالفعل تم تناقل المعلومة باعتبارها حقيقة تامة. جواد لم يكن متأكداً، طرح تساؤله: "أهي الأكبر بالفعل؟" لوى صاحبه شفتيه، وراح يفكر في أعمال أدبية عربية أخرى، لم يخلص إلى عدد يفوق أصابع اليد الواحدة: "ربما تكون، لكنها حتماً واحدة من أكبر الروايات" ثم أخذ حديثهما منحى استجواب، لأن الرواية تعرض وقائع الاحتلال العراقي برؤية بانورامية، وكان لشخصيات حقيقية الظهور بأسماء مختلفة، أخذا يتنقلان من فرد لآخر، ذواتهم الحقيقية ومقابلها في الرواية، حتى قال طرفة: "إن شخصية فهد تُمثل في واقعها صاحبنا إسماعيل" ثم أخذ يفكر قليلاً: "صحيح، أين هو؟!" بدا أنه استيقن فجأة إلى

اختفائه التام، أومأ جواد بكتفيه قبل أن يقول: ”بعد ثلاث سنوات تقريباً من غيابك، اختفى هو الآخر“.

***

تعهد أحد شيوخ المقاومة بطباعة السلسلة السباعية الروائية.

تخوُّف الناشرين من تكبد عناء تكاليفها، إضافة إلى موضوعها الذي يتناول شأناً عربياً شائكاً، حالا دون طباعتها من غير وجود ناشر يتكفل ولو بتوزيعها وتخزينها. اضطر طرفة أن يحتفظ بكامل الكمية في أكثر من مكان، خصص غرفة بالقرب من مكتبه لأكداس من صناديق سلسلته الكبيرة، بلغ الأمر أن وضع بعضها في غرفة نومه. كانت ورطة حقيقية جعلت من هاتفه الأرضي جهازاً طنّاناً لا يتوقف من اتصالات القراء الراغبين في اقتنائها، وهذه مشكلة ذات وجهين، شهرة الرواية ومتاعب تولي مهام عدة أرهقته واستهلكت الكثير من وقته. يحدث هذا بتزامن مع زج طرفة عنوة في واجهة كل ما يحيط به رغم رفضه ومقاومته لهذا الأمر بشدة. لقد غدا اسمه رمزاً خالصاً للأدب الملتزم، هكذا يقولون، أو ما نقله جواد عنهم. لكنه بعد عامين بدأ يشعر بالملل، وأراد أن يعيد ذكرى التجمعات الثقافية. تعهَّد لجموع الأدباء التي اجتمعت عنده بإخلاء قاعة في مؤسستهم كل ثلاثاء من أجل توفير مكان لملتقى أدبي جديد. وهو أمر دفع به ليكون في مقدمة المبادرين، عنوة أو بقناعة.

اختفاء أصدقاء وظهور آخرين، وروايات في توالٍ مستمر.

كان قد استأجر شقة في منطقة حولي بعد أسبوع من عودته إلى الكويت، لم ينفق كل مدخراته في سنوات غيابه، لكن لم يعد لديه مبلغٌ يتيح له شراء منزل جديد. راقت له الحياة في إطار صغير، عمارة مطلة على شارع حيوي، يجلس بجوار شباك صالته حين يتناول إفطاره يومياً، يراقب حركة الناس بتلذذ، يرصد الجدولة المتتابعة لسلوك الآخرين، جيرانه في المبنى نفسه أو قادمين من أماكن قريبة، يعبرون من أمامه في مشهد يعاد اليوم والبارحة والغد. سلوك يليق بآلات، يمارسونه بانصياع لمتطلبات معيشة المدينة. عدا عن ذلك فإن الحياة أخذت طابعها النمطي، عمل، كتابة، قراءة، لقاء أصدقاء.

آثر أن يجند حياته المقبلة لهذه الأشياء فقط، لا مغامرات أو مخاطرات سوى على الورق، ورغم هذا العهد فإنه لا يكف عن طبعه، لا بد ليوم أن يوسوس شيطانه حين يتوفر الموقف المناسب، أو يسعى لاختلاقه بنفسه مثل تلك الليلة الباردة حين عمد إلى الخروج من مكتبه في وقت متأخر، بعد أن استعصت عليه لغته لتصوير مشهد ما، ولأن الشوارع مقفرة راح يبحث عن دوريات المرور ليرتكب أمامها مخالفة صريحة، فحدث له ما أراد، ولمّا سأله رجل الشرطة عن رخصته وإثباته، قال: "لقد نسيت محفظتي". فاقتيد ليلتها ليبيت في غرفة الحجز لدى مركز منطقة شرق الأمني حتى أتى جواد في اليوم التالي وأخرجه بكفالة. راح يعاتبه على عدم حمله هوياته، لكنه ردّ: "كنتُ بحاجة إلى تلك الزنزانة، لو عدت إلى شقتي البارحة ما كنت استطعت النوم". ثم أخرج لجواد محفظته من جيب متوارٍ في معطفه.

***

نال طرفة كل الألقاب.

الجد والأب والمعلم والأخ الأكبر، تغضن جلده وأصبح الناس يفسحون له الطريق ويساعدونه على حمل الأشياء. غصّت به حياته، أخذ ينظر إلى نفسه في المرايا كما لم يفعل من قبل، يتفحص ملامحه، يرى عروقاً ناتئة على صدغيه، لقد بلغ الستين، لا بل أكثر من ذلك، تمضي به سنواته، تتقافز نحو لا شيء، يبرق أمل وينطفئ قبل أن يتوهج، يتمم التاريخ ألفيَّته الثانية بعد الميلاد، نستهلها بانهيار برجي تجارة أميركا، عالم عربي مظلم سحيق، لسنا مؤهلين لمواجهته البتة، عالم صامت يتلقى صدماته مثل جثة، يجاور دنيا بلهاء عمياء، تفض بهمجية، تهرس كل ما يدب تحتها. في العام الذي تلاه سقط نظام صدام حسين في العراق، لم يطرف صاحبنا لشيء، يتشرب الأحداث، يتابع، يقرأ، يسمع، عبثيات تتوالى، فيمتلئ حتى عنقه وقبل أن يغرق يبدأ في وخز جلده، يفرزها، يبلل أوراقه بحبره، ينضّد مشاهده وحكاياته، ثم يلقي بها في أدراجه. كان آنذاك يخبئ أكثر مما ينشر، يحنّ إلى مساكنة نخلة، إلى سنوات ابنة الجيران، إلى اكتشاف المكتبات وأفلام السينما.

يقول جواد، أظنّه في تلك الفترة بدأ بتدوين سيرته الذاتية، ربما بإشارة من شاعرة صديقة أو روائية، لكنه لم يعرض أياً من كتاباته تلك لأحد، كان من الواضح أنه تراجع عن قراره، كلّما تقادمت الأيام يغيّب فكرة كتابته حياته: "لا شيء يستحق" يستحضر كلمة فارع حسين، يرى أن سيرته تشبه آلاف البشر غيره، لكنه في مكان آخر يقول بأنه أنجز عدداً كبيراً من الصفحات، ربما تكون سلسلة جديدة من ثلاثة أجزاء. لم نعرف تماماً غايات طرفة، نمطية الأيام تقتله: "لم تَعُد حلوة ولا مرّة" ولا حبيبة جديدة تطرّي له عَقده الجديد، سوى في الورق، ينبش في تجارب منسية مختبئة في ذاكرته، يكشط ما تبقى منها ويفردها، يعيد صياغتها، لا ينفك يتحدث عن الكتابة والبحث عن روائيين جدد، ربما خلفاء أو أصدقاء يشبهونه بعد أن غادرت كل النسخ التي تبقت في الدنيا، كل نسخه، طبائعه وأفكاره وحديثه وأدبه، غادرت من باب ضيّق بعيد، كما فعلت آخر نسخة، الخال الهلالي.

***

أمسيات تتوالى. ضيوف كُثر. ملتقى الثلاثاء آخر الأماكن المألوفة.

كَتب طرفة، في عزاء خاص إلى زوجة الهلالي: "لو غادَرَنا بعد الاستئذان... المفاجأة تكريس للفجيعة".

وأقام له ليلة تأبين خاصة أنشد فيها المشاركون أبياتاً من دواوينه الكثيرة.

اعترته حالة من الإخلاص التام للملتقيات الثقافية، أو ملتقاهم بالذات، ربما تيقن إلى ضرورتها حتى يبقى متوازناً في عالم متبدل ومتلوّن، خصوصاً بعد تلقيهم إخطاراً من الشركة العقارية الجديدة التي تملكت مبنى مؤسستهم المطل على البحر، يفيد بضرورة إخلاء المكاتب المستأجرة في مدة محددة، لرغبتهم في هدم البناء وتشييد برج جديد. كانت مأساة أخرى، أوجبت عليهم، وعلى وجه الاستعجال، البحث عن مكان آخر، تكفّل جواد بهذه المهمة، وبعد مسح تام للمنطقة، ما وجد عقاراً أفضل من عمارة عبد اللطيف المنيّس المطلّة على المقبرة، والتي رفضها طرفة أول مرة لذات السبب، لكن القَدر أعادهم إليها، وفق الظروف الحالية لا مفر من الانتقال لمكانهم هذا، موقع في

منطقة الصالحية سيخدمهم ويسهّل أداء عملهم، لكنهم لن يتمكنوا من تبني ملتقى الثلاثاء مرة أخرى، ليس في المكان فسحة كما السابق.

شعر طرفة بالمسؤولية إزاء تأمين ملجأ جديد، الإمكانية المادية لرواده متواضعة، أغلبهم من العرب المغتربين، ولا توجد مساحة مجانية شاغرة بالإمكان استغلالها لغرض خاص أسبوعياً وعلى مدى قرابة تسعة شهور في السنة. هذا آخر الأماكن المألوفة، وليس من المعقول أن يفرط بغصن يتيم من شجرة الماضي، كل ما يربطه ولو بشكل جزئي بتاريخه الخاص، شريط صوره المتوالية، ربما هذا ما يسوّغ له بقاءه ومقاومته لأفعال الزمن. استغرق في تفكيره وتدبيره ومسعاه إلى أن أقدم أحد الأصدقاء من ميسوري الحال، الذين يحضرون الملتقيات ويتذوقون الأدب، على تحمّل مصاريف استئجار قاعة فندقية مرة كل أسبوع، واستهلت المجموعة في وضع برنامجها السنوي، لكن ليس لأكثر من عام وبضعة أشهر حتى توقف الدعم، وعاد الأمر إلى بدايته.

ولأن اسم طرفة يُشار إليه، أقدم شاعر يتملك دار نشر صاعدة، سبق أن أسْداه طرفة نصيّن، أحدهما مجموعة قصصية والآخر رواية صغيرة، ونشَرَهما ضمن ظهوره الأول في المكتبات والمعارض. خصص من مقرّ عمله غرفة صغيرة نسبياً لكنها تفي بالغرض، وجهزها بما يلزم من معدات وفرْش، وقضى الملتقى في ذلك المكان. مقرّ الناشر في مجمع اسمه غاليريا. رغم عدم ملاءمة منطقة "الضجيج" – وهي ناحية في محافظة الفروانية خاصة بالأنشطة التجارية، شوارعها ضيقة وغاصّة، تطغى عليها محال الأثاث والتجهيزات المنزلية – فإن القيمة الإيجارية مقابل المساحة كانت الفيصل في حسم الأمر.

كل الأصدقاء الجدد أصبحوا يتوافدون كل ثلاثاء. بدا أمرهم آخذاً في الاستقرار كلّما مر وقت، كان طرفة قد اطمأن بعض الشيء. دائماً ما يرتاح إلى ممارسة

عمل تطوعي يتشارك فيه مجموعة من الأفراد يلتئمون على محبة الاطلاع والفن. ما بين كوخ الثقافة ومجمع غاليريا أكثر من خمسين سنة، أحداث وحكايات، حروب وسجون، أخطار وخسائر، أقرباء وأصدقاء رحّلهم الموت أو المجهول. المقر الجديد له طابع من رائحة البدايات، ممارسة مغايرة وسط صخب الأسواق وأبواق السيارات، عزلة في زحام، يحوي مكتبة تضم مختارات من مكتبات أعضائها، إضافة إلى منشورات الدار، وورشة أسبوعية للكتابة السردية تديرها قاصة اسمها بلقيس، كان ينقصهم نادٍ رياضي بأدوات بسيطة حتى يشبه كوخهم الأثير. عادة ما يجيء طرفة باكراً في أيام الندوات، هدوء المكان قبل اكتظاظه بالزوار يمنحه بعض الدفء والحنين، يحب رائحة الورق التي تعبق بالغرفة التي تسبق قاعة الملتقى. كان طرفة في أحد الأيام يحاول الوصول بنظره إلى رفّ علويّ لقراءة عناوين الكتب المرصوفة في العمق، يقف على أصابع رجليه ويعود قليلاً إلى الوراء حين جاءه صوت الشاعر حمدان، تحية عامة لمكان ليس فيه سوى طرفة: "السلام عليكم" التفت إليه: "أهلاً أهلاً" بصوت رحب هادئ. راح يقترب ليصافحه، ثم توقف قليلاً، استدرك حين وقعت عيناه على شاب يجاور حمدان، أسبل فيه على نحو غريب، بدت ملامحه دهِشة للحظة قبل أن يتمالك أمره، قال لنفسه: "لا، هذا غير معقول" ومدّ يده إلى الشاعر.

٢٥

إحداثيات العام الأخير

هراء. لم تستدر الأيام، وما فعله لم يتحصل على مثيله.

بعد رواية "السيبة"، نَشر عملاً متخيلاً من أصداء سيرة فارع حسين، أطلق عليه عنوان "ما قالته حدجة". لم يتوقف طرفة عن الكتابة، يواصل العمل بجنون وكأن حكاياته تطارده طوال الوقت تطالبه بالإفراج عنها. كان مشغولاً بكتابة جديدة يشتق شخصياتها من إحدى رواياته الماضية، لحظة إفضائه حول مشروعه القادم، خطرت لي فكرة راودت مخيلتي فترة طويلة، سألته: "أين مسوّداتك المستمدة من سيرتك الشخصية؟". كان التعب بادياً على عينيه، وكأنه يتعاطى السهر كل ليلة، نظر إليّ واستغرق في صمته قليلاً: "غالباً سأصرف النظر عنها". استبد بي إصراري: "ما أعرفه، تمام المعرفة، أنك كتبت ثلاثة مجلدات فتخلصت من اثنين وأبقيت على واحد" ما كنتُ قد أنهيت الجُملة حتى مزّقها بردّه: "وهذا سأتخلص منه قريباً".

ابتسمتُ، استجابة لردة فعله السريعة فقط، عدا عن ذلك فإن حرقة اعتملت في صدري. لوهلة رأيت الفكرة تتهاوى، خارت كل المخطوطات التي أعددتها على إثر المعرفة والقصص التي حكاها لي منذ الزيارة الأولى حتى اللحظة. تنبه إلى حالة اليأس التي ألمّت بي منذ إجابته، تغيّرت ملامحه اعتدل في جلسته: "ما بك؟" بدا له أن حزناً عظيماً قد وقع عليّ، أحسست بحرج من البوح بأمر أهون مما استدركه، في اللحظة عينها وكزني خيط ألم من أول كتفي الأيمن حتى أسفل الرقبة، هبَّ جسدي بردّة فعل مباغتة، خاف طرفة قليلاً، نهض من كرسيه، قلتُ على نحو عاجل: "اطمئن لا شيء" لم يجلس، أراد الخروج من وراء مكتبه ليتأكد، كررت بإصرار: "أقسم لك، سرى ألم مفاجئ في كتفي وانقضى". عاد إلى مكانه، قرّب إليّ كأس ماء كانت على الطاولة سلفاً، قلت: "الأمر برمّته لا يعدو أكثر من رغبة غابرة خالصة في

خوض تجربة كتابة سيرتك نيابة عنك“. رفع رأسه قليلاً في لحظة استيعاب، ثم ألقى بجسده على كرسيه، ورفع رجليه على طاولة جانبية أسفل المكتب. نَحِم مرتين، وأشبك أصابعه على بطنه، كانت فكرة مفاجئة ربما، أشغلته، أو برقت على نحو أعادت إليه بعض الاعتبارات. اعتدل مرة أخرى، وضع مرفقيه على المكتب، ثم أراح ذقنه على إحدى كفيه، شعّت عيناه: ”فكرة...“ لكنه لم يعط وقتها موافقة حاسمة، راح يعدد بعض تجارب السيَر الذاتية أو الغيرية بالأحرى، الواقعية والمتخيلة، كان يفعل هذا بدافع من حماسة بلا شك، وقصد واضح بضرورة الاطلاع على تلك الكتب حتى يصبح بمقدوري الشروع بالعمل، ورغم هذا فقد طلب في نهاية اللقاء أن أمنحه وقتاً كافية لمراجعة الأمر.

***

أنا رجل تراوده الشكوك باستمرار. كلّما تركت طرفة أعود لمراجعة الحوار الذي دار بيننا.

ربما لم يرغب في أن أتولى شؤون تاريخه الخاص، وإلا ما الداعي لمزيد من الوقت؟ قد تكون حجة للرفض، لصرف النظر بطريقة مهذبة. تشتعل جملة من الشكوك، مدى قرب العلاقة، مدى الكفاءة التي تؤهلني بكل تلك الثقة كي أنتخب نفسي لكتابة سيرة روائي ماثل على قيد الحياة. صفاقة أو تهور، ربما لم أقيّم حساباتي بشكل جيد، كانت خطوة مندفعة بلا شك. تلك تساؤلات المساء التي تؤرق مناماتي، أقرر بعدها الانسحاب من الفراش والانتقال إلى أريكة الصالة المجاورة لغرفة النوم، تتوالد افتراضات لا أعرف كيف أصرفها، وبتأثير التوتر المتواتر أذهب إلى الخلاء كل نصف ساعة دون أن ألقم فمي أي طعام أو شراب، وهكذا يمضي الليل في حلقة من السرير والأريكة والحمام.

عندما يجيء الصباح التالي، يكون الأمر قد توارى وراء ضجيج العمل، وفي عمق حوض النسيان أتلقى اتصالاً من طرفة، فتُعاود افتراضات الأرق حضورها، أنظر إلى اسمه في الهاتف، ماذا عساه سيكون الأمر بعد الاتصال؟ صوته عبر الأثير يشي باعتلال: ”البارحة لم أنم جيداً“ ثم واتته نوبة عطاس متتابع، تناهى إلى سمعي انفلات مناديل ورقية من علبتها. شعرتُ لحظتها

بحالتي تَنازُع، الاطمئنان على صحته وقراره في آن، لكنه تابع من فوره: "كنتُ أقلّب العرض الذي طرحته عليّ..." أخذ الزكام يعرقل إتمامه حديثه، سعل وبدا أنه يمسح أنفه: "انتبهتُ إلى أمر..." قاطعته هذه المرة: "عساك بخير؟" لكنه ربما لم ينتبه إلى سؤالي، أو أراد أن يفضي ما يخالجه بما يتوفر لديه من طاقة: "تعرف أن فلاناً وفلاناً أقدموا على هذا الأمر من قبل، لكنهم كتبوا بما يشبه التوثيق، فإن كان مشروعك شبيهاً بذاك دعنا نصرف النظر" لم يخطر لي لحظتها إذا كان هذا مؤشراً آخر على تردده، أو حرجه، أو تورطه معي، كنتُ أفكر في أن ما برأسي مختلف تماماً عمّا أُنجز من قبل. الدفاع عن الأفكار، شكل من أشكال الدفاع عن الكرامة. كانت ردة فعل ارتجالية وغير مندفعة عندما قررتُ ألا أفرد له وعوداً شفهية، وعوضاً عن ذلك فضلتُ أن آتيه بنموذج يستطيع أن يقرر من خلاله الاستمرار أو التوقف. همهم وقال: "هذا أفضل" ثم أضاف: "ابذل جهدك، الرجل لا يسلّم تاريخه لآخر بسهولة".

***

"جواد، أحتاج إلى مساعدتك، أنا على شفا مأزق".

لم أصارح طرفة بأمر الحاجة إلى مسوّدته الأصل، ما تبقى من مجلداته، لتكون مادة تكوين النص الرئيسة، خشيت أني لو فعلت ذلك، فسيكون معول الهدم الأول لمشروع الرواية، وفي هذا يكمن مربط التحدي. "تتحدث وكأنك تكتب أول مرة" كان يضحك من قلبه. طلبتُ منه أن يُبقي الأمر سرّاً بيننا، هدّأ من قلقي ثم صادق عليه حين سرَحَ في الفكرة: "نعم ليس أمراً سهلاً، لكن طرفة موجود وسيساندك" الأمر متعلق بكسب ثقته، أو إقناعه بجدارة الخطوة، وفي الوقت ذاته لا أريد أن أخيّب آماله، أتذكر كلمة قالها سابقاً: "استبشرنا خيراً ببعض التجارب لكنهم..." قلتُ لجواد في مكاشفة غير مسبوقة: "أشعر..." والتدليل بالشعور ليس أكثر من كلمة متوفرة لإيصال بعض المعنى: "أشعر بأني أرى حياة طرفة كما لو كنتُ زميله في المدرسة" ثم أعيد بناء أفكاري من جديد: "وأشعر بأني عشت زمنه، وكنت في مثل سنّه يوماً من الأيام، وأنا أقول الحقيقة بكل ما تحمل من غرابة". لم يكن بادياً على

محيا جواد أن المعنى قد بلغه كما يشعّ من جسدي: "اكتبْ كما تشعر وترى". كان بوده لو يمسك كتفي ويهزّ كل الشكوك التي تعرقل طريقي: "أحتاج إلى الاطمئنان، حول كل الأشياء التي تتبدى لي..." ربما أدرَك ما أعنيه لحظتها: "حسناً..." أخذ بعض الوقت يفكر، يستعد لأن يقول شيئاً ثم يتراجع، حتى حسم أمره: "سأزودك بملف يحوي كل ما كُتب عنه في الصحافة، من لقاءات واستطلاعات ومراجعات، منذ السبعينيات حتى الآن، وهذا أيضاً سر يجب أن نبقيه بيننا". وعندما استشعر بعض الارتياح مما سيُقدم عليه، أضاف: "واسألني حيال أي معلومة أو مشهد تعجز عنه...".

***

وعندما بدأتُ الكتابة، لم ألجأ إلى أي مرجع.

وجدتني أتدفق على غير ما توقعته، وكأن باب الذاكرة يأخذ بالانفراج كلما استدعيتُ منه واقعة، يمنحها الماء والتربة والهواء، تومض ألوانها، أرى أنني رأيتها بالفعل، رغم كونها صوراً من مكان وزمان لا يمتّان لي بصلة على الإطلاق، فإن الخيال كان قادراً على إعادة خلق كل ذلك. كتبتُ عن الشط الذي تلهو فوقه النوارس وتستقر عليه المراكب، كتبتُ عن اضطراب الكلمات والمعاني في رأس طفل لا يتجاوز عمره أربع سنوات، عن دراجة والد طرفة، كتبتُ عن أشجار الرمّان والليمون، والنخيل الذي يحط في الطرقات والمزارع والقرى، عن مشهد العائلة وهي ترقد فوق السطح كل ليلة، وعن مسدس مذهّب تحصّل عليه من صندوق وجده مصادفة في مكبس تمور مهجور قريب من منزلهم.

كان جواد قد زوّدني بحافظتين بهما قصاصات صحف كثيرة، تحتاج إلى تفريغ وإعادة تشكيل لمعلوماتها على نحو يجعلها صالحة للكتابة في سرد متتابع، لم أدرك لحظتها إذا ما كتبته يُعد رواية أم سيرة، لم أقرر بعد اسم الشكل الفني التي سينتهي إليه الكتاب. قررت أن أكون أكثر جرأة، وأكثر صلابة وثقة، وسأرمي كل هذا في حضن طرفة، دون علم جواد.

***

بعد وقت، عدت إليه بعدد مقبول من الورقات، نموذج أول لفكرة كتابة السيرة.

مشاعر متلاطمة بين الإقدام والشك، وضعتها في مغلف وقدّمتها له كاستمارة طلب الموافقة على إتمام المشروع الماثل. كان مزاجه آنذاك ليس على ما يرام، من وهلة أولى، لحظة ترحابه المعتاد، سأل باستغراب يشوبه ابتسامة كسول: "ما هذا؟" قلت بحماسة: "الوعد الذي بيننا" طلب مني أن أجلس بصيغة آمرة، ثم أخرج الأوراق وسلمها لي: "اقرأ". طرفة يطرب حين يسمع نصاً أدبياً كما لو كانت موسيقى، رحت أجرجر الكلمات بحذر، مشاهد نقية من طفولته وأحداث صغيرة تحوم من حوله، وأخرى مرتبطة بشخصيات قريبة منه، مكتوبة باسمه الصريح المعروف دون مواراة أو تمويه، مزجتها بحيث تتشكل ككتلة واحدة متدرجة البناء والحكاء. كان ينصت دون أن يبدي أي تعليق أو ملاحظة، يغمض عينيه عند بعض المواضع، يبدو وكأنه يحرك خياله أو يستدعي ذاكرته، كان منظره هذا يربك مواصلة القراءة، أنقّل نظري ما بينه والورقة، يفرج عن جفنيه لحظة توَقف استرسال السرد لثوان، يعاين خطب تعثري، حتى أنجزت نموذجي هذا، تناول مني الأوراق وراح يقرؤها، أو يعْبُر عليها بعينيه، واتته ابتسامته حين سأل عن مصدر الإمداد بالمعلومات الواردة في النص، قلت ببعض الثقة: "كلها مستقاة من أحاديثك الخاصة على مدى عشر سنوات تقريباً من الزيارات المتواصلة" هزّ رأسه لكنه لم يكن واثقاً من إجابتي، خيّل إليّ بأنه سيعيد سؤاله بصيغة أخرى: "اصدقني القول، من أين جئت بهذه المشاهد؟" لكنه لم يفعل، وبدلاً من ذلك قال: "جيدة، لكن لديّ اعتراض". تجلّت علامات من الدهشة في عينيّ، بدا أنه أدرك ذلك فقال: "لم يكن أسلوب القص مناسباً لكتابة يرويها شخص عن آخر" هذا النوع من الملاحظات متوقع منه: "عليك أن تضع نفسك في الرواية، وتحكيها بنفسك".

شردتُ قليلاً، تبادرتْ إلى ذهني عدة أفكار، حاولت أن أجري مسحاً شاملاً على الحكايات التي رصفتها. بدأت الكتابة عن زمن قبل ولادتي بأكثر من

أربعين عاماً، كيف سأكون هناك وفق منطق الراوي؟ لم أكن متأكداً من مقصده تماماً، فأعدت تساؤلي لمزيد من اليقين: "كما لو أوثق لقاءنا هذا في وضع روائي؟" هزّ رأسه مؤكداً، خطر لي ردّ، ترددت قبل التفوه به، لضرورة الحالة يتوجب عليّ ألا أخجل: "برأيك، كيف سأروى أحداثاً مضى عليها أكثر من سبعين عاماً؟" ارتفع حاجباه لحظة، كمن يعاتب على طرح سؤال كهذا، أو يقول بلفظ دارج: "لست أنت من يسأل هذه الأسئلة" لكنه فتح ذراعيه قليلاً: "الكتابة الروائية تحتمل ذلك". ما لفتني في ردّه، اعتباره أن مشروعنا حتماً سيكون نصاً روائياً، لقد اتخذ القرار عني دون أن يدرك هذا، كنتُ أدعك ذقني وأهزهز رأسي وأقلّب الأمر مراراً، ثم قلت: "أنا بحاجة إلى مزيد من الوقت حتى أعيد معالجة الأفكار" وضع كفه على الطاولة ثم قال: "معك وقت جيّد، سأسافر هذا الأسبوع إلى الهند لإجراء عملية في صدري".

***

يقصد طرفة أنه سيجري عملية في جهازه التنفسي.

كان قد ترك التدخين منذ وقت، وبسبب سنّه الكبيرة ترتب على هذا القرار اعتلالات أخرى. أقول لجواد: "لماذا اختار الهند بالذات؟" هناك من أقنَعه بوجود بروفسور في أمراض الرئة ليس كمثله أحد، وهذا ربما ليس بالسبب الأوحد. يبدو أنه لا مبرر يجعله يجري العملية في الهند عوضاً عن الكويت أو دول مجاورة، لكنه طرفة، بكل ما يحمله الاسم من معنى.

انشغلتُ وقتها في إعادة الكتابة، مرة واثنتين، كيف لي أن أجعل القارئ يصدق بأني شاب في الثلاثينات لكنني شاهد على أحداث جرت قبل سبعة عقود، بصرف النظر عمّا أقسمت به لجواد، حول شعوري المحض بالحضور الكامل في تلك السطور، بكل الحواس التي تعمل في جسدي، لكن الكتابة في النهاية مُلك تام لعقل قارئها. عالجت الأمر مراراً إلى حين عودته من السفر. قال بعد أول اتصال إن رحلته لم تكن موفقة كفاية، ومن المحتمل أن يكررها، ولأنه تحدث عن الرحلة دون أن يتطرق إلى القرار بحد ذاته، لم أشأ مناقشته فيما يرمي إليه، كان مكتبه آنذاك في حالة من الفوضى، قرر وقتها

أن يستغنى عن جزء منه حتى يتخلص من ثقل الإيجار، فضّل أن أزوره في شقته مساءً.

أنا لا أتردد كثيراً على شقته، رغم علمي بوجود يوم خاص يجمع فيه أصدقاءه، وقد دعاني ذات مرة واستجبت، لكنني لم أكررها، يدري طرفة بمزاجي "أنت تعرف الوقت والمكان، لا تتردد في القدوم". في الليلة عينها لم يكن ينتظرني في صدر المجلس، اختار ركناً صغيراً بالقرب من طاولة الطعام، كان يضع طبقاً يحوي حلاوة كبدة الفرس وقهوة تركية وضَعتْها الخادمة من أمامي: "لا بد للنص أن يحوي بعض الفنتازيا أو الغرائبيات" أضاف من جانبه: "بعض التجريب" قلتُ، مواصلاً شرح الفكرة: "الأمر سيتم وكأني أتلبس إحدى الشخصيات التي عاصرتك، شهدت أحداثاً متعلقة بك، ربما صديقك، جارك، أو زميل في الكتابة، لكنها ستبدو وكأنها شخصية واحدة". نظر إليّ برضا، منذ فترة لم أر ملامحه تشرق بكل هذا الفرح: "فكرتك هذه مدعاة احتفاء، أوافق عليها شريطة تلبية مراد واحد". استجابته أشعلت بيّ الحماسة والترقب لمعرفة طلبه: "سمّني طرفة" ثم أعاد: "طرفة، بفتح الطاء والراء". أدركُ أن طلبه هذا نابع من محبته لشاعر المعلقة ابن العبد، لكن ابتسامة ماكرة واتتني لحظتها: "لا بأس، إذا كان المقابل أن أسمي نفسي إسماعيل".

اتسعت مقلتاه، اندهش من الرد، إضافة إلى عدوى الفرح التي أفضت إلى ضحك متبادل: "لا اعتراض، طالما الكتابة كتابتك".

***

بالتأكيد طرفة لا يحمل هذا الاسم، ولست أنا كذلك.

انتظمتُ في زيارات السبت مرة أخرى، بقصد الاطلاع على ما يستجد من سيرته المتواترة، كان يستمع وكأن ما يُتلى رواية عادية من تلك التي نخلقها، لا يُعلق ولا يصحح ولا يضيف، أما المشاهد فكانت تنسكب في رأسي وكأنها مذكرات خاصة، بالتزامن أصبحت أفرّغ صفحات الجرائد الكثيرة التي أرسلها إليّ جواد، أكتب منها في دفتر خاص سرد متسلسل لكل حقبة، كان الأمر يتحقق بعيداً عن صاحب الشأن، دوره يقتصر في كل ذلك على التلقي، فقط لا

غير. بعض الأحيان أشعر بالانزعاج حين أستميله للحصول على معلومة أو مشاركة في الكتابة فيتمنع، أو لا يبدي تعليقه، يرمي المسؤولية عليّ: "عليك ضبط الأمر" إذا وجدت أحداثاً غير منطقية في البنية الروائية، كأنه يقول: "أنت اقتحمت حقل الألغام بمحض إرادتك" كانت حالته الصحية تتردى، مؤسسته تدخل نفقاً معتماً، مخططاته الخاصة تدخل حيّز التأجيل بعد تأجيل. رغم هذا فإنه لم يتوقف عن الكتابة. صدّر روايته الجديدة بكل تطلعات الشباب الذين يكتبون روايتهم أول مرة.

لم أنشر روايته الجديدة، منذ استهلالنا في مشروعنا المشترك، اتفقنا ضمنياً ألا نجتمع في أمر سوى الكتابة، بفعل الشك والخوف، والسعي لصد معرقلات استكمال السيرة أو الرواية. كذلك، حماية المتعة والتجربة التي أخوضها، إحساسي الذي أنكره باستمرار بأن طرفة ليس على ما يرام، ربما إثر ظِلّ الأمراض، أو فشل مشروع الهجرة إلى إندونيسيا، خسارته ملتقياته التي تتوقف جبرياً عند كل طارئ، غياب أشجار النخيل وتلاشي كل رابط يوثق بقاءه، ربما لهذا هو يكتب مثل قطار بلا محطة. كان يضع قبعته المسطحة على المكتب أمامه حين بلغت الفصل السادس، لحظتها، أبدى أول ردة فعل مغايرة متفاعلة مع مجريات الرواية، لما سردتُ أحداثاً تحوي مظاهرات، اعتقالات، مواجهات. ابتسم واعتدل ونحى قبعته جانباً: "كتبتُ مشهداً مشابهاً في إحدى رواياتي، وكنتُ أرى في خيالي ساحة التجمهر من أعلى، بدت منطقة في الجانب فارغة، غير معبأة الوصف، فوضعت بها حماراً متأهباً دون هدف أو غاية" ثم نهض من كرسيه فور انقضاء جملته: "أظن أن الجزء الأخير بحاجة لجسم حيوي يمنح الحياة للحدث، خصوصاً أن روايتك قد بدأت ذروتها" ورغم تعليقه الوجيز، فإنني وجدته ليس كما في الظاهر، كأنه انتظر لحظة خيالية لا تشبه حياته المليئة بأحداث لا يصدقها أحد. أخذ يتفقد ترتيبات النقل في المكتب المجاور بعد أن طويت أوراقي، كنتُ أقف بالقرب منه بينما يعطي تعليماته لموظفيه، من مكاننا ذاك استأذنتُ للانصراف، قبّلتُ رأسه، واستشعرت رضاه حيال ما قرأتهُ، تذكر لحظتها أمراً: "في الغد يقيم بيت

الثقافة أمسية بخصوص الرواية الجديدة“ عملت ذهني قليلاً قبل أن أقول بصيغة غير متأكدة: ”ربما أحضر“.

***

لم أحضر.

هو كذلك أخبرني وقتها أنه لا يرغب في أن تدور الدوائر حوله مرّة أخرى، لكن إصرار الروائي المعروف – مدير بيت الثقافة – حال وخجل طرفة رغم كل هذه المسيرة والعُمر، يداري رغباته الحقيقية، حياته لطالما كانت مكرسة من أجل الآخرين. يومها، منعتني بضعة ارتباطات أسريّة. حينما عدت إلى البيت، كان قد تبقى بعض الوقت للحاق بالأمسية، ترددت وتكاسلت، يبدو أنني سأفوّتها على غير العادة، داهمني إحساس بالضيق، خصوصاً في مرحلة الكتابة الراهنة. اتصلت بجواد الذي كان برفقته، على أمل أن يقول لي: ”تعال، هناك متسع“ لكنها مضت، ومرر الهاتف إلى طرفة، اعتذرتُ منه وتعللت بما لديّ، لكنه قال: ”لم يفُتك شيء“.

في الليلة الموالية، كنتُ أعيد صياغة جُملة من مطلع فصل جديد. عادة تجري الأفكار نهاراً، وينغلق الخيال في المساء، أما هذه الأيام فأكتبُ على فترتين، وكأني أسابق أمراً ما، هي الحالة الذهنية الخصبة إذا جاءت لا يمكن إلا أن أغتنمها. راحت الفقرات والسطور يشدّ بعضها بعضاً إلى أن حطّ سؤال في رأسي مرتبط بأحداث الثورة على الملكية في العراق، لم تتسلسل الكلمات كما حدث منذ شرعت الكتابة، أسبلت فيها دون نتيجة، أعددت كوب قهوة وجلست أشغل وثائقيات حول الحادثة، لكنني لم أتحصل على روح يمكن القبض عليها، لا موادّ مرئية تُلقي بي في التاريخ. اتصلت بطرفة، كانت الساعة الثامنة، لعله في شقته الآن عائداً من مكتبه قبل وقت قريب، لكنه لم يجب، حاولت أن أدفع بحلول من نفسي، حيلة أتجاوز فيها جهلي بحيثيات الواقعة إلى حين يجيء صوت طرفة، لكنني فشلت، وقبل أن أغلق جهاز الكمبيوتر، اتصلت به مرة أخيرة.

***

في الصباح، تذكرتُ البارحة.

خطر إلى ذهني عدة مرّات، قلت: "سأتصل به بعد قليل" ليست من عاداته التغافل أو الإهمال، دوشة العمل في الساعة الأولى تحديداً. أتذكره كل نصف ساعة وأخرى، أقول: "لن أنسى، سأتصل" آخر مرة تحدثت إليه قال: "لم يفُتك شيء" قال قبلها: "اطمئن" صحيح قال ذلك: "اطمئن، لم يفُتك شيء". كنتُ هادئاً، كل شيء على ما يرام، عادتي أمازح الزملاء، يعتمل رأسي بإنهاء واجبات اليوم والتفرغ للقراءة أو الانزواء في فسحة وقت لأحاول الكتابة، إلا اليوم، أفكار من تلك الغرائبيات على نحو مبالغ، حتى جاء اتصال من جواد، خطر لي هاجسي، وقبل أن تدهمني الأحاسيس، أجبت على عجلة: "سمعت الخبر؟!" كان صوته محطماً، قلت وفقاً لمنجل المخاوف الذي يدق دماغي منذ وعيت صباح اليوم: "اتصلت به البارحة مرتين..." كان يأخذ أنفاساً متلاحقة: "استيقظ في الفجر، يعاني صعوبة في التنفس. سقط".

***

الموت، ليس سقوطاً بالمعنى الذي نعرفه.

كان جالساً، يفكر فقط. ما سقط، لكن جهاز التنفس، وشقته، والبناية، والأرض تهاووا.

علمَ أنه في حالة سيئة منذ أن استيقظ بعد ليلة الملتقى إياها، أخفى معاناته، مكابدة شهقة مشبعة، صعوبة في التنقل، التحدث والتركيز، لم يأكل شيئاً، اللقمة تسد فسحة الهواء الضئيلة، عاد باكراً إلى شقته ليقاوم، بصمته ومكابرته، يقول في داخله: "لن أكون عبئاً على الآخرين" لو كنتُ أمامه لقلت: "يا طرفة، كفاك" يرد بعناده: "حتى لو كان آخر يوم في حياتي". اتصلتْ به ابنته رقيّة، تظاهرَ بألا شيء يعانيه، أحست الأخرى، قال: "مجرد نزلة برد" أصرت بدورها؛ لم تكن مطمئنة، صعوبة التجاوب جعلته يمتثل إليها، أرسلتْ إلى شقته طبيباً تعرفه العائلة، في وقت قرر ألا يفتح فمه سوى للهواء: "يا

الله...“ رسم الدكتور خطة العلاج، أدوية من شأنها أن توسِّعَ الشُّعب الهوائية وتعيد استقرار حالته، كان قد اقترح عليه المبيت في المستشفى: ”لا داعي“ هاتفه يرن، يكتفي بالنظر إلى شاشته، الدكتور يوصي: ”أبق جسدك في وضع مائل، رأسك إلى الأعلى، إذا ازداد الوضع سوءاً، المستشفى فوراً“ جهاز التنفس يلازمه، في قبضته رأس فوهة بخار الدواء، متصلة بأنبوب مطاطي طويل، يسمح له بالحركة إلى مسافة أربعة أمتار تقريباً. اتصال آخر بعد ساعة، طرفة يحافظ على هدوئه، لا يغير من وضعية رأسه بقصد النظر، يحاول أن يغفو، خادمته تقول له: ”دعني أبيت هذه الليلة بالقرب منك، يرد: ”لا داعي“.

***

ذكرى السقوط من سطح البيت المهجور، يوم كنت أبحث عن الكرة.

سطوة الأفكار. الأحلام. حالة ضياع. التأهب لموت وشيك مرتقب حتى ارتطم جسدي، أدركتُ، النهايات ليست أشياء نرصدها بالضرورة. أنا مُطارد من سؤال ”ماذا لو“ يتطفل على الأفكار، يدهم الذكريات، يلاحق النيّات. يحاسبني، يضع رقبتي تحت مقصلة، يهددني، يرهبني. ”ماذا؟ صعوبة في التنفس؟ سقط!“ اعتراض سافر أهوج وكأنه أمر غير وارد الحدوث. جواد متماسك رغم تهدج صوته، أنا في حالة ذهول تام، كانت المكالمة قد انتهت، ولا أعرف من منّا أغلق الهاتف، انزويت في مكان قصيّ، غرفة مقفرة موائمة وظرف الاختناق، سؤالي الجديد: ”ماذا أفعل؟“ حريّ بي الاتصال بطرفة، لا بد أنه سيجيب هذه المرة. الحيرة ترمي بي نحو لا مكان، الخروج إلى العراء، إلى المدينة التي غدت صحراء، ”ماذا أفعل؟“ الوعي في وضع استعداد دائم لمناكفة صاحبه، أتساءل في عرض من نحيب داخلي متواصل، من منّا يغيب الآن؟ الشك جزء أصيل من الوجود، عقلي الشقيّ الغريب يقحم افتراضات غبيّة، يطلب منّي التمهل، ألا استنزف عاطفتي، لربما تكون تلك مزحة سمجة من جواد! فجأة، أجدني عند منزلي، أنظر في زاوية، هنا اقترح طرفة أن أزرع نخلة، أرفع هاتفي أتصل بزوجتي، تفزع عند سماع صوتي، ربما كنتُ أبكي: ”ما

بك!“ أتلو عليها النبأ، ثم أطلب النجدة للحصول على جواب: ”ماذا أفعل؟“ تجيب بيقين تام: ”اذهب إليه“.

”يا جواد، هل حقاً وقع ما وقع؟“.

أحسبه يقول: ”تعال الآن، هناك متسع“ كنتُ أظنه في المستشفى، لكن طرفة ما زال في شقته، ما زال في السبعينات من عمره، ربما فاتته الطائرة المتوجهة إلى إندونيسيا لا أكثر، الأطباء أحياناً يسيئون الفهم، لقد اتفقت معه أن نُتمم مشروعنا، ما زلت في الفصل السادس أو السابع، لدينا جدول مشترك طويل، وأسئلة كثيرة تنتظر إجاباته. تطل عليّ ذكريات عجائبية، لقاء صدفة في سوق مسقف عند مقهى، لحظة، كان ذاك اللقاء بعد غياب طويل، كان يرتدي دشداشة وغترته ملقاة على الكرسي بجواره. يعاود الوعي مناوشاته، أنا لم أر طرفة في حياتي بلباس كويتي، يدهمني الخوف، وكأن الذاكرة تهددني، تشككني في قواي العقلية، من أين تطلّ عليّ هذه الصور!؟ أجدني في ساحة بنايته، ينظر إليّ الحارس بشفقة، يظنني تائهاً، يشير إلى المصعد: ”الأستاذ طرفة في الطابق الأول“ يذْكره بصفته أستاذاً، يتحدث عن شخص موجود يقيم مأدبة غداء لزائريه، عادته يشرع أبوابه لأصدقائه ومريديه. حين انفرج باب المصعد، كان جواد في الواجهة، أخذني من يدي وكأني أجهل المكان، كان أبناؤه وإخوته على غير العادة، هناك بالقرب من طاولة الطعام كانت آخر لقاءاتنا في شقته، قلت: ”أين هو؟“ حرّك جواد رأسه، كأنما يجيب بأسى، نظرتُ في الاتجاه، وجدت جسداً مسجى في غرفته، مغطى بقماش أبيض، قلت: ”أين هو؟“.

***

قلتُ من قبل. أنا رجل تراوده الشكوك باستمرار.

البارحة لم أنم جيداً إثر فكرة لازمت عقلي أقلقت مضجعي، وأنت رجل يقظ تفكك الأحوال المتشابكة، تتحكم في الطاقة، وترى ما لا يراه مبصر، لماذا لم تجب؟ تحاول التملص من مشروعنا، غيّرت رأيك؟ لقد اتفقنا ما بك! غيابك في وقت كهذا، قرار ممهور بثقتك وتخليك، طالما أنت موجود سأكون أسيراً

لآرائك، لكنها سيرتك الذاتية، حياتك المنثورة في رواياتك. يباغتني صوت يهمس في أذني، وعيناي تبحلقان باتجاه القماش الأبيض: "لقد تأكدَ طرفة أنك وذاك نفْس واحدة" يهزني جواد كأنما يوقظني، أجيب في داخلي: "لحظة، من أنا ومن ذاك؟" تعيدني ذاكرتي، يوم وضع ورقة بيضاء أمامي على مكتبه، ورسم دائرة غير مستوية الحواف، ثم أضاف دائرة أخرى صغيرة بداخلها، ومن حولها أجسام طائرة متعرجة وخطوط متقاطعة أو شعيرات صغيرة متقاربة، وقال لي إنها الخلية التي رآها تسبح أمامه مدة عشر ثوانٍ تقريباً، بوضوح تام وكأنه يمعن في القلم الذي كان في قبضته. بالله عليك ماذا ترى الآن؟ أنا رأيتُك في الحلم ربما، أو في حالة لا تمت للمنطق أو العلم برابط، تقود سيارة في ليلة قاتمة، وكنت أجلسُ في المقعد الخلفي أرصد رعدة نافضة في ركبتك. كنّا نهرب من أمر جلل، من موت محتمل في أية لحظة، لكننا نجونا رغم كل المخاطر التي أحاطت بنا يوماً وآخر على مدى شهور متوالية، إلى أن جاء الفرج فقررتَ الرحيل، دون سابق إنذار إلى بلاد بعيدة بلا وداع أو كلمة أخيرة، وكان بالنسبة إليّ غياباً ختامياً، اضطررت قسراً أن أحاكيه وأختفي معه في غمرة النسيان، في الفقدان. أليست هذه مثل تلك؟ مثلها أليس كذلك؟ "لو سمحت جواد، أين هو طرفة؟".

***

هذا الدثار. طرفة.

تناهى إلى سمعي صوت أزيز جهاز البخار، قلت مشيراً نحو المُسجى على الأرض: "طرفة؟" لم يرد جواد، دفعني إلى مجالسة البقية، بدوت آنذاك لا مرئياً، لا أحد يعرف هويتي، تجسدتْ لي هالة الزمن، الممحاة، القلم الأسود الذي يشطب الذكريات، كانت كل الوجوه أنا، متوائمة إلى حد غريب، شغلتُ الشواغر في المقاعد، لا أذكر ما الذي جرى حينئذ. صوت يقول: "من يرغب في وداع أخير..." تمحورنا حول القماش الأبيض، كان محمولاً من رجال الإسعاف الذين حضروا لمعاينته، لتأكيد الخبر، وددت القول: "أنتم تسيئون الفهم" لكن عقلي لا يستجيب، يكرر: "وداع" بلازمة مفزعة قاتلة: "أخير".

انسحب الجسد من أمامي، مغادراً الكتب، ولقاءات الأصدقاء الأسبوعية، وحكايات كثيرة في رؤوسنا. لحقتُ بسيارة الإسعاف إلى المقبرة. أنا أعرف طريق الفقد، أحفظه عن ظهر قلب، بآلية وجدتني أقف إلى جوار جواد عند منصة النهاية، على أرض جرداء ملساء، وصلت إلى هنا رفقة هلوسات تقيّدها الأسئلة والافتراضات، مخاوف تهدد بعزل ووحدة مقبلة، وكأن الدنيا تلفظني إلى تلاشٍ آخر. ينظر إلينا المغيسل، ينتظر منا أن نتفوه بحرف، نقول كلماتنا الأخيرة.

مساء الفراق شاق جداً. أول مرة أتوجه بالكلام إلى طرفة دون أن يبدي ردة فعله بإجابة أو إيماءة، كان يرد بابتسامة فقط. بعد يوم تعب، واصله أرق الليل الطويل، جاء في الحلم يطلب مني الهدوء والصمت، نصَبَ سبابته أمام فمه، قلت دونما صوت: "أنت؟" هزّ رأسه مؤكداً، ثم قال هامساً: "انتبه، لا أحد يراني سواك" كان يجلس على مرتبة أعلى مني، يمرجح ساقيه وكأن من تحته نهر، قلت مرة أخرى بصمت: "هل الأمر الذي أظنّه سارع إلى رحيلك؟" هزّ رأسه مرة أخرى، كان يتفرّس مكاناً ما، قبل أن يلتفت إليّ: "هو الأمر بالتأكيد" سوء الحظ الذي يلازمه، الفرج الذي آمن بأنه سيأتي بعد خط النهاية، انهيار عزلة إندونيسيا بعد الثمانين. اليوم التالي. جنازته شهدت حضوراً كبيراً، في حالة سريالية كنت أتنقل مع الناس، صلاة، مسير، دفن، دعاء، عزاء. لم أكن أرى أو أسمع، كنتُ هلاماً هوائياً تدفعه الريح بلا طريق، شبح منهك من الموت، أراوح بين باب المقبرة ومثوى طرفة، ذهاباً إياباً بلا وعي، أدركني أحدهم قال: "إسماعيل، ماذا تفعل؟ ألن تغادر المكان؟" أرمق الناس من حولي، أتساءل بسؤال صاحبي، أريد أن أعرف إذا ما تابعت الكتابة، ألن ينصت إلى الفصول اللاحقة؟ كاميرات لقنوات تلفزيونية أو صحافية تواصل تغطيتها الخبر، توثق الحدث وتحتفظ به في أرشيفها، هذه المرة لن تدهم أحدهم خيالات حيال لقاءات ومواقف سابقة آتية من زمن مجهول، غير معروفة المصدر. يهزني أحدهم: "إسماعيل، كفاية، غادر". يهبط عليّ جوابي بتلقائية وبديهية: "أغادر إلى أين؟".

***

لو سقطتُ على الأرض بدل السطح المجاور، لو ارتطم رأسي في البلاط ومتّ؟

في حالة لا مرئية، أسبح مثل الخلية في سماء المكان. استيقظَ طرفة في الفجر، فتح عينيه على اتساعهما بفجائية، ثم مد ذراعه في حركة تلقائية إلى رأس أنبوب البخار بالقرب منه، وضغط زر تشغيل الجهاز على طاولة بجوار سريره. صوت أزيز وارتجاج. شعور بالوحدة والمواجهة. سكينة الليل، ظلام المكان. كان وعيه في أفضل حالاته، حاضراً متحفزاً منقضاً على الأفكار، حطَّ قدميه على الأرض، ثم تداعى له مشهد للسيبة من سطح بيتهم قبيل غروب الشمس، كان كتف السماء زهري اللون ينتشر في مجال رؤيته، ثم يتدرج بشكل دقيق ليتحول إلى الأصفر فالبرتقالي، وأسفل المنظر ظلال أشجار تنبثق منها نخلة باسقة مميزة متفتحة الجرائد والأطراف، يهبط منها عذوق رطب وكأنه يرى لوحة زيتية، ربما كانت بقربه ابنة الجيران، ربما قد خلص للتو إلى بيت قصيدة، كانت لحظة سعيدة، تحضره بكل عواطفها، ابتسم، وقد تفاجأ بنفسه من فعله هذا، في وقت يكابد عناء شهيق وزفير، ليس باستطاعته إزاحة فوهة بخار الدواء عن أنفه وفمه أكثر من خمس ثوان، ثم استقام ببطء وأخذ يسير بحذر نحو صالونه، رغم علمه بأن الأنبوب المطاطي لن يأخذه إلى صدر المكان، فإنه كان يتمطّى بأعجوبة، يستجيب لصاحبه حتى توقف في منطقة محددة، زحزح قدميه قليلاً ثم تجمّد في مكانه، أخذ ينظر إلى شقته التي حطّم جدرانها، وجعل كل الغرف غرفة واحدة، يمعن في مكتبته التي اكتست حدود المكان، وفي لوحاته التي اعتلت الأعمدة والنواحي، صوت أنفاسه، شهيق زفير، هدوء تام سوى من أزيز الجهاز عند مرقده ولحظات أخيرة تعم الحياة، باغتته جملة سمعها من رواية إسماعيل، مطلع الفصل السادس: "من المعروف أن طرفة لا يتحدث مثل الصغار، ولا مثل الكبار..." ابتسم مرة أخرى، تساءل عن فرصة سانحة لسماع أو قراءة المزيد من الكتب، كان باب الخلاء عن يساره، دَفَعه، وقف أمام مرآة المغسلة، نظر إلى

وجهه، فتح الصنبور وبلل كفه الأيمن، ثم مسح جبينه وخديه ومسّد شاربه. في الستينيات عندما هجا عبد الكريم قاسم، ذاق في سجنه كل صنوف العذاب، قال في لحظة موّاته: ”لقد سقتُ نفسي إلى حتفي“ بدت نهايته طبق الأصل عن سميّه طرفة بن العبد الذي هجا عمرو بن هند، شاعران في عصرين متغايرين، يذهبان بمحض إرادتهما، وكامل إدراكهما إلى ختامهما، كلاهما في العشرينات من العمر، مندفعان، أحدهما نال ما جاء من أجله، الآخر أخطأ اللحظة والطريق. بلل كفه مرة أخرى، استنشق بقايا الماء ثم أغلق الصنبور. خرج، وجلس على كرسي بالقرب منه، قال لنفسه: ”أنا في نهاية السبعينات الآن“. فكّر في أمر يقضيه فيما تبقى من هذه الليلة، لا مجال للعودة إلى السرير، حكَّ رأسه، وسوى شعره. تداعت له أمسية البارحة في الملتقى الثقافي، قال أحدهم: ”نبارك صدور روايته الأخيرة“ صحح آخر: ”آخر رواية“ هزّ رأسه، أسدل جفنيه، انتقل فجأة إلى زمن آخر، شعر لوهلة بالغرق، أصاخ إلى صوت الأكسجين في الأعماق، فتح عينيه، تراءت طليبة أعلى منه تقف على الضفة بملامح فزعة، بدت صورتها متغضنة ثم رآها تُلقي بنفسها في النهر، تحت الماء ليس بمقدوره التنفس، عندها أحس بوعي حاد مدهش، بدا وكأن قبضة أحدهم قد أوثقت بياقته وجرّته بقوة هائلة إلى الأعلى، بينما ينزلق مرفق طرفة الذي يعاضد بدنه، تنفلت منه فوهة البخار، يسقط من كرسيه.

٢٦

كان طرفة يدير محلاً فاخراً. يقف وراء باب زجاجي مغلق، حاولتُ فتحه دون جدوى، وبفعل غرائبي مدَّ ذراعه النحيلة عبر كوّة صغيرة في الزجاج تسمح له بالوصول إلى القفل، ثم ضغط شيئاً ما فانفرج الباب، تجولت في المكان، رحت أتفحص معروضات متجره حتى أشار إلى مقعد مخملي أزرق. جلست قبالته، فناولني سيجارة، نظرت إليها، اشتهيتها، أشعلها لي فأخذت نفساً عميقاً متأملاً دخانها النافث من فمي، بادلني طرفة الفعل، قال: "ما رأيك؟" لم أرُد، كنت مستمتعاً فحسب، رغم أنني لم أدخن قط في حياتي، فإنها بدت أشهى سيجارة على الإطلاق. نهضَ من مكانه بحماسة وخفة، ثم ابتسم وقال: "اطمئن، هذا النوع غير ضار".

كان مجيئه في المنامات يخفف أوجاع الغياب، لكن الحياة قد تجمدت آنذاك، كل الخطط تأجلت أو ألغيت، بما فيها الكتابة. عند لحظة شك شعرتُ أن لوجود طرفة دافعاً كبيراً في مواصلة تدوين القصص والحكايات، وحده الذي آمن بإسماعيل، عدلت بعدئذ عن تلك الفكرة وذلك الإحساس، لو توقفت الآن سأكون خيبة أخرى له.

لقد طفْتُ رفقة جواد حول أمسيات التأبين وكلمات الرثاء، كنت أعدُّ الورقات واحدة تلو الأخرى، أستنزف الذاكرة، العاطفة، أكتب الشواهد وأعقد الخيوط وأحلُّ بعض الأحجيات العجائبية حول ما قاله أو تسلّكه. كان المؤبنون يتنازعون حق امتلاكه: "هذا الروائي يعود لنا، مسقط رأسنا، بلدنا". وذات يوم، اجتمعنا ومجموعة من الأدباء من أجل المطالبة بإطلاق اسم طرفة على شارع أو مدرسة، قال جواد أثناء ذلك إنه تحصل على توكيل من أبنائه يسمح له بتولي شؤونه الأدبية. اتصلت به بعد انقضاء ذلك المساء: "لقد كتب طرفة سيرته الذاتية، وقد حان وقت الاستعانة بها". علمت آنذاك أنه لا أحد على علم بهذا النص، قلت له: "كان عنوانها النصيفة".

بعد وقت، جاءني بها جواد. رزمة كبيرة من الأوراق مدوّنة بخط يده، تعود لوقت كان يستخدم قلم الرصاص والممحاة في الكتابة، جعلت منها نسخة أخرى للقراءة، واحتفظت بالأصلية في مكان آمن. شرعت أدوّن بعض الملاحظات التي تحوي أحداثاً إضافية، وتضفي واقعية أكبر لسيرته، ثم حررت بضع مشاهد كتبتها سلفاً، ومع تقادم الصفحات أصبحت الرزمة على وشك الانتهاء وهو ما يزال في الرابعة من عمره. بقدر الإحباط الذي ألمّ بي، لقد شعرتُ بالارتياح بعض الشيء. لقد تخلص طرفة من مجلدين كاملين تقريباً، تأكد جواد من الخبر عن طريق موظفيه، قالت إحداهن إنه ألقى بمجموعة كبيرة من الكتب والأوراق في أيامه الأخيرة، ربما حدس قرب أجله ولم يرغب في ترك أثر بعد رحيله، ربما ودَّ لي أن أكمل الرواية بالطريقة التي بدأتها، بعيداً عن تفاصيل جاء على ذكرها في مسوّداته. بعد عام سافرتُ إلى السيبة بقصد حضور تأبين في ذكرى وفاته عند مسقط رأسه، رفقة مجايليه من أصدقاء الكوخ وآخرين، وأخذت أتجوّل في القرية ملياً، كانت كما رأيتها في خيالي إلا من بعض التغييرات التي فرضها الزمن، كنت أسأل أصحابها: "أليس هنا أشجار رمان، وهناك بقالة، وهذا الممر كان يطفح بالماء في أوقات مدّ شط العرب؟". يؤكدون جغرافيا القرية لكنني حين سألتهم عن بضع أحداث وتفاصيل بدؤوا بنكرانها، بدءاً بملكية المنازل من قِبل ضباط إنجليز، وأحداث مكبس التمور، حتى قدرته على السفر إلى البصرة بدراجة هوائية. خلصت إلى أمر بعد هذا، لقد حاول طرفة كتابة رواية تشبه حياته، لا أكثر.

كان جواد، من جملة الأحداث التي عقبت وفاة طرفة، قد طلب مني نقل مكتبته العامرة إلى منزلي: "إذا بيعت شقته سأواجه مشكلة في الاحتفاظ بكل هذه الكتب". اتصلت بأبنائه، إسماعيل، أسامة وبدر، أكدوا لي سماحهم بذلك، كانت النية أن نقيم متحفاً له في مكان ما، لذا كان من الضروري نقل أغراضه الشخصية كذلك، قبعته، ساعة يده، حذائه، معطفه، نظارته، أوراقه الثبوتية وبضع مسوّدات بخط يده، إضافة إلى الدروع والجوائز وشهادات التقدير التي حصل عليها طوال مسيرته. عندما كنّا نجمع مقتنياته من شقته، بمعونة عمّال من مخزن دار فيستا للنشر والتوزيع، وبحضور جواد، دفع لي أحدهم بشيء:

”وجدنا هذا خلف أحد الكتب“ كان مسدساً حقيقياً بمقبض مزركش مذهّب، ثقيل الوزن وبدا شكله قديماً، فيما كنتُ أقلبه أجفلتُ من نفسي، لقد هبط عليّ هذا الشيء ضمن سلسلة الصور المتدفقة في خيالي. هبّ جواد من موقعه، أحسستُ أنه على دراية بأمر هذا السلاح: ”لحظة، دعني ألقي نظرة عليه“. عقد حاجبيه ومضى يتفحصه بدقة وحاول إخراج مخزنه، بدت على ملامحه الغرابة، قال: ”هذا المسدس أسطورة“ ثم حسم أمره وقرر تسليمه إلى أحد أبنائه ليتصرف به.

***

أعترف، بعد وفاة طرفة ظللتُ مدة أتخبط في قراراتي، كنت أبحث عن بديل، ربما.

لكن الكتابة أمسكت بي جيداً، دلّتني الطريق، لقد عرفت طرفة بعد وفاته أكثر مما كنت أعرفه في حياته، بحثت جيداً وتوغلت في مسيرته سنة وأخرى، تتبعته كما لو كنت قرينه، توقعت تصرفاته في مواقف مختلفة، واستطعت أن أخمن ماذا قال وفعل حين حدث كذا وكذا. ورغم المواصلة الحثيثة في الكتابة عنه، والمتعة المرافقة لكل ذلك، فإنني خشيت جداً من فكرة نشرها، حتى مع وجود تأييد خالص من أبنائه ورفقائه وجواد، شعرتُ في لحظة ما بأنها ورطة كبيرة، الخوض في حياة شخصية معروفة تحوم حوله الآراء، متعدد العلاقات والأصدقاء، شهد أحداثاً كثيرة وشارك في نشاطات سياسية وحزبية، رغم تحفظه وعدم إدلائه بكل آرائه صراحة سواء في الروايات أو الندوات العامة. كلما يمضي الوقت بالإنسان يزداد رغبة في الصمت.

وجاء ذات يوم في الحلم، كعادته منذ وفاته، يقف مرخياً إحدى ساقيه ويلقي بثقله على الأخرى، يضع كفيه في جيبيه، يبتسم ابتسامة ساخرة: ”الكتابة الروائية ورطة ثقيلة بالأساس“. ومع توالي الفصول والاكتشافات، أصبحت أتلبس طرفة ذاته، وبدأت أتصرف وكأني هو بشخصيته الشقية والرزينة، أجلس للكتابة في مقهى، ثم أجد نفسي فجأة في غرفة صيفية على سطح بيت طيني البناء في منطقة شرق، ومصباح أصفر أعلى مني تؤرجحه الريح.

لم يقل طرفة إنه كتب يوماً في مكان كهذا، ولم يدوّنه في أية رواية، ولكنني علمتُ يقيناً بطريقتي أن هذا وقع مثلما كتبت. ورغم ذلك فإنني إذا ما سألت أحد الذين أحاطوا به في سنواته الأخيرة، بقصد استمالة معلومة تفوّه بها أمامهم، أو حكى لهم جزءاً مغيّباً من تاريخه، يجيبون: "في حياة طرفة الكثير مما لا يقال".

ما أستطيع قوله ولم آتِ على ذكره في روايتي الآنفة، أن لطرفة محاولات جادة وكثيرة في الفن التشكيلي أسوة بالشعر، وله أعمال ربما غير موقعة، أو سقطت أثناء تنقلاته العديدة بين البلدان والمدن، وهذا يفسر ارتباطه العجيب باللوحات الفنية التي يزرعها على الحوائط في كل مكان يستوطنه.

تعاقبت السنوات، وما زالت مقتنيات طرفة في حوزتي، ومعطفه معلقاً أمام مكتبي، أنهل منه الحيوات الكثيرة التي عاشها في خياله، حتى اللحظة التي أراجع فيها المسوّدة النهائية، قبل إرسالها بأيام قليلة إلى الناشر، أقرأ الآتي من البداية: "كنتُ في مبنى جريدة أوان، عندما أشار إليّ الشاعر حمدان بتتبع قصص الكاتبة بلقيس".

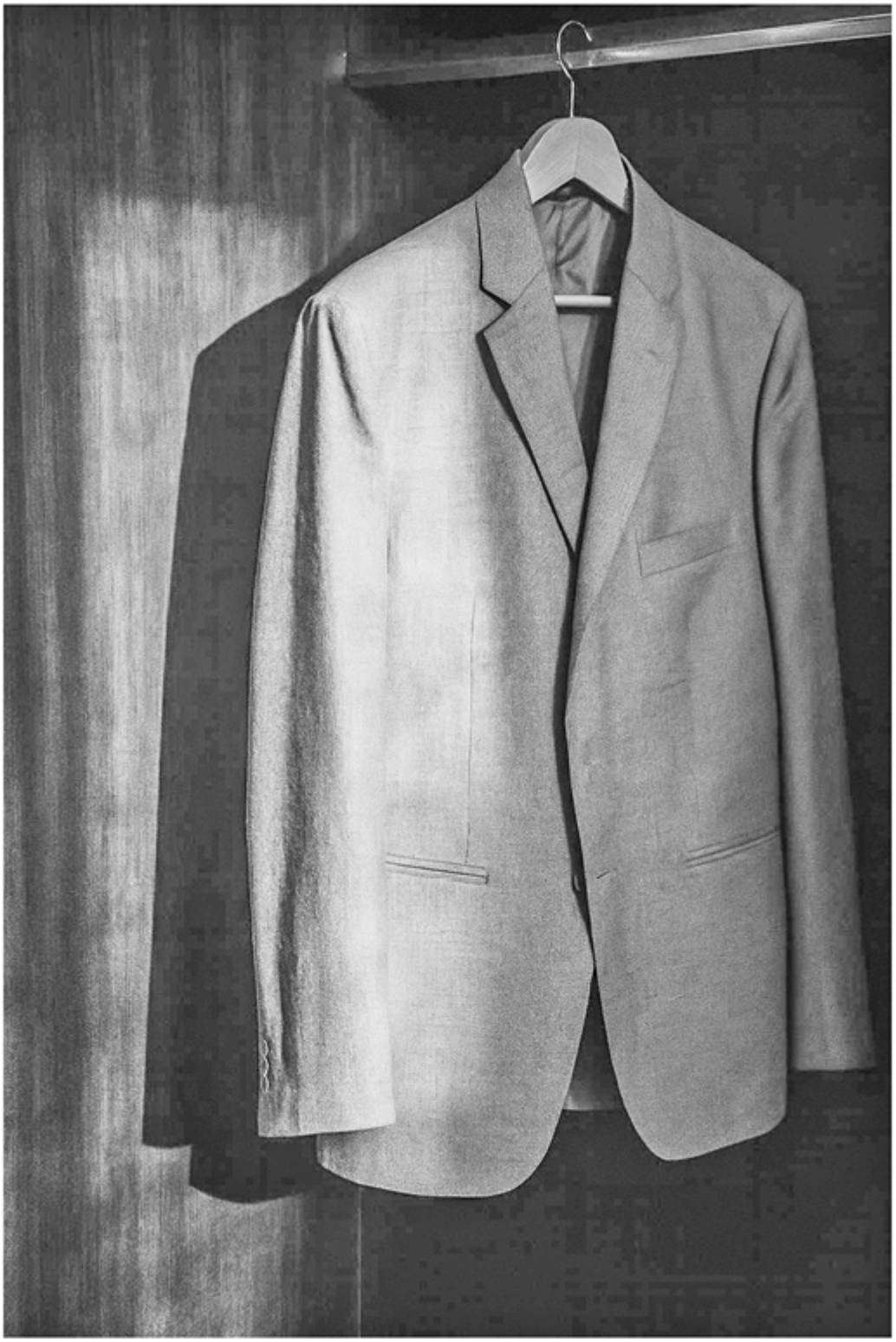

حول الكتاب

نبذة

طفلٌ تخيّل النهرَ سجادةً خضراءَ... فسقطَ فيه.

منذ تلك اللحظة، يبدأ طَرَفة رحلة حياته مطارَداً بشغف الاكتشاف.

في مكبسِ تمور مهجور، يعثر ابنُ الأربع سنوات على كتاب ساحر، فتشتعل شرارةُ حبّه للقراءة.

يتعلّم فكَّ الحروف بنفسه، ويدهش الجميعَ بذكائه، حتّى صار أقرانُه يلتفّون حولَه ليستَمعوا إلى قصصِه.

ينطلق على درّاجته الهوائيّة ويجوب البصرة ليحظى بكتاب أو مجلّة أو لحظةٍ مسروقة في السينما.

لكن حين يهدّد المرضُ بصرَ الأب، يتدرّب طَرَفة على أن يكون عينَي أبيه، ويندفع إلى العمل باكراً لتأمين المدخول. ومع تنامي شعوره بالرفض والغضب، يجد نفسَه منغمساً في العمل السياسي ويقود اعتصاماتٍ في الشوارع.

قصيدة واحدة كتَبَها، كانت كفيلةً بأن تدفعه مباشرةً إلى قلب العاصفة...

قيل في الكتاب

«براعة لافتة وقدرة أدبيّة»

عبّاس بيضون

«متمكّن من أدواته السرديّة»

جريدة القدس العربي

عن المؤلف

خالد النصراللّه كاتب وروائيّ وعضو رابطة الأدباء في الكويت. صدر له عن دار الساقي ’الخط الأبيض من الليل‘ (القائمة القصيرة لـ«الجائزة العالمية للرواية العربية» ٢٠٢٢) و’الدَّرَك الأعلى‘ (القائمة الطويلة لـ«جائزة الشيخ زايد» ٢٠١٧).